سُورَةُ المَائِدَةِ

مِيثَاقُ العُبُودِيَّةِ وَاكْتِمَالُ النِّعْمَةِ



تَأَمُّلَاتٌ تَدَبُّرِيَّةٌ

فِي بِنَاءِ الإِنسَانِ الأَمِينِ

رَدَّادُ السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مِيثَاقُ الْعُبُودِيَّةِ وَاكْتِمَالُ النِّعْمَةِ

تأمّلاتٌ تدبُّريّةٌ

في بناء الإنسان الأمين

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة منهجيّة

في طبيعة هذا الكتاب ومسالكه في تدبّر سورة المائدة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدايةً ونورًا، وجعل آياته مائدةً للقلوب، لا ينفد عطاؤها، ولا تنقضي عجائبها، ولا يخلق معناها على كثرة الترداد. والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، الذي بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وبيّن للناس ما نُزّل إليهم، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فهذا الكتاب رحلةٌ تأملية تدبّرية في سورة المائدة، تحاول أن تقرأ آياتها في وحدة بنائها، وأن تستخرج من أحكامها حرارة الإيمان، ومن قصصها قوانين النفس والتاريخ، ومن خطابها لأهل الكتاب مرايا تحذّر الأمة المسلمة من أن تسلك طرائق الانحراف نفسها. وهو لا يقدّم تفسيرًا موسوعيًّا يستقصي الأقوال والخلافات والروايات، ولا يزعم إنشاء معنى منفصل عن تراث التفسير؛ وإنما ينطلق من المعنى المعتبر للآية، ثم يتأمل امتداداته النفسية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية في حياة الإنسان.

لقد غلب على بعض القراءات المعاصرة لسورة المائدة أن تراها سورة أحكامٍ وتشريعات: الحلال والحرام، والصيد والإحرام، والطهارة والكفارات، والقصاص والحدود، والشهادة والوصية. وهذا صحيح من جهةٍ ظاهرة، لكنه لا يستوعب روح السورة كلها؛ فالأحكام فيها ليست موادّ قانونيةً باردة، بل أجزاءٌ من ميثاق العبودية. إنها لا تنظّم يد الإنسان وحدها، وإنما تبني القلب

الذي يحرك اليد؛ ولا تمنع الجريمة فحسب، بل تكشف المنحدر النفسي الذي تبدأ منه؛ ولا تقيم العدل في المحكمة وحدها، بل تحرر الحكم الداخلي من سلطان الحب والبغض والهوى.

ومن هنا اتخذ الكتاب من **الميثاق** خيطًا جامعًا للسورة. فقد افتُتحت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾،
واختُتمت بقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وبين الوفاء في المطلع والملك في الختام تنتظم موضوعات السورة جميعًا: فالإنسان مأمورٌ بالوفاء لأنه عبدٌ يعيش في ملك الله، ويتصرف في رزقه، ويحمل أمانته، ويرجع إلى حكمه. ومن هذا العقد الأعظم تتفرع سائر العقود: عقد الإيمان، وعقد العبادة، وعقد الأسرة، وعقد المال، وعقد الكلمة، وعقد الشهادة، وعقد الحكم، وعقد الأمة مع الوحي الذي استؤمنت عليه.

منهج القراءة

يقوم منهج هذا الكتاب على جملةٍ من المسالك المتكاملة:

أولها: **الانطلاق من ظاهر الآية وسياقها**. فلا يُبنى التدبر على معنى يقطع الصلة بدلالة اللفظ أو يحمّل النص ما لا يحتمل، بل يبدأ من المفردة القرآنية، وتركيب الجملة، وسياق الآيات، وما قرره المفسرون في المعنى الأصلي. فإذا تعددت الأقوال المعتبرة ذُكر منها ما يخدم وضوح المعنى، دون استغراقٍ في تفريعات الخلاف التي تخرج بالكتاب عن طبيعته التأملية.

وثانيها: **قراءة الآية داخل نظم السورة**.

فالآية ليست جزيرةً منفصلة؛ ما قبلها يمهد لها، وما بعدها يكشف بعض مقاصدها، وتكرار الألفاظ والمعاني يصنع شبكةً داخليةً تشد أجزاء السورة. ومن هنا عُنِي الكتاب بالعلاقات بين الوفاء والعقود، وبين الطهارة والعدل، وبين نقض الميثاق وقسوة القلب، وبين إقامة الكتاب ونزول البركات، وبين المائدة النازلة من السماء والمسؤولية المترتبة على النعمة.

وثالثها: **الانتقال من التفسير إلى التدبر دون خلطٍ بين المقامين**.

فالتفسير يبيّن مراد الآية بحسب اللغة والسياق والنقل الصحيح، أما التدبر فينظر فيما تهدي إليه الآية من تزكية النفس وإصلاح الواقع واكتشاف السنن. لذلك حرص الكتاب على ألا يجعل الخاطر الأدبي بديلًا عن المعنى التفسيري، ولا أن ينسب إلى الآية ما هو مجرد إيحاء شخصي؛ بل يأتي التأمل امتدادًا للمعنى، لا منافسًا له.

ورابعها: **استحضار الإنسان المعاصر دون إخضاع الوحي للعصر**.

فالقرآن يخاطب الإنسان في كل زمن: يخاطب خوفه وطمعه، ووفاءه وخيانته، وحبه وبغضه، وحاجته إلى الأمن والمعنى. ولهذا ربط الكتاب بين مفاهيم السورة وصورٍ معاصرة من أزمة الثقة، وفساد المال، وتزييف الوعي، وتجارة الشائعات، وضغط الجماعة، والانبهار بالقوة، وإدمان الخمر والميسر في صورهما الحديثة. غير أن هذا الاستحضار لا يجعل العصر حاكمًا على النص؛ بل يجعل النص ميزانًا يُقرأ به العصر وتُكشف به أوهامه.

وخامسها: **الجمع بين بناء الفرد وإقامة المجتمع**. فسورة المائدة لا تفصل بين صلاح القلب وصلاح النظام. الوضوء يطهّر الجوارح، والعدل يطهّر الحكم من الهوى؛ والتقوى تراقب السرائر، والقضاء يحفظ الحقوق؛ والتوبة تصلح الفرد، والحدود تحمي المجتمع. ولذلك حاول الكتاب أن يكشف هذا التوازن، فلا يختزل الدين في مشاعر روحية، ولا يحوله إلى نظامٍ قانوني منفصلٍ عن الخشية والإحسان.

وسادسها: **استبقاء مركزية الآخرة**. فالأحكام في السورة لا تنتهي عند نتائجها الدنيوية؛ الصيد مرتبط بالحشر، والشهادة مرتبطة بعلم الله، والحكم مرتبط بالمصير، والصدق ينتهي إلى الرضوان. لذلك ظل الكتاب يرد التفاصيل إلى المشهد الأخير؛ إذ لا يتضح الوزن الكامل للأفعال إلا حين توضع في ميزان الآخرة.

الضوابط العقدية والفقهية

لما كانت سورة المائدة من أكثر السور تناولًا لقضايا التوحيد، وأهل الكتاب، والحكم بما أنزل الله، والحدود، والموالاة؛ فقد احتاجت قراءتها إلى قدرٍ ظاهر من الاحتراز العلمي.

ففي آيات صفات الله أُثبت ما أثبته سبحانه لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تكييفٍ ولا تمثيل، مع استصحاب الأصل المحكم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وفي الحديث عن اليهود والنصارى التزم الكتاب أوصاف القرآن وحدوده، فلم يحوّل الأحكام المتعلقة بطوائف وأفعالٍ محددة إلى كراهيةٍ عرقية أو ظلمٍ للأفراد. وقد تكررت في السورة قيود الإنصاف مثل: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾، و ﴿إِلَّا

قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، و ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾؛ لتبقى الأحكام متعلقةً بأسبابها، ويظل العدل واجبًا حتى مع المخالف.

وفي آيات الولاية فُرّق بين الموالاة المحرمة التي تتضمن النصرة والانحياز والذوبان في مشروعٍ معادٍ للدين، وبين البر والقسط وحسن المعاملة والعهود والمصالح المشروعة التي أذن بها الإسلام.

وفي آيات الحكم بما أنزل الله روعي التفصيل الذي قرره أهل السنة بين الجحود والاستحلال والتفضيل، وبين المعصية الواقعة لهوىً أو رشوةٍ مع الإقرار بأصل حكم الله. ولم تُتخذ هذه الآيات بابًا للتكفير المتعجل؛ فالحكم على المعيّنين له شروطه وموانعه ومرجعه إلى أهل العلم والقضاء.

وفي آيات الحدود والقصاص والحرابة جرى التأكيد أن تنفيذ العقوبات من اختصاص السلطة والقضاء، بعد ثبوت الجريمة واستيفاء الشروط وانتفاء الموانع؛ وليست النصوص إذنًا للأفراد والجماعات في إقامة العقوبات أو استباحة الدماء.

أما ما ورد من اختلافاتٍ فقهية في بعض الآيات، فقد اقتصر الكتاب غالبًا على الإشارة إلى موضع الخلاف، وإحالة تفاصيله إلى كتب الفقه والتفسير؛ لأن المقصود هنا إبراز الهداية الإيمانية والأخلاقية، لا تحرير جميع الفروع الفقهية.

الأسلوب الأدبي ووظيفته

اختار الكتاب لغةً أدبيةً دافئة؛ لا لتزيين المعنى من خارجه، بل لمحاولة إعادته إلى القلب بعد أن أَلِفته الأذن. فالصورة البلاغية هنا وسيلة تقريبٍ وإيقاظ، وليست بابًا للتكلف أو صرف اللفظ عن دلالته.

وقد حاول السرد أن يجمع بين وضوح العبارة وعمق الإيحاء، وأن ينقل القارئ من ظاهر المشهد إلى باطنه: من الماء الجاري على أعضاء الوضوء إلى تطهير وظائف الجوارح، ومن الصيد القريب من يد المحرم إلى فتنة الحرام حين يصبح في متناول الإنسان، ومن الغراب الذي يواري جثمان ابن آدم إلى عجز الحضارة عن تعليم الإنسان أن يكف يده قبل أن يتعلم دفن ضحيته.

وهذه الصور لا تُراد بوصفها تفسيرًا مستقلًا للآيات، بل بوصفها ومضاتٍ تدبريةً تستخرج من المشهد القرآني قدرته على مخاطبة الوجدان المعاصر، مع بقاء المعنى الأصلي هو الحاكم.

بنية الكتاب

سار الكتاب مع السورة آيةً آية، من أولها إلى آخرها، وجمع الآيات المتجاورة في فصولٍ موضوعية تحافظ على تسلسل النص وتكشف وحداته الكبرى. وقد انتظمت الرحلة في ستةٍ وعشرين فصلًا، تبدأ بميثاق الوفاء، ثم تمر بأحكام الطيبات والطهارة والعدل، ومواثيق بني إسرائيل، ونور الوحي، وقصة الأرض المقدسة، ودم ابني آدم، وحماية الحياة، ومرجعية الحكم، والولاية، وأمراض العلماء والجماعات، والاعتدال في الطيبات، وابتلاء

الصيد، وأدب السؤال، وأمانة الشهادة، ثم تبلغ ذروتها في المائدة النازلة، وبراءة المسيح، ويوم ينفع الصادقين صدقهم.

ولم يُقصد من تقسيم السورة إلى فصول تفكيك وحدتها، وإنما تسهيل الدخول إلى رحابها؛ فكل فصل باب، والسورة بيتٌ واحد، وكل عنوان عدسة، والنظم القرآني هو المشهد الكامل.

حدود هذا العمل

هذا الكتاب عملٌ بشري في تدبر كلام الله، يصيب ويخطئ، ويقارب ولا يحيط. والقرآن أعلى من أن تستنفد معانيه قراءة، وأوسع من أن يحيط بآفاقه كتاب. وما كُتب هنا ليس نهاية القول في السورة، بل دعوةٌ إلى صحبةٍ أطول معها.

وقد اجتهدنا في صيانة المعنى من التكلف، والتمييز بين أصل التفسير وامتداد التدبر، ومراعاة أصول الاعتقاد وضوابط الأحكام. فما كان من صوابٍ فمن فضل الله وتوفيقه، وما كان من نقصٍ أو خطأ فمن قصور النفس، والله ورسوله منه بريئان، ونستغفر الله منه ونسأله التصحيح والقبول.

غاية هذا الكتاب ألا يخرج القارئ من سورة المائدة حافظًا لموضوعاتها فحسب، بل شاعرًا أنه طرفٌ في ميثاقها؛ وأن يسمع وراء كل حكمٍ نداءً شخصيًّا: أوفِ، واعدل، واتقِ، ولا تكتم، ولا تغلُ، ولا تتبع الهوى، وأقم الكتاب في نفسك قبل أن تطالب بإقامته في الناس.

فإذا انتهت الرحلة إلى قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، أدرك القارئ أن السورة لم تكن تعلمه الأحكام وحدها، بل كانت تصنع فيه الإنسان الذي يصدق في حملها.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، وأن يرزقنا الوفاء بميثاقه، والوقوف عند حدوده، والعدل في حكمه، والصدق في لقائه؛ حتى نكون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد: السورة التي تُقيم الإنسان على مائدة التكليف

ليست سورة المائدة حديثًا عن الحلال والحرام فحسب، ولا سجلًّا تشريعيًّا تتتابع فيه الأوامر والنواهي منفصلةً عن حرارة الروح؛ إنها سورة الميثاق الكبير، السورة التي تأخذ الإنسان من يده، فتُوقفه أمام الله، وأمام نفسه، وأمام الناس، ثم تسأله سؤالًا واحدًا تتفرع منه سائر أسئلتها: **هل أنت أمينٌ على ما عاهدت الله عليه؟**

ولهذا افتُتحت بالوفاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾،
واختُتمت بالملك المطلق: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

فبين الوفاء في أولها والملك في آخرها تُبنى الحقيقة كاملة: أنت مأمورٌ بالوفاء لأنك لست مالكًا مستقلًّا، وإنما أنت عبدٌ يعيش في ملك الله، ويتحرك تحت سلطانه، ويحمل أمانته إلى أجل. وما العقود التي تعقدها، والعهود التي تقطعها، والحقوق التي تؤديها، إلا فروعٌ عن العقد الأعظم: عقد العبودية لله.

وسورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن، فكأنها جاءت بعد أن نشأ الإيمان في القلوب، واشتد عود الجماعة المسلمة، لتقول لها: لقد مضى زمن التربية الأولى، وحان زمن حمل الأمانة كاملة. فالإيمان الذي لا يصير وفاءً، وعدلًا، وطهارةً، وانضباطًا، وشهادةً لله؛ يبقى عاطفةً لم يكتمل نضجها، ونورًا لم يتحول بعد إلى طريق.

إنها سورة اكتمال الدين، وقد أشرق في قلبها الإعلان العظيم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وليس اكتمال الدين كثرةَ أحكامٍ فحسب؛ بل اكتمال ميزان يرى به الإنسان الأشياء على حقيقتها: يعرف ما يقرّبه وما يبعده، ما يطهره وما يدنسه، ما يحفظ المجتمع وما يهدمه، ما هو عدلٌ وإن آلم، وما هو هوى وإن تزيّن. إن النعمة لم تتمّ لأن الإنسان أُعفي من التكليف، بل لأنها دلّته على الطريق، ولم تتركه نهبًا لظنونه وشهواته وتقلب أهوائه.

وفي السورة مائدةٌ نزلت من السماء، ولكن المائدة الأوسع هي السورة نفسها؛ عليها غذاء الروح والعقل والضمير والمجتمع. فيها أحكام الطعام، غير أنها تعلّم الإنسان ألّا يلتهم الحياة بلا ميزان. وفيها أحكام الصيد، لكنها تصطاد نوازع النفس الشاردة وتردّها إلى حرم الله. وفيها الطهارة، ولكنها لا تغسل الأطراف وحدها؛ بل تغسل الضمير من الخيانة، والقلب من الحقد، والحكم من الهوى. وفيها الحدود، لكن وراءها حماية الحياة من أن تتحول إلى غابة. وفيها حوار أهل الكتاب، لكن المقصود الأبعد أن ترى الأمة مآلات الانحراف حين ينفصل العلم عن العمل، والعهد عن الوفاء، والدين عن الخشية.

سنمضي في هذه السورة آيةً آية، لا نقتطع الحكم من روحه، ولا الصورة من سياقها، ولا التأمل من أصل التفسير. سنبدأ من ظاهر اللفظ ولسان العرب ونظم الآيات، ثم ننفذ إلى أعماق النفس، وحركة المجتمع، وسنن التاريخ، وأسئلة الإنسان المعاصر. فالقرآن لا يشيخ، لأن الإنسان الذي يخاطبه — بخوفه وطمعه، ووفائه ونكثه، وعدله وهواه — ما يزال هو الإنسان.

الفصل الأول

أَوْفُوا بِالْعُقُودِ: حين يبدأ الإيمان من صدق الكلمة

الآية الأولى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ما أهيب أن تبدأ السورة بهذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. إنه ليس نداءً عابرًا، وإنما استدعاءٌ للهوية قبل التكليف؛ كأن الله يقول لهم: إن كنتم قد رضيتم بالإيمان اسمًا لحقيقتكم، فليكن الوفاء أثر هذه الحقيقة في حياتكم. فالإيمان ليس كلمةً تُقال في فضاء القلب ثم لا يسمع لها صدى في عالم التعامل؛ الإيمان عهد، وأول ما يثبت صدق العهد أن يصون الإنسان عهوده.

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

جاء الأمر موجزًا، لكنه يحمل عمران الحياة كله. فالعقد ما يشدّ طرفًا إلى طرف، كما تُعقد الحبال حتى لا تنفلت، ومن هنا كانت العقود شدًّا أخلاقيًّا يمنع العلاقات الإنسانية من التبدد. إن الناس لا يعيشون معًا بقوة الأجساد، وإنما يعيشون بقوة الثقة؛ والثقة لا تبنى بكثرة الكلام، بل بأن تظل الكلمة قائمةً بعد أن يغيب قائلها، وأن يبقى الوعد محفوظًا حين يصبح الإخلال به أسهل وأنفع.

العقد ليس ورقةً موقّعة فقط؛ قد يكون كلمة زواج، أو عهد صداقة، أو أمانة منصب، أو مسؤولية علم، أو بيعة حق، أو ذمّة بيع، أو سرًّا استودعه صاحبه قلبك. وكلما اتسعت دوائر حياة الإنسان اتسعت عقوده، حتى ليصبح المرء نسيجًا من العهود: عهدٍ مع ربه، وعهدٍ مع أهله، وعهدٍ مع أمته، وعهدٍ مع الحقيقة التي عرفها وأعلن انتسابه إليها.

وأعظم العقود ذلك العقد الصامت الذي انعقد بين العبد وربه حين قال: آمنت. فهذه الكلمة ليست خبرًا عن شعور عابر؛ إنها توقيع الروح على ميثاق العبودية. ومن قال: آمنت بالله، فقد رضي أن يكون أمر الله مقدمًا على هوى نفسه، وحكم الله أعلى من ضغط بيئته، ورضا الله أغلى من تصفيق الناس.

إن الخيانة لا تبدأ دائمًا من جريمة كبيرة؛ قد تبدأ من استهانة صغيرة بالكلمة. يَعِدُ المرء ثم يقول: لم يكن الأمر مهمًّا. ويأتمنه الناس فيرى الأمانة فرصة. ويُكلَّف بمصلحة عامة فيحوّلها إلى منفعة خاصة. وهكذا تتآكل الحضارات من حوافّ الضمير قبل أن تسقط جدرانها؛ لأن المجتمع الذي تفقد فيه العقود حرمتها يصبح سوقًا للخوف، يحذر فيه كل إنسان من كل إنسان.

ثم تنتقل الآية من الأمر الكلي بالوفاء إلى بعض تفاصيل الحلال والحرام: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. وكأن السورة تقول: إن الوفاء بعهد الله لا يبقى فكرةً محمولة في الأعالي، بل ينزل حتى إلى الطعام الذي تمد إليه يدك. فالعبودية تدخل المطبخ كما تدخل المحراب، وترافق الإنسان في شهوته كما ترافقه في صلاته. وليس في حياة المؤمن منطقةٌ معزولة عن سلطان الله.

ولافتٌ أن الأصل في هذه الأنعام الإباحة، ثم يأتي الاستثناء محددًا: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. ففي الشريعة سعةٌ أصلية تحيط بها حدودٌ حكيمة، وليس التحريم هو الفضاء كله. لقد أباح الله الكثير، وحرّم القليل؛ غير أن النفس قد تنسى بحار المباح، وتظل تحدّق في جزيرة الممنوع، كما فعل الإنسان الأول حين كانت أمامه الجنة، فانشغل بالشجرة.

ثم يأتي القيد: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾. فالصيد في أصله مباح، ولكنه يُمنع في حال الإحرام؛ ليعلم الإنسان أن الأشياء لا تُحكم بأسمائها وحدها، بل بأوقاتها وأحوالها ومقاصدها. وقد يكون الشيء مباحًا في ذاته، ثم يصبح امتناعك عنه في مقام مخصوص عبادةً وتربية.

في الإحرام يخلع الإنسان ثيابه المعتادة، ويكف يده عن الصيد، ويدخل في هدنةٍ عميقة مع الحياة من حوله. الحيوان الذي كان يمكن أن يكون فريسةً بالأمس يصبح آمنًا اليوم؛ لأن العبد يتعلم أن قدرته على الفعل لا تعني دائمًا حقه في الفعل. وهذه من أجلّ حقائق الأخلاق: ليس كل ما تقدر عليه مباحًا لك، وليست القوة رخصةً مطلقة، وإنما تُعرف عبوديتك حين تُمسك قدرتك عند حد الله.

وتنتهي الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. إنه ختام يضع العبد في موضعه الصحيح. فالله لا يستمد سلطانه من رضا البشر، ولا يصبح حكمه حقًّا حين توافقه أهواؤهم؛ بل هو سبحانه المالك الحكيم، يحكم بعلمه الذي أحاط، ورحمته التي وسعت، وحكمته التي قد يخفى علينا بعض وجوهها.

والمؤمن لا يقول: أطيع إذا فهمت الحكمة كلها؛ بل يطيع لأنه عرف الآمر، ثم يتدبر الحكمة فيزداد قلبه طمأنينة. فالفرق بعيد بين عقل يتدبر أمر الله

ليحسن الامتثال، وعقل يشترط على الله أن يكشف له أسرار حكمه قبل أن ينحني. الأول عقل عبدٍ بصير، والثاني عقل يريد أن يجعل من قصوره محكمةً للوحي.

وهكذا تحمل الآية الأولى بذرة السورة كلها: عقدٌ يجب الوفاء به، ومباحٌ يُنتفع به، وحدٌّ لا يُتجاوز، وحكمٌ يُسلّم له. وبين هذه الأربعة تتشكل شخصية المؤمن: أمينٌ في عهده، شاكرٌ في انتفاعه، منضبطٌ في شهوته، خاضعٌ لربه.

الآية الثانية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

بعد أن أمرت الآية الأولى بالوفاء بالعقود، جاءت الثانية لتكشف أحد أعظم ميادين الوفاء: الوفاء بحرمة ما عظّمه الله، حتى حين تمتلئ النفس بأسباب الغضب.

﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

الشعائر هي العلامات التي جعلها الله أبوابًا إلى تعظيمه. وليست قيمتها في مادتها الظاهرة وحدها، بل فيما تشير إليه. فالكعبة حجارة، ولكنها ليست ككل الحجارة؛ والهدي حيوان، ولكنه حين يُساق إلى الحرم يصير محاطًا بحرمة القصد؛ والشهر جزء من الزمن، لكنه إذا عظّمه الله لم يعد كسائر الأزمنة.

الإيمان يعلم القلب أن الوجود ليس سطحًا واحدًا؛ ففيه أشياء وأزمنة وأمكنة اصطفاها الله، وجعل تعظيمها من تقوى القلوب.

والماديّ لا يرى إلا ظاهر الشيء: يرى ثوب الإحرام قماشًا، والمصحف ورقًا ومدادًا، والأذان أصواتًا، والقبلة اتجاهًا جغرافيًّا. أما المؤمن فيرى المعنى الذي أودعه الله في الصورة؛ فيعبر من العلامة إلى صاحبها، ومن الشعيرة إلى المشعِّر بها، ومن المظهر إلى سر العبودية الكامن فيه.

ثم تفصّل الآية بعض هذه الحرمات: الشهر الحرام، والهدي، والقلائد، والقاصدين البيت الحرام. إنها ترسم حول العبادة سياجًا من الأمان؛ فالزمان آمن، والمكان آمن، والناسك آمن، والهدي الذي معه آمن. وكأن الحج يهبط على الأرض جزيرةً من السلام، يتعلم فيها الإنسان كيف كان ينبغي للعالم أن يكون لو حكمته حرمة الله لا شهوة الغلبة.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾. ما أجمل أن تُختصر رحلة الإنسان كلها في هاتين الغايتين: فضلٌ يسد فقره، ورضوانٌ يسكّن قلبه. فالإنسان محتاج إلى عطية الله، لكنه أحوج إلى رضا الله؛ وقد يُعطى من الدنيا من لا يُرضى عنه، أما من رضي الله عنه فقد أُعطي الخير وإن بدا قليل اليدين.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾. يعود المباح بانتهاء حال الإحرام، فيتجلى توازن الشريعة: تمنع حين يكون المنع تربيةً، وتبيح حين تزول علة المنع. لا رهبانية تستأصل رغبات الفطرة، ولا انفلات يتركها بلا زمام؛ بل حركة موزونة بين الإمساك والإرسال، حتى يكون الإنسان سيد شهوته بالله، لا عبدًا لها.

غير أن القلب قد يمتثل في شؤون الطعام والصيد، ثم يسقط حين يُستفز غضبه؛ ولذلك تنتقل الآية إلى امتحان أشد: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

أي لا يحملنكم بغض قومٍ — بسبب ما ارتكبوه من صدّكم عن المسجد الحرام — على أن تتجاوزوا حدود العدل. والحدث موجع: قومٌ حالوا بين المؤمنين وبين أحب بقاع الأرض إليهم، ومنعوهم عبادةً اشتاقت إليها أرواحهم. إن أسباب الغضب قائمة، وجرح الذاكرة لم يندمل؛ ومع ذلك لا يسمح القرآن للمظلوم أن يجعل مظلمته رخصةً للظلم.

وهنا يرتفع التشريع القرآني إلى قمة أخلاقية مدهشة: العدل لا يُختبر مع من نحب، بل مع من نبغض؛ والفضيلة لا تظهر حين تكون النفس هادئة، بل حين تملك ألف حجة للانتقام ثم تقف عند حد الله.

إن أخطر ما يفعله العدو بنا ليس أن يؤلم أجسادنا، بل أن ينجح في تحويلنا إلى صورةٍ منه. فإذا ظلمنا لأننا ظُلمنا، وخُنّا لأننا خُنّا، واعتدينا لأنهم اعتدوا؛ فقد خسرنا معركتنا الداخلية وإن انتصرنا في ظاهر الصراع. إن المؤمن لا يستمد أخلاقه من أخلاق خصمه، بل من عهده مع ربه؛ فلا يحدد الآخرون مقدار عدله، ولا يمنحهم غضبه سلطةً على ضميره.

ثم تأتي القاعدة التي تصلح أن تكون أساسًا لبناء الحضارة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

فالخير في التصور القرآني ليس بطولةً فردية معزولة؛ بل مشروع تعاون. البر اسم جامع لوجوه الخير الظاهرة، والتقوى هي الحارس الباطن الذي

يصون العمل من الفساد. فإذا اجتمع البر والتقوى اجتمع صلاح الفعل وصلاح القصد، ونظافة اليد ونظافة القلب.

وكما أن الخير يتقوى بالتعاون، فإن الشر أيضًا لا يكبر غالبًا بجهد فرد واحد. وراء كل ظلم شبكة: آمرٌ ومطيع، وكاتبٌ ومبرر، وصامتٌ وقادر على الإنكار، ومنتفعٌ يغض بصره. وقد لا يرتكب الإنسان الجريمة بيده، لكنه يهيئ لها الطريق، أو يزينها، أو يمنحها اسمه ومكانته. ولهذا لم يقل القرآن: لا تأثموا فقط، بل قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ لأن الامتناع عن الشر يشمل الامتناع عن كل مسمار يُدق في آلته.

وكم من إنسان يظن نفسه بريئًا لأنه لم يباشر الظلم، مع أنه كان سلّمًا صعد عليه الظالم، أو ستارًا اختبأت وراءه الخيانة، أو قلمًا ألبس العدوان ثوب الحكمة. إن الله لا ينظر إلى الحلقة الأخيرة وحدها، بل يرى السلسلة كلها.

وتُختتم الآية بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. لأن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تراقب السرائر، ولا أن تحاصر جميع طرق التواطؤ؛ فلا بد من رقيب يسكن القلب. والتقوى هي أن تستشعر نظر الله إليك حين تغيب أعين الناس، وأن تخشى أن تسقط من عينه ولو ارتفعت في أعين الخلق.

وهكذا تبني الآية مجتمعًا له مقدساتٌ لا تُنتهك، وعدالةٌ لا يفسدها البغض، وخيرٌ يتعاون أهله عليه، وشرٌّ يرفض المؤمن أن يكون جزءًا من آلته. وما أحوج عالمنا إلى هذه الآية؛ عالمٍ تُصنع فيه الاعتداءات بأيدٍ كثيرة، ثم يتبرأ كل إصبع من الدم، وتُرتكب فيه الخيانة تحت أسماء المصالح، ويصبح الانتماء إلى الجماعة عذرًا للتعاون على الإثم.

أما القرآن فيحرر الضمير من عصبية الصف، ويقول للإنسان: لا تسأل أولًا: مع مَن أقف؟ بل اسأل: على أي شيء أقف؟ فالحق لا يصير باطلًا لأن خصمك قاله، والباطل لا يصير حقًّا لأن صديقك فعله. إنما المعيار: برٌّ وتقوى، أو إثمٌ وعدوان.

وهذه أولى ثمرات الوفاء بالعقد مع الله: أن يظل ميزانك مستقيمًا حين تميل بك الخصومة، وأن يبقى قلبك عبدًا للحق حين تريد الجماعة أن تجعله عبدًا لانحيازها.

الفصل الثاني

حُدُودُ الْمَائِدَةِ: حين يُربّي اللهُ الشهوةَ لتصيرَ عبادةً

الآية الثالثة

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قد يبدو للنظرة العاجلة أن الآية تبدأ بقائمةٍ من المحرّمات التي تتصل بالطعام، ثم تنتقل فجأةً إلى إعلان اكتمال الدين، غير أن التدبر يكشف وحدةً عميقةً تجمع أطرافها: فالدين لا يكتمل في حياة الإنسان حتى يدخل في تفاصيل جسده، وطعامه، وشهوته، وخوفه، واختياره. إن العقيدة التي تبقى في الذهن ولا تمتد إلى اليد والفم والسوق والمائدة ليست قد اكتملت في واقع صاحبها، وإن كان يحسن الحديث عنها.

تبدأ الآية بإيقاف اليد الممدودة إلى الطعام: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

والميتة هي ما فارقته الحياة من غير ذكاة شرعية. وفي تحريمها تربيةٌ للإنسان على ألا يأخذ الأشياء كيفما اتفقت، وألا يجعل وجودها أمامه مبررًا

لامتلاكها. فليس كل واقعٍ مشروعًا، وليس كل متاحٍ مباحًا. لقد يستطيع الجائع أن يجد، ولكن الدين يسأله قبل أن يمد يده: كيف جاء هذا الذي وجدت؟ وهل مرّ من باب الإذن أم سقط إليك من باب الفوضى؟

إن الإنسان حين يفقد حسّ السؤال عن المصدر، يبدأ بأكل الميتة، وقد ينتهي بأكل حقوق الأحياء. فاليد التي لا يعنيها من أين جاء الطعام، قد لا يعنيها غدًا من أين جاء المال، ولا على حساب أي يتيمٍ ارتفع البناء، ولا من دم أي ضعيفٍ امتلأت الخزائن.

﴿وَالدَّمُ﴾؛ لأن الإسلام لا يريد للإنسان أن يتغذى بما يحمل صورة الحياة المسفوحة، ولا أن تتحول حاجته إلى الطعام إلى ألفةٍ مع الدم. وفي التحريم فاصلٌ نفسيّ بين الإنسان وشراسة الافتراس؛ فالإنسان ليس نابًا يمشي، ولا جوعًا بلا روح، وإنما هو مخلوقٌ أكرمه الله بالتمييز، وجعل حتى طعامه مجالًا للسمو.

﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾؛ فيأتي الحكم قاطعًا، فلا يُردّ إلى ذوق الإنسان المتقلب، ولا إلى ما يظهر له في عصرٍ من عللٍ قد يعرف بعضها ويخفى عليه أكثرها. فالمؤمن لا يربط طاعته بحكمةٍ جزئية، حتى إذا تغير تقدير البشر لها تغيّرت طاعته؛ وإنما يتلقى الحكم عن الله، ويعلم أن علمه محدود، وأن علم الله لا تحدّه اللحظة ولا تحيط به التجربة البشرية.

ثم تبلغ الآية قلب القضية العقدية: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

فقد يكون اللحم في ظاهره طيبًا، لكن الاسم الذي ذُكر عليه أفسد معناه؛ لأن الإسلام لا ينظر إلى المادة وحدها، بل إلى الوجهة التي سيقت إليها. وما ذُبح

باسم غير الله لم يعد قضية طعامٍ فحسب، بل صار وثيقةً في عبادة غيره، وإعلانًا بأن النعمة تُنسب إلى غير واهبها.

وهنا يتبين أن التوحيد لا يقف عند أبواب المساجد؛ إنه يجلس معك إلى المائدة. فحين تأكل باسم الله، وتعترف بأن ما بين يديك من رزقه، يتحول الطعام من استهلاكٍ جسدي إلى ذكرٍ خفي، وتصير اللقمة شاهدًا على العبودية.

ثم تعدد الآية صورًا من الحيوان الذي مات بأسباب مختلفة: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي ماتت خنقًا، ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي ضُربت حتى ماتت، ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من علو، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فهلكت، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ فمات بجراحه.

إنها صور موتٍ متلاحقة، كأن الآية تمر بالقارئ في ساحةٍ يرى فيها الحياة وهي تنطفئ بأشكال شتى. ثم تفتح وسط هذا الموت نافذةً دقيقة: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾؛ أي ما أدركتموه وفيه حياةٌ مستقرة فذكيتموه الذكاة المعتبرة. وفي هذا الاستثناء يقظةٌ عجيبة: ما دام في الكائن بقية حياة، فقد بقي باب الاستدراك مفتوحًا.

وكأن في الصورة ظلًّا إنسانيًّا بعيدًا: كم من قلبٍ خنقته الشهوة، ووقذته المعصية، وتردّى من علو الاستقامة، ونهشته سباع الفتن، ثم بقيت فيه ومضة حياة يستطيع بها أن يعود! لا يجوز أن نحمّل الحكم الفقهي ما ليس فيه، لكن الصورة توقظ هذا المعنى في النفس: ما دامت الروح لم تبلغ الحلقوم، فإن باب التوبة لم يُغلق، وما دامت في القلب رعشة ندم، ففيه حياةٌ يمكن إنقاذها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، وهي الحجارة التي كان أهل الجاهلية يعظمونها ويذبحون عليها. فالقرآن لا يحرّم الذبيحة فحسب، بل يهدم

المسرح الذي مثّلت عليه الوثنية سلطانها. إذ لا يكفي أن يُنزع الصنم من داخل الكعبة إذا ظل منصوبًا في داخل الإنسان؛ ولا يكفي أن يسقط الحجر إذا بقي الخوف منه، والتعلق به، وطلب المصير عنده.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾؛ وهي سهامٌ كان أهل الجاهلية يطلبون بها معرفة ما يقدمون عليه أو يحجمون عنه. وحقيقة الاستقسام بها أن الإنسان يهرب من مسؤولية القرار إلى وهم الغيب؛ فلا يستخير ربه، ولا يستشير أهل الرأي، ولا يزن الأسباب، وإنما يلقي مصيره بين يدي خرافة.

وما أكثر الأزلام التي تتغير أشكالها ولا تتغير حقيقتها! قد تختفي السهام، ويبقى الإنسان يبحث في الأبراج والطوالع والكهانة عن خبر غده، كأنه لا يطيق أن يعيش عبدًا بين التوكل والعمل، ويريد من الوهم أن يمنحه يقينًا لم يأذن الله به.

﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾؛ والفسق في أصله خروج الشيء عن غلافه وحدّه. فالإنسان حين يطلب حكم حياته من غير منهج الله يخرج عن السياج الذي يحفظ فطرته، ويعرض قلبه لكل طارقٍ يدّعي معرفة المجهول.

ثم يشرق في وسط أحكام الطعام الإعلان الذي غيّر وجه التاريخ: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾.

أيُّ يومٍ هذا الذي تبلغ فيه الحقيقة من الرسوخ أن ييأس أعداؤها من اقتلاعها؟ لقد كان المؤمنون يومًا قلةً مستضعفة، يخاف أحدهم أن يعلن صلاته، ثم دار الزمان، لا لأن الزمان يعمل وحده، ولكن لأن الوحي ربّى رجالًا أوفوا بعهدهم، حتى صار الدين حقيقةً قائمة لا خاطرةً مطاردة.

لكن القرآن لا يريد أن يحوّل هذا النصر إلى سُكرٍ تاريخي؛ فما إن يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ حتى يعقبه بقوله: ﴿وَاخْشَوْنِ﴾. فبعد انكسار الخوف الخارجي يبدأ امتحان الخوف الداخلي. قد تعجز القوى المعادية عن هدم الدين من خارجه، لكن أهله قد يفرغونه من روحه حين يخشون الناس أكثر من الله، أو يبيعون أحكامه طلبًا للقبول، أو يحملون اسمه ويهجرون ميزانه.

إن أخطر ما يهدد الأمة بعد أن ييأس عدوها من اجتثاثها، أن تفقد هي خشيتها من ربها. فالعدو قد يحاصر الجسد، أما انطفاء الخشية فيخرّب الضمير الذي يقاوم الحصار. ولذلك نقل القرآن بؤرة الخوف من الأرض إلى السماء: لا تجعلوا القلوب رهينةً لقوة البشر؛ اجعلوها معلقةً بمن يملك البشر والقوة والتاريخ.

ثم يأتي التاج: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

قالها الله، فلا يملك بشرٌ بعد ذلك أن يزعم أن في الدين فراغًا ينتظر منه أن يملأه. اكتمل الدين في أصوله وهدايته وميزانه وتشريعه؛ فلا يحتاج إلى من يعيد خلقه، بل إلى من يحسن فهمه وتنزيله والوفاء به.

والكمال هنا ليس جمودًا؛ فالشجرة الكاملة لا يعني كمالها أنها ميتة، بل يعني أن أصلها راسخ، قادرٌ على إنبات الفروع في كل موسم. وكذلك الإسلام: كاملٌ في أصوله، حيٌّ في عطائه، يتسع لاجتهاد العلماء في النوازل، دون أن يتحول الاجتهاد إلى سلطةٍ تنقض الوحي أو تعيد صياغة الثوابت بحسب مزاج العصور.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

قد يظن الإنسان أن تمام النعمة هو أن يملك أكثر، لكن القرآن يعلن أن تمامها أن يعرف الطريق. فما قيمة أن تمتلئ يدك وتضل روحك؟ وما نفع أن تتسع أمامك الخيارات ولا تملك ميزانًا يميز ما يحييك مما يهلكك؟ إن نعمة الهداية هي النعمة التي تمنح سائر النعم معناها؛ فالمال بلا هداية قد يصير وقودًا للطغيان، والعلم بلا هداية قد يصير أداةً للخداع، والقوة بلا هداية قد تصير حارسًا للظلم.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

لم يقل فقط: فرضته عليكم، بل قال: ﴿رَضِيتُ لَكُمُ﴾. وفي العبارة حنانٌ يملأ القلب؛ فهذا الدين اختيار الله لعباده، وما رضيه الله لنا لا يمكن أن يكون إهانةً لإنسانيتنا، بل هو الطريق الذي تسترد فيه الإنسانية كرامتها. رضي لنا أن نكون له وحده، كيلا نتوزع عبيدًا بين الشهوة والخوف والمال والناس.

وإذا كان الله قد رضي لنا الإسلام دينًا، أفلا نرضاه لأنفسنا حياةً وميزانًا وهوية؟ إن بعض الناس يعلن الإسلام في مقام الانتساب، ثم يبحث عن ميزانه في كل مكان إلا فيه؛ يرضاه اسمًا، ويستثقل أن يرضاه حكمًا. أما المؤمن فيستقبل هذه الآية كأنها سؤال شخصي: هل رضيتَ ما رضيه الله لك، أم لا تزال ترى أن في أوهام البشر ما هو أهدى من هداية رب البشر؟

لكن السورة، وهي تعلن الحدود وكمال الدين، لا تنسى ضعف الجسد: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

المخمصة هي المجاعة التي تخمص لها البطون وتضمر. فإذا بلغ الإنسان حال الضرورة ولم يكن مائلًا إلى المعصية ولا متخذًا الضرورة حيلة، رُخّص له بقدر ما يدفع عنه الهلاك.

ما أرحم هذا الدين! يضع الحد، ثم يلتفت إلى المرتجف عنده؛ يعلن المبدأ، ثم يرى المضطر تحت ثقله؛ يحفظ حرمة التشريع، ويحفظ معها حياة الإنسان. فلا صلابة عمياء تسحق المحتاج، ولا رحمة رخوة تذيب الحدود.

وبهذا يظهر معنى الكمال: ليس الدين كاملًا لأنه يكثر من المنع، بل لأنه يعرف موضع المنع وموضع الرخصة، ويعرف الإنسان في قوته وضعفه، في اختياره واضطراره. إنه تشريع من خلق الجسد ويعلم جوعه، وخلق الروح ويعلم حاجتها إلى الطهارة.

وتنتهي الآية باسمي المغفرة والرحمة، كأن الرحمة كانت تنتظر الإنسان عند آخر الحد. فليست الحدود جدرانًا أقامها الله ليطردنا عن بابه، بل سياجًا يحفظنا ونحن نسير إليه.

الآية الرابعة

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

بعد أن فصّلت الآية المحرمات، جاء السؤال: ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾؟ فجاء الجواب في كلمة رحبة كأنها تفتح نوافذ الحياة: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.

لم يقل: أحل لكم قائمةً ضيقةً محصورة، بل ردّهم إلى معنى الطيب؛ فالأصل في نعم الله السعة، والتحريم حدودٌ معلومة لا سجنٌ يطبق على الحياة. والدين لا يعادي لذة الإنسان، بل ينقّيها؛ لا يطلب منه أن يجوع وفي الأرض رزق، ولا أن يهجر الجمال وقد بث الله الجمال في خلقه، وإنما يطلب أن يصل إلى اللذة من باب الطهارة، حتى لا يدفع مقابل متعة الجسد خراب الروح.

والطيب أوسع من مذاقٍ تستحسنه الحواس؛ فقد تستطيب الشهوة شيئًا وهو خبيث العاقبة. الطيب ما طاب في ذاته وطريقه وأثره، فلم يأتِ من ظلم، ولم يحمل نجاسة، ولم يترك في الضمير ظلمة. ولهذا قد تكون اللقمة لذيذة في الفم، مرةً في الميزان، لأنها اقتُطعت من حق ضعيف أو اشتُريت بمال حرام.

ثم تنتقل الآية إلى مشهد الصيد بالجوارح المعلّمة: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

الجوارح هي كواسب الصيد من الكلاب والطيور ونحوها مما يقبل التعليم. والعجيب أن الآية لا تتحدث عن الحيوان في وحشيته الأولى، بل بعد أن مرّ عليه أثر التعليم. فالجوارح بطبيعتها تنقضّ لتأكل لنفسها، فإذا عُلّمت أمسكت لصاحبها؛ وهنا ارتفعت بالتعليم من حركة الغريزة العمياء إلى السلوك المنضبط.

وفي هذا معنى إنساني نافذ: إذا كان التعليم يغيّر سلوك الحيوان، فكيف يرضى الإنسان أن يبقى أسير غرائزه؟ إن قيمة العلم ليست فيما يُكدّس في الذاكرة، وإنما فيما يعيد تشكيل السلوك. فإذا ازداد المرء علمًا ولم تزدد شهوته انضباطًا، ولا يده أمانةً، ولا قلبه خشيةً، فقد حمل معلومات، ولم يتلقَّ تربية.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

ما أرق هذا الردّ إلى المنعم! أنت تعلّم، نعم، ولكن قدرتك على التعليم نفسها من تعليم الله. أنت تهدي الجارحة إلى طريقة الصيد، لكن الله هو الذي أودع فيك العقل، وفيها قابلية التعلم، وفي الكون السنن التي تجعل هذا التواصل ممكنًا.

إن الحضارة كلها تقوم داخل هذه الجملة: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾. كل مهارة كشفها الإنسان، وكل علم بلغ إليه، وكل أداة اخترعها، إنما نبتت من عقل خلقه الله، ومادةٍ أوجدها الله، وسننٍ بثها الله. ليس معنى ذلك إهدار جهد الإنسان، بل تحرير جهده من الغرور؛ فهو يعمل ويكتشف ويبدع، ثم يعرف أن المفاتيح الأولى لم يصنعها بنفسه.

ولو استقر هذا المعنى في قلب العالم، لصار علمه سجودًا بدل أن يصير طغيانًا؛ ولرأى في كل كشفٍ نافذةً على فضل المعلّم الأول سبحانه.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يفرق بين جارحةٍ أمسكت الصيد لصاحبها وجارحةٍ أمسكت لنفسها. فالنية والوجهة تدخلان في الحكم؛ وما يُقبل من العمل ليس مجرد صورته، بل الجهة التي قصدها. وقد يشبه فعلان بعضهما في الظاهر، ثم يكون أحدهما أمانةً والآخر خيانة؛ لأن أحدهما أُمسك لك، والآخر أُمسك عليك.

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

فلا يذهب الحماس وراء الصيد باسم الله من القلب. وحين يذكر المؤمن اسم الله، فإنه يعلن أن قوته ليست مستقلة، وأن رزقه ليس غنيمةً اقتنصها وحده، وأن حياة المخلوق لا تُستباح إلا بإذن خالق الحياة.

التسمية تعيد الله إلى لحظةٍ قد تستغرق فيها النفس في مهارتها. فما أسرع أن ينسى الصياد ربَّه حين يرى إصابة سهمه، وأن ينسى العالم ربَّه حين يرى نجاح تجربته، وأن ينسى الكاتب ربَّه حين يطرب لجمال عبارته! لذلك يأتي الذكر ليضع الموهبة في محراب الشكر، ويمنع القدرة من أن تنقلب صنمًا داخليًّا.

ثم يعقب الإباحة بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. فحتى المباح يحتاج إلى تقوى؛ لأن الإنسان قد يطغى في الانتفاع كما يطغى في المنع، وقد يجعل مما أحله الله بابًا للإسراف والقسوة والغفلة.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ فاللحظات تمر سريعة، والأفعال تُحصى قبل أن يمحو أثرَها من ذاكرتنا تعاقب الأيام. وقد ينسى الإنسان لقمةً أكلها، أو كلمةً قالها، أو حقًّا استباحه، لكن الحساب لا ينسى. وسرعته ليست عجلةً كعجلة البشر، تعالى الله عن ذلك؛ وإنما هي كمال القدرة والإحاطة، فلا يشغله حساب عن حساب، ولا تختلط عليه كثرة الخلائق.

الآية الخامسة

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

تعود كلمة ﴿الْيَوْمَ﴾، كأن يوم اكتمال الدين ليس يوم انغلاقٍ على العالم، بل يوم قدرةٍ على الانفتاح المنضبط. فالهوية الواثقة لا تخشى كل اتصال، ولا تذوب في كل اتصال؛ إنها تعرف نفسها، ثم تدخل العلاقات بميزانها.

﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾. يتكرر الإعلان كي تستقر في النفس سماحة الأصل. فالله لم يخلق الطيبات ليعذب الإنسان بحرمانه منها، وإنما علّمه كيف يتناولها دون أن تتناوله، وكيف يمتلكها دون أن تمتلك قلبه.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

إنها مائدةٌ تمتد بين المسلمين وأهل الكتاب، فتقيم مساحةً من التعامل الإنساني لا تمحو الفروق العقدية، ولا تجعل الخلاف الديني قطيعةً مدنيةً مطلقة. فالقرآن الذي يناقش انحرافاتهم العقدية بوضوح، هو نفسه الذي يبيح طعامهم ويفتح باب المصاهرة بضوابطها. وهذه دقة الميزان القرآني: وضوحٌ في الاعتقاد، وعدلٌ في التعامل؛ لا مجاملة تذيب الحقيقة، ولا خصومة تلغي الإنسان.

وتبادل الطعام ليس أمرًا ماديًّا صغيرًا؛ فالمائدة من أكثر الأماكن الإنسانية دفئًا. عند الطعام تهدأ الرسميات، وتقترب الوجوه، وتظهر أخلاق الناس.

وحين يجعل الله طعامكم حلًّا لهم وطعامهم حلًّا لكم ـــ في حدود ما بيّنته الشريعة ـــ فإنه يفتح جسرًا للتعارف، ويعلّم الأمة أن نقاء العقيدة لا يعني صناعة الوحشة مع العالم.

ثم ينتقل الحكم من مائدة الطعام إلى ميثاق الأسرة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

والمراد بالمحصنات هنا العفيفات الحرائر عند جمهور المفسرين. وقدّم المؤمنات، وفي التقديم ما يرشد إلى أن اجتماع العقيدة أدعى إلى سكينة البيت ووحدة وجهته، ثم أباح للمسلم نكاح المحصنات من أهل الكتاب ضمن أحكامه وشروطه ومسؤولياته.

لكن القرآن لا يذكر الإباحة مجردةً من أخلاقها: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي مهورهن. فالزواج ليس استباحةً مجانية، ولا علاقةً عابرةً يطلب فيها الرجل لذته ثم يترك المرأة تحمل وحدها آثارها. إنه عقد له حقوق، وبذل، ومسؤولية، وإعلان.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

الإحصان من الحصن، وكأن الزواج يبني حول الرجل والمرأة سورًا من الكرامة، لا سجنًا من القهر. إنه يحفظ النسب، ويصون العاطفة من الابتذال، ويمنح الميل الفطري بيتًا يسكن فيه بدل أن يبقى نارًا تتنقل بين الطرقات.

أما السفاح فهو صبّ الماء بلا حرمة عهدٍ ولا بقاء أثر؛ علاقة جسدين لا ميثاق روحين، ولذة لحظةٍ تُلقى تبعاتها في الغد على قلبٍ مكسور أو طفلٍ ضائع أو مجتمعٍ تتآكل فيه الثقة.

﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.

والأخدان هم أصحاب العلاقات السرية. فإذا كان السفاح فاحشةً معلنةً، فإن اتخاذ الأخدان فاحشةٌ تتخفى تحت ستار الخصوصية. والقرآن يطهر الظاهر والباطن معًا؛ فلا يكفي أن يحفظ الإنسان صورته أمام الناس بينما يبني في الظلام حياةً أخرى.

وما أعمق هذا التعبير في زمننا؛ إذ أصبحت السرية التقنية ستارًا لعلاقات يظن أصحابها أنها بلا أثر، لأن الشاشات تخفي الوجوه. غير أن القلب يعرف ما يفسده، وإن مُسحت الرسائل، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فالقرآن لا يريد من الإنسان أن يكون ذا وجهٍ محترم في العلن وروحٍ مبعثرة في الخفاء. يريد له وحدةً داخلية: أن يكون في سره هو الإنسان الذي يدّعيه في علنه.

ثم يأتي الختام شديدًا بعد مساحة الإباحة: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

إن الانفتاح على أهل الكتاب في الطعام والمصاهرة لا يعني ذوبان العقيدة أو التسوية بين الإيمان والكفر. لذلك أقامت الآية في نهايتها حارسًا على القلب: تعامل، وعاشر بالمعروف، وكل من طعام من أباح الله طعامه، لكن لا تفقد إيمانك وأنت تعبر الجسر.

فقد يخرج الإنسان من العزلة إلى التعارف، وهذا حسن؛ ولكنه قد ينتقل من التعارف إلى الإعجاب المنبهر، ثم من الإعجاب إلى التقليد، ثم من التقليد إلى

الارتياب في هويته، حتى يصبح ميزانه مستمدًّا من الآخر لا من الوحي. عندئذ لا يكون قد فتح نافذةً على العالم، بل أطفأ المصباح في بيته.

﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾؛ والحبوط في اللغة انتفاخ بطن الدابة من مرعىً مسموم حتى تهلك. صورةٌ مرعبة لعملٍ يبدو ناميًا متضخمًا، لكنه يحمل موته في داخله. قد يكثر العمل، ويرتفع البناء، ويصفق الناس، لكن إذا انقطع الأصل الذي يمده بالحياة ـــ أصل الإيمان ـــ صار ذلك التضخم سرابًا لا وزن له عند الله.

فالعمل لا يعيش بصورته وحدها؛ يعيش بجذره. والإيمان ليس زينةً تضاف إلى الأخلاق والأعمال، بل هو الروح التي تجعلها متصلةً بالله، ممتدةً إلى الآخرة.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. والخسارة الحقيقية ليست أن تفوت الإنسان لذة أو صفقة أو منزلة؛ بل أن يصل إلى الآخرة فيجد أن ما أمضى عمره يجمعه قد سقط من الميزان. هنالك يعرف أن أقسى الإفلاس ليس فراغ اليد، بل فراغ الصحيفة مما يقبله الله.

وهكذا تنتهي أحكام المائدة بردّ الإنسان إلى الآخرة. فاللقمة ليست بعيدةً عن المصير، والزواج ليس بعيدًا عن العقيدة، والعلاقة بالآخر ليست بعيدةً عن سلامة القلب. إن الحياة في القرآن نسيجٌ واحد: تبدأ باسم الله على الطعام، وتمضي بعهد الله في الأسرة، وتنتهي بالوقوف بين يدي الله للحساب.

الفصل الثالث

طَهَارَةُ الْجَوَارِحِ وَعَدَالَةُ الْقَلْبِ

حين يغسل الوضوءُ وجهَ الإنسان، وتغسل التقوى ضميرَه

الآية السادسة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بعد أن تحدثت الآيات عن طيبات الطعام وطهارة العلاقة بين الرجل والمرأة، انتقلت إلى طهارة الجسد حين يقف العبد بين يدي الله. وكأن السورة تقيم الإنسان على ثلاث موائد متتابعة: مائدة الرزق، ومائدة الأُنس، ثم مائدة الصلاة؛ وفي كل واحدة منها أدبٌ يحفظ النعمة من أن تتحول إلى غفلة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

إنك لا تقوم إلى حركةٍ جسدية عابرة، بل تقوم إلى لقاء. ولذلك يسبق الماءُ التكبيرَ، كأن الجسد يُستدعى من غبار الحياة قبل أن تدخل الروح ساحة المناجاة. فالصلاة ليست عملًا يؤديه الإنسان ببقية نفسه، ولا موعدًا يُحشر في فراغ الوقت؛ إنها قيامٌ مقصود، وانتقالٌ من شتات الأرض إلى حضرة العبودية.

وما أكثر ما يجيء الإنسان إلى الصلاة محملًا بالعالم: وجهه يحمل انفعالات اللقاءات، ويداه تحملان آثار الأخذ والمنع، ورأسه مزدحمٌ بخطط الغد، وقدماه مغبرتان بطرقات السعي. فيأتي الوضوء ليمرّ على منافذ الحركة كلها، كأنه يعيد الإنسان إلى نفسه عضوًا عضوًا.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

والوجه هو عنوان الإنسان، وموضع هويته، وأول ما يتلقى به الدنيا وأول ما يلقاه الناس منه. عليه تتجمع النظرات، وتنكشف الأحزان، وتتخفى الأقنعة. فإذا غسله المؤمن استعدادًا للصلاة، فكأنه يغسل عنه غبار الوجوه التي مثّل أمامها، ليقف أمام الله بوجهه الحقيقي.

كم حمل الوجه من طلب القبول عند الناس! وكم تلون خوفًا أو طمعًا! ثم يأتي الماء باردًا صادقًا، فيذكّره أن الوجه الذي أرهقه الالتفات إلى الخلق سيُشرّف الآن بالسجود للخالق.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

اليد هي أداة الفعل، بها يأخذ الإنسان ويعطي، ويبني ويهدم، ويكتب ويبطش، ويواسي ويظلم. وغسلها قبل الصلاة ليس مجرد نظافة ظاهرة؛ إنه تذكير متكرر بأن اليد التي سترتفع بالتكبير ينبغي ألا تهبط على حرام، وأن الكف التي ستُبسط في الدعاء لا يليق بها أن تنقبض على حق غيرها.

وقد يخرج العبد من الوضوء وقطرات الماء تنحدر من أصابعه، فلو أبصر المعنى لسمع في داخله سؤالًا: ماذا صنعت يداك منذ آخر صلاة؟ أيّ قلبٍ

جبرتا؟ وأيّ حقٍّ منعتا؟ وأيّ كلمة كتبتا؟ فالوضوء ليس غسيلًا للذاكرة كي ننسى، بل إيقاظٌ لها كي نتوب.

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾.

والرأس موطن التدبير والتفكير. يُمسح ولا يُغرق، كأن لمسة الماء توقظ العقل من استغراقه في أوهام السيطرة. فهذا الرأس الذي يخطط ويرتب ويحسب، لا يملك النتيجة؛ وتلك الأفكار المتدافعة لا تهتدي إلا بنور الله.

إن مسح الرأس قبل الصلاة تأديبٌ خفيّ للعقل: أن يدخل على الوحي متواضعًا، لا متعاليًا؛ طالبًا للهداية، لا واضعًا نفسه فوقها. فالعقل نعمةٌ عظيمة، لكن أعظم ما يبلغه أن يعرف حدّه، وأن يستضيء بمن وهبه النور.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

والقدمان سجلّ الطريق؛ تحملان الإنسان إلى مواضع الطاعة أو المعصية، إلى مواساة المنكسر أو مجالس الغفلة، إلى مسجدٍ يعمر الروح أو طريقٍ يبددها. وحين يغسلهما المؤمن قبل الصلاة، فكأنما يقف عند مفترق داخلي ويسأل: إلى أين تمضي بي حياتي؟

فليس المهم أن تتحرك القدم، بل أن تعرف وجهتها. وقد يقطع إنسانٌ مسافات طويلة ولا يقترب من غايته، وقد لا يبرح آخر مكانه، لكنه يسافر بقلبه إلى الله.

وهكذا يجمع الوضوء خريطة الإنسان: وجهه الذي يتجه، ويديه اللتين تفعلان، ورأسه الذي يدبر، وقدميه اللتين تسيران. ثم يقيم هذه الجوارح كلها

في صف العبودية، فلا يدخل إلى الصلاة جزءٌ منه ويبقى جزءٌ آخر في الخارج.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

إذا كانت الجنابة قد عمت البدن، عمت الطهارة البدن كذلك. فالشريعة تراعي تناسب الحكم مع الحال؛ لا تسوي بين الحدث الأصغر والأكبر، ولا تجعل العبادة فوضى من المشاعر الشخصية. إن الطريق إلى الله حبٌّ وانقياد، ذوقٌ ونظام؛ فالروحانية في الإسلام لا تعني التخفف من الأحكام، وإنما أن تجد الروح معناها داخل الطاعة.

ثم تنحني الآية على أحوال الضعف البشري: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾.

يرى الله المريض حين يؤذيه الماء، والمسافر حين يبعد عنه، ولا يكلّفهما أن يتظاهرا بقوةٍ لا يملكانها. فالشرع ليس قالبًا من حديد يُلقى على الناس دون اعتبار لأحوالهم؛ إنه حكم الحكيم الرحيم الذي يعرف ضعف الجسد لأنه خلقه، ويعلم تعب الطريق قبل أن يخطو المسافر أول خطوة فيه.

ثم تذكر الآية ما ينقض الطهارة من قضاء الحاجة ومباشرة النساء، فإذا لم يوجد الماء أو تعذر استعماله جاء البديل: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

عجيبٌ هذا الدين: إذا غاب الماء لم تغب الصلاة، وإذا تعذر الأصل لم تنقطع الصلة. تمتد اليد إلى تراب الأرض، فيصبح الصعيد الطيب بابًا إلى الطهارة. فرب الماء هو رب التراب، والذي جعل في الأول نظافة الحس جعل في الثاني طهارة الحكم.

وفي التيمم معنى بالغ الرقة: إن الله يريد وصولك إليه، فلا يجعل فقدان الوسيلة فقدانًا للوجهة. قد تُغلق أمامك صورةٌ من صور الطاعة، فيفتح لك بابًا آخر؛ وقد تعجز عن الكمال، فلا يسقط عنك أصل السير. ليست العبودية أن تأتي الله دائمًا في صورة القوي القادر، بل أن تأتيه بما تستطيع، ولو بكفين تمسّان تراب الأرض.

ثم تكشف الآية عن مقصد التشريع: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾.

هذه الجملة نافذةٌ نطل منها على قلب الشريعة. فالله غنيٌّ عن مشقتنا، لا تزداد خزائنه بعطشنا، ولا تعلو عظمته بتعذيب أجسادنا. وإذا وجدت المشقة التابعة للتكليف، فهي مشقة التربية والارتقاء، لا مشقة العبث والإعنات.

غير أن رفع الحرج لا يعني أن يصبح الهوى هو المشرّع؛ فالإنسان قد يسمي كل تكليفٍ حرجًا إذا ثقل على شهوته. وإنما المرجع إلى ما رفعه الله ورسوله، وإلى ما يبيّنه الفقه الصحيح؛ لأن الذي قال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ هو الذي أمر بالغسل والطهارة. فلا تُفهم الرحمة بإلغاء الأمر، ولا يُفهم الأمر بإلغاء الرحمة.

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

إذن فالطهارة ليست ضريبةً على العبادة، بل عطية. يريد الله أن يطهرنا، لا من الغبار وحده، بل من الاعتياد الذي يثقل الروح. إن الوضوء يوقظ الإنسان مراتٍ في اليوم من تحوله إلى آلة؛ يوقفه عند الماء، ويعيد ترتيب علاقته بجسده وربه وزمنه.

وكلما غسل عضوًا، كان جديرًا به أن يستحضر تطهير وظيفة ذلك العضو: فالوجه من الرياء، واليد من العدوان، والرأس من الكبر، والقدم من طرق السوء. ليست هذه الاستحضارات بديلًا عن الحكم الشرعي، وإنما هي حياة المعنى في قلب الممتثل.

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

سبق إعلان تمام النعمة عند اكتمال الدين، وها هو يتكرر عند تشريع الطهارة؛ لأن النعمة لا تتم بأن يعرف الإنسان ربه فحسب، بل بأن يعرف كيف يقف بين يديه. الصلاة نعمة، والوضوء طريقٌ مبلل بالنور إليها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والشكر هنا ليس كلمةً تقال بعد النعمة فقط؛ بل استعمال النعمة في مراد المنعم. شكر الماء أن تتطهر به، وشكر الجوارح أن تقيمها في الطاعة، وشكر الرخصة أن تأخذها دون تحايل، وشكر الصلاة أن تدخلها بقلب حاضر.

فالوضوء في حقيقته شكرٌ يجري على الجسد ماءً.

الآية السابعة

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

بعد أن طهّرت الآية السابقة الجوارح بالماء، جاءت هذه الآية لتطهر الذاكرة من النسيان:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

فالنسيان ليس خللًا ذهنيًّا فحسب؛ قد يكون بداية انحراف أخلاقي. حين ينسى الإنسان النعمة، يتعامل معها كأنها حقّ ذاتي، ثم يتضخم شعوره بالاستحقاق، ويذبل امتنانه، ويبدأ في الاعتراض على ما فاته أكثر من شكره على ما أوتيه.

الذكر يعيد الأشياء إلى مصادرها. تذكر النعمة يعني أن ترى وراء الماء منزلَه، ووراء الطعام رازقَه، ووراء الهداية هاديَها، ووراء كل بابٍ انفتح لك يدَ اللطف التي فتحته. إن النعمة التي لا تقودك إلى المنعم قد تتحول حجابًا عنه؛ تنشغل بالهدية وتنسى صاحب الفضل.

لكن الآية تنتقل من نعمة العطاء إلى نعمة التكليف: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾.

الميثاق هو العهد المؤكد، وليس الإيمان دخولًا في فضاءٍ بلا التزام. إنه ميثاقٌ له مقتضيات. وقد جعل الله هذا الميثاق نعمة؛ لأن أعظم ما يكرم به الإنسان أن يؤتمن على الحق، وأن يُدعى إلى حمل كلمة الله في نفسه وحياته.

نحن غالبًا نعدّ ما نأخذه نعمة، ولا نعدّ المسؤولية نعمة. لكن القرآن يجعل التكليف نفسه تشريفًا؛ فما أكرم أن يخرج الإنسان من العبث، وأن يعرف لماذا يعيش، ولأي شيءٍ يعمل، وأمام من سيقف!

﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

ليست القضية أن الأذن التقطت الصوت، بل أن القلب تلقّى الأمر بالقبول، ثم تحولت المعرفة إلى حركة. وبين ﴿سَمِعْنَا﴾ و﴿أَطَعْنَا﴾ يولد المؤمن الحقيقي؛ إذ

قد يسمع المرء كثيرًا، ويحفظ كثيرًا، ويتأثر لحظةً، لكن الطاعة هي البرهان الذي يثبت أن المعنى تجاوز الأذن إلى الإرادة.

وفي الآية تقديم السماع؛ لأن الطاعة التي لا تقوم على علم قد تكون اندفاعًا أعمى، والسماع الذي لا يعقبه امتثال قد يصبح حجةً على صاحبه. فالإسلام يبني وعيًا يسمع، وإرادةً تطيع؛ لا عقلًا بلا عبودية، ولا عبوديةً منفصلةً عن البصيرة.

وما أثقل قول الإنسان: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إذا قاسه على تفاصيل حياته! فقد يقولها بلسانه، ثم إذا جاء الحكم مخالفًا لمصلحته قال بفعله: سمعنا وانتقينا. وإذا وافق النص رغبةً رفعه، وإذا خالف انحيازًا بحث عن مخرجٍ يبعده. وهكذا يتحول الوحي من قائدٍ إلى مستشارٍ لا يؤخذ برأيه إلا إذا وافق قرار النفس السابق.

إن الطاعة الصادقة لا تُعرف عند الأوامر التي تميل إليها النفس، بل عند الموضع الذي يفترق فيه طريق الهوى عن طريق التكليف. هناك يظهر: مَن القائد في داخلك؟

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

تأتي التقوى لتكون حارسة الميثاق. فالعهد قد يُكتب في الأوراق، لكن التقوى تكتبه في القلب. والقانون قد يجبر الإنسان على الوفاء حين يراه الناس، لكن الخشية تمنعه من الخيانة حين تغيب الأدلة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

لم يقل فقط: يعلم أعمالكم؛ بل يعلم ذات الصدور، أي ما استقر فيها وخالطها من المقاصد والأسرار. يعلم الطاعة التي فعلتها حبًّا في مدح الناس، والسكوت الذي سميته حكمةً وكان خوفًا، والغضب الذي سميته غيرةً وكان انتقامًا للنفس.

إن أعمال الإنسان قد تتشابه في أعين الخلق، لكنها تتباعد عند الله بمقدار ما بين دوافعها. قد يقف رجلان في صفٍّ واحد، ويركعان في لحظة واحدة، وبين الصلاتين من البعد ما بين السماء والأرض؛ لأن الله يرى ما حمل كل قلبٍ إلى مقامه.

وحين يعلم المؤمن أن الله عليمٌ بذات الصدور، لا يصيبه الرعب وحده، بل يجد عزاءً عظيمًا أيضًا. فقد يُساء فهمك، وقد يعجز لسانك عن شرح نيتك، وقد تُتّهم بما لم تُرد، لكن في الوجود علمًا لا يظلمك، وعند الله حقيقتك كاملة لا تشوهها رواية خصم ولا قصور صديق.

الآية الثامنة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

هذه ليست دعوةً إلى فعل العدل مرةً، بل إلى أن يصبح العدل هيئةً ثابتةً في الإنسان: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾.

جاءت صيغة ﴿قَوَّامِينَ﴾ مبالغةً في القيام؛ أي كثيري النهوض بالحق، ثابتين عليه، لا تقيمونه حين يكون يسيرًا ثم تجلسون عنه حين ترتفع كلفته. فالعدل ليس موقفًا موسميًّا، ولا زينةً للخطاب، بل قيامٌ قد يتعب صاحبه؛ لأن الظلم غالبًا يستند إلى قوةٍ أو مصلحة أو عصبية، ولا يُزاحم إلا بمن ثبت.

﴿لِلَّهِ﴾؛ وهنا سرّ الثبات. فمن قام للناس سقط حين انصرفوا، ومن قام للحزب مال حيث مالت مصلحته، ومن قام لنفسه عدل ما دام العدل يخدم صورته. أما من قام لله، فقد تحرر من تقلّب التصفيق والخصومة؛ لأن الجهة التي يقصدها لا تتغير.

أن تكون قوّامًا لله يعني ألا تجعل الحق وسيلةً إلى ذاتك؛ فلا تنتصر للمظلوم لتبني شهرتك، ولا تقول كلمة العدل لتصفّي بها حسابًا قديمًا، ولا تسكت عنها لأن الظالم من جماعتك. إن الله لا يقبل أن نرفع راية الحق بأيدٍ تمسك من خلفها بخيوط الهوى.

﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

الشهادة ليست مجرد نقل ما رأته العين؛ إنها حمل الحقيقة إلى الموضع الذي تحتاجها فيه. والقسط هو العدل المستقيم الذي يعطي كل ذي حق حقه. وقد جعل القرآن الأمة شاهدة، فلا يليق بها أن تكون متفرجةً على اختلال الموازين، ولا أن تخفي ما تعلم حين تكون كلمتها نجاةً لمظلوم.

لكن الآية تعرف أضعف مواضع النفس: الخصومة.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

الشنآن هو البغض الشديد. وقد سبق في الآية الثانية نهيٌ قريب: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ... أَنْ تَعْتَدُوا﴾، وها هو يتكرر هنا بصيغةٍ تمسّ أصل العدل. وتكرار المعنى ليس زيادةً يمكن الاستغناء عنها؛ إنه كشفٌ عن شدة هذا المنحدر في النفس. فالإنسان يجد للظلم الذي يصدر عن غضبه أسماءً جميلة: يسميه حزمًا، أو وفاءً لجماعته، أو ردًّا على العدوان، أو حمايةً للحق.

لكن القرآن ينتزع هذه الأقنعة كلها، ويضع الفعل أمام الميزان عاريًا: أهو عدلٌ أم ليس عدلًا؟

إن بغضك لشخصٍ قد يكون له سببٌ صحيح، لكن صحة البغض لا تبيح لك الكذب عليه. وقد يكون خصمك ظالمًا في قضية، فلا يحق لك أن تنكر إحسانه في قضية أخرى. وقد يختلف معك في العقيدة أو السياسة أو الفكر، فلا يحل لك أن تنسب إليه ما لم يقل، أو تحاكم نيته بما لا تعلم، أو تمنعه حقًّا أثبته الله له.

العدل ليس مكافأةً تمنحها لمن تحب؛ إنه حقٌّ تؤديه لأنك عبد لله.

﴿اعْدِلُوا﴾.

جاء الأمر صريحًا منفصلًا، كأنه ضربةٌ على ميزان القلب ليعتدل. لا تنتظروا أن يزول البغض كي تعدلوا؛ اعدلوا والبغض قائم. فالفضيلة ليست غياب الدوافع المضادة، بل قدرتك بالإيمان على ألا تسلّم لها المقود.

ولعل من أصعب صور العدل أن تعدل في الحكاية. حين تروي خلافًا، فلا تحذف من الوقائع ما يبرئ خصمك، ولا تضخم ما يدينه، ولا تعرض نفسك ملاكًا كاملًا وتجعله شرًّا خالصًا. فالذاكرة إذا خضعت للهوى لا تعود سجلًّا للماضي، بل تصبح مؤلفًا يعيد كتابة الأحداث لمصلحة صاحبه.

﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

لم يقل: العدل هو التقوى كلها، بل هو أقرب إليها؛ لأنه من أوضح الطرق الموصلة إلى حقيقتها. فالعدل يحرر النفس من طغيان الحب والبغض، ويجعلها أقرب إلى مراقبة الله.

والعجيب أن الإنسان قد يطلب القرب من الله بكثرة النوافل، ثم يبتعد عنه بظلمه لعباده. قد يطيل السجود، ولكنه إذا حكم بين اثنين حكم لهواه؛ وقد يكثر الذكر، لكنه يبخس خصمه حقه. فتأتي الآية لتقول إن في كلمة إنصافٍ تقولها لمن تبغض طريقًا إلى التقوى قد لا تجده في مشاعر دينية لا تضبط السلوك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الخبير هو العالم ببواطن الأمور ودقائقها. يعلم الله كيف رتبت عبارتك لتوهم السامع دون أن تكذب كذبًا صريحًا، وكيف استخدمت نصف الحقيقة لإخفاء نصفها الآخر، وكيف لبست العصبية ثوب الغيرة على المبدأ.

قد تخدع المحكمة، والجمهور، وحتى نفسك، لكنك لا تخدع الخبير سبحانه.

وهنا يلتقي الوضوء بالعدل في وحدةٍ مدهشة: بدأت الآيات بغسل الوجه واليدين، وانتهت بتطهير القلب من ظلم الخصومة. فما قيمة ماءٍ يجري على

الكف إذا بقيت الكف تحرف الميزان؟ وما قيمة وجهٍ يشرق بالوضوء إذا أظلم حين يشهد على خصمه؟

الطهارة التي يريدها القرآن ليست فصلًا بين نظافة الجسد ونظافة الضمير؛ إنها إنسانٌ كامل، طاهرٌ حين يناجي الله، وعادلٌ حين يعامل خلقه. فإذا قام إلى الصلاة غسل جوارحه، وإذا قام بين الناس غسل حكمه من الهوى. وفي الحالين هو قائمٌ لله.

الفصل الرابع

وَعْدُ اللَّهِ وَذَاكِرَةُ النَّجَاة

حين يُوزن العمل، ويكفُّ اللهُ أيديَ المعتدين

الآية التاسعة

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بعد أن أمرت الآية السابقة بالقيام لله والشهادة بالقسط والعدل مع الخصوم، جاءت هذه الآية تفتح نافذةً على الجزاء؛ لأن الطريق إلى العدل شاق، والنفس تحتاج وهي تقاوم أهواءها إلى أن ترى ما وراء التعب.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾.

وعدٌ صادرٌ عن الله؛ وهذه وحدها كافية لأن يطمئن القلب. فالناس يعدون ثم تحول بينهم وبين وعودهم العوائق: قد ينسون، أو يعجزون، أو تتغير إرادتهم، أو تنقلب مودتهم. أما وعد الله فلا يعتريه نسيان، ولا يعوقه عجز، ولا تسبقه إرادةٌ فتغيره إرادة. وما بين العبد وموعود ربه ليس احتمالًا مضطربًا، بل يقينٌ ينتظر ميعاده.

إن المؤمن يعيش في الدنيا بين أشياء كثيرةٍ تتبدل؛ لذلك يحتاج إلى وعدٍ ثابت يربط قلبه بما لا يتبدل. قد يضيع معروفه عند الناس، ويُنكر فضله، ويُنسب عمله إلى غيره، لكنه لا يندم على خيرٍ علم أن الله وعد عليه. ومن عرف أن العمل محفوظٌ عند الله، خفّ عليه أن يسقط من ذاكرة البشر.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الإيمان أصلٌ في الداخل، والعمل ثمرةٌ في الخارج. والقرآن يقرنهما مرارًا؛ كيلا يتحول الإيمان إلى دعوى بلا شاهد، ولا يتحول العمل إلى حركةٍ مقطوعة عن أصلها وغايتها.

الإيمان الذي لا يوقظ رحمةً، ولا يمنع ظلمًا، ولا ينبت طاعةً، يحتاج صاحبه أن يفتش عن موضعه في قلبه. فالشجرة الحية لا بد أن تدل عليها ثمارها، والنور الحقيقي لا بد أن يظهر أثره على ما حوله. وليس المقصود أن المؤمن لا يضعف ولا يعصي؛ فالإنسان يزل، لكن الإيمان الحيّ يؤلمه إذا زل، ويردّه إذا شرد، ولا يسمح له أن يقيم في المعصية مطمئنًا إليها.

أما ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ فهي الأعمال التي صلحت في ذاتها، ووافقت شرع الله، وصلحت نية صاحبها فيها. فليس كل ما يسميه الإنسان خيرًا يكون عند الله صالحًا؛ إذ قد يفسد العملَ رياءٌ، أو يفسد الوسيلةَ ظلمٌ، أو يحاول المرء أن يقرّب إلى الله ما لم يأذن به.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.

بدأ بالمغفرة قبل الأجر، لأن الإنسان مهما عمل يبقى محتاجًا إلى أن يستر الله نقصه ويتجاوز عن زلله. لا يدخل على الله بعمله دخول الدائن على المدين، بل دخول الفقير الذي يرجو القبول. إنه يعمل الصالحات، ثم لا يرى نفسه مكتفيًا بها؛ لأن في أطراف العمل غفلات، وفي ثنايا النية شوائب، وفي العمر تقصيرًا لا يجبره إلا عفو الله.

والمغفرة ليست محوًا للذنب فحسب؛ إنها سترٌ يحيط بالعبد، فلا يفضحه الله بما يعلم منه، ولا يترك خطيئته تطارده إلى الأبد إذا صدقت توبته. كم من إنسانٍ قيده ماضيه، وظن أن خطأه القديم قد صار هويته النهائية! ثم جاءت المغفرة تقول له: لستَ مضطرًا أن تبقى الصورة التي كنتها؛ باب الله يستطيع أن يمنحك بدايةً جديدة.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

لم تحدد الآية هذا الأجر، وإنما وصفته بالعظمة. وما عظّمه الله فلا يحيط به خيال. إننا نقيس الجزاء بما عرفناه من مباهج الأرض، لكن نعيم الآخرة ليس نسخةً محسنةً من الدنيا؛ إنه عالم أعدّه الله لعباده، وأودع فيه من الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقدّم الله المغفرة على الأجر العظيم؛ فكأن أول النعيم أن تُرفع عنك أوزارك، ثم يُفتح لك باب الفضل. النجاة من الخوف قبل بلوغ المراد، وتطهير الصحيفة قبل تسلم الجائزة. وهل نعيمٌ أعظم من أن يلقى العبد ربَّه وقد محا عنه ما كان يخشى أن يراه؟

الآية العاشرة

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

على الجهة الأخرى من الوعد يقف الوعيد. فالقرآن لا يبني وعي الإنسان على الرجاء وحده حتى يأمن، ولا على الخوف وحده حتى يقنط؛ بل يقيمه بين جناحين: يرى رحمة الله فيشتاق، ويرى عدله فيحذر.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الكفر في أصله الستر والتغطية؛ فكأن الكافر يستر حقيقةً قامت عليها الشواهد، ويغطي نورًا وصل إليه. وليس كل جهلٍ كفرًا بمجرده، وإنما للكفر أحكامه وشروطه وموانعه التي يعلمها الله ويحكم فيها شرعه؛ فلا يجوز للإنسان أن يتعجل الحكم على الأعيان بهوى أو خصومة. لكن الآية تصف حقيقة الطريق ومآله: إغلاق القلب عن الإيمان، ثم تكذيب آيات الله.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

لم يكن الأمر غياب دليلٍ فقط، بل موقفًا من الدليل. فالآيات جاءت لتوقظ، لكنهم قابلوها بالتكذيب. وقد يرى الإنسان العلامة فلا ينقصه البرهان، وإنما تنقصه الرغبة في الانقياد؛ لأن الاعتراف بالحق ليس عمليةً عقلية باردة دائمًا، بل قد يتطلب إعادة ترتيب الحياة، والتنازل عن كبرياء، وردَّ حقوق، وهجرَ مكاسب قامت على الباطل.

ولهذا قد يكون بين الإنسان وبين الحقيقة خُلُقٌ فاسد لا شبهةٌ فكرية: يمنعه الكبر من الاعتراف، أو تمنعه المصلحة من الاتباع، ثم يستدعي العقلَ بعد ذلك ليصنع له مبررات الرفض. فيصبح الفكر محاميًا عن الهوى، بدل أن يكون باحثًا عن الحق.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الصاحب يلازم صاحبه، وفي التعبير إيحاءٌ بطول المصاحبة وشدتها. لم يقل: مرّوا بالجحيم، بل نسبهم إليها ونسبها إليهم؛ لأنها صارت المصير الملازم لمن مات على الكفر والتكذيب.

والجحيم من شدة التأجج. وما كانت نار الآخرة إلا كشفًا نهائيًّا عن حقيقة التمرد على الله؛ فالذنوب التي تبدو في الدنيا لذائذ صغيرة قد تخفي في باطنها نارًا، لكنها مستورة بثوب العاجلة. وفي الآخرة تسقط الأستار، وترجع الأشياء إلى حقائقها.

إن الوعيد ليس قسوةً في الخطاب، بل رحمةٌ بالإنسان قبل فوات الأوان. حين ترى لافتةً تحذرك من هاوية، لا تتهمها بأنها تفسد عليك الطريق؛ إنها تريد أن تبقيك حيًّا. وكذلك آيات الوعيد: لا تغلق باب الرحمة، بل تدفعك إليه قبل أن يُغلق باب العمل.

وما دام الإنسان يقرأ هذه الآية في الدنيا، فهو ليس محكومًا عليه أن يكون من أصحاب الجحيم؛ إنها تحذّره كي يغيّر الطريق. فخبر المصير يمكن أن يكون سببًا للنجاة منه، إذا استيقظ القلب قبل أن يصبح الغيب شهادة.

وبين الآيتين ميزانٌ كامل: إيمانٌ وعمل صالح، فمغفرةٌ وأجر عظيم؛ وكفرٌ وتكذيب، فجحيم. لا أنساب تحابي، ولا شعارات تغني، ولا أسماء جماعات تنقذ أصحابها بغير حقيقة. فالآخرة تهدم الأقنعة، ولا يبقى فيها إلا ما استقر في القلب وصدّقه العمل.

الآية الحادية عشرة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

مرةً أخرى يدعو القرآن المؤمنين إلى الذكر، لكن النعمة هنا ليست رزقًا نزل، بل أذًى لم يقع: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.

نحن نذكر كثيرًا الأبواب التي فتحها الله، وننسى الأبواب التي أغلقها رحمةً بنا. نعدّ المال الذي وصل إلينا نعمة، ولا نعدّ المصيبة التي كانت في طريقها إلينا ثم صرفها الله. نذكر المرض الذي أصابنا، ولا نعلم كم مرضًا عبر بجوارنا ولم يدخل أجسادنا؛ نرى عداوةً ظهرت، ولا نرى مؤامراتٍ ماتت في صدور أصحابها قبل أن تبلغنا.

إن حياتنا محاطةٌ بنعمٍ مرئية، ولكن وراءها جيشًا من النعم الخفية: يدٌ أرادت أن تمتد فكفّها الله، وكلمةٌ أرادت أن تهدم سمعتك فحبسها، وطريقٌ كاد يبتلعك فصرف خطوك عنه، وبلاءٌ كان يقترب ثم عاد من حيث أتى. ولو كُشف للإنسان سجلّ ما دفعه الله عنه، ربما رأى أن نعم المنع لا تقل عن نعم العطاء.

﴿هَمَّ قَوْمٌ﴾.

كان الشر قد انعقد في الإرادة، واقترب من الحركة؛ فلم يكن وهمًا في مخيلة المؤمنين. واليد إذا بُسطت إلى إنسانٍ دل ذلك على البطش والأذى، ولكن بين الهمّ والتنفيذ سلطانًا لا يراه المعتدي: سلطان الله.

﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.

كلمة ﴿كَفَّ﴾ تحمل صورة قوةٍ تمسك اليد وهي في طريقها إلى البطش. لم تكن نجاة المؤمنين لأن أعداءهم صاروا فجأةً رحماء، بل لأن إرادةً أعلى حالت بينهم وبين ما أرادوا.

وقد يظن الظالم أن قدرته كاملة لأنه جمع أسباب الأذى، لكنه لا يملك اللحظة التالية. قد يرفع يده، ولا يملك إنزالها؛ وقد يرسم الخطة، ولا يملك أن يمنحها الحياة. إن بين الفكرة ووقوعها أقدارًا لله لا يعبرها أحد إلا بإذنه.

وهذا لا يعني أن يترك المؤمن الأخذ بالأسباب، فالقرآن الذي يأمر بالتوكل هو الذي أمر بالاستعداد والحذر. لكنه يطهّر القلب من عبادة الأسباب. خذ بالحذر، ولا تظن أن الحذر حارسٌ مستقل؛ واستعد، ولا تتوهم أن العدد يخلق النصر؛ وادفع العدوان، لكن اعلم أن اليد التي كفّها الله لا تستطيع أن تصل إليك وإن امتدت.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

من العجيب أن تذكير المؤمنين بعدوان خصومهم يعقبه أمرهم هم بالتقوى. لأن النجاة من العدو قد تورث الغرور، وقد يظن الإنسان أن حفظ الله له شهادةٌ بأنه مصيبٌ في كل شيء. فتأتي التقوى لتقول: لا تجعلوا النعمة أمانًا من المحاسبة. الذي حماكم من أيديهم يراكم، فلا تقابلوا كفّ العدوان عنكم بإطلاق أيديكم في العدوان على غيركم.

وقد تحمل الآية معنىً آخر في أعماق النفس: إذا رأيت كيف كف الله أيدي الناس عنك، فاكفف يدك عن معصيته. لا تجعل النجاة زيادةً في الغفلة، بل زيادةً في الوفاء.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قُدّم الجار والمجرور ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لإفادة الاختصاص والتوكيد: عليه وحده يعتمد القلب اعتماد العبادة، وإن استعان بالأسباب التي أذن بها. فالتوكل ليس أن تعطل يدك، بل أن تمنع قلبك من الركون إلى يدك. تعمل بجوارحك كأن للأسباب أثرًا مأمورًا به، وتطمئن بقلبك إلى أن الأمر كله لله.

والتوكل لا يولد من فراغ؛ إنه ثمرة الذاكرة المؤمنة. لهذا سبق الأمر به: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾. فمن تذكر كيف نجّاه الله بالأمس، استطاع أن يسلمه أمر الغد. أما من ينسى النجاة كلما مرّت، فإنه يعود عند كل خوفٍ كأن الله لم يحفظه قط.

إن الذاكرة حين تسكنها النعم تصبح مصنعًا لليقين. تتذكر يدًا كُفّت، وبلاءً صُرف، وكربةً فُرّجت، ثم تقول لقلبك المرتجف: ليس هذا أول طريقٍ ضاقت ثم فتحها الله، وليس هذا أول عدوٍّ ظن أن قدرته نهاية الأمر.

فالتوكل ليس تجاهل الخطر، بل رؤية الله فوق الخطر. وليس إنكارًا لامتداد الأيدي، بل يقينٌ بأن فوق كل يدٍ قدرةً تستطيع أن تكفها.

وهكذا تختم الآية مشهد التهديد بسكينةٍ عميقة: الناس يهمّون، والأيدي تمتد، والأسباب تضطرب؛ لكن المؤمن لا يعيش يتيمًا في كونٍ منفلت. له ربٌّ يرى

الهمَّ قبل أن يصير فعلًا، ويرى اليد قبل أن تبلغ غايتها، ويملك أن يقول لها في منتصف الطريق: كُفِّي.

الفصل الخامس

نَقْضُ الْمِيثَاقِ وَذَاكِرَةُ الْوَحْي

حين تتحول القلوب القاسية إلى خرائط للنسيان والفرقة

الآية الثانية عشرة

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

تنتقل السورة من تذكير الأمة المؤمنة بميثاقها إلى عرض ميثاق أمةٍ سبقتها. وليس التاريخ في القرآن متحفًا للحوادث المنتهية، بل مرآةٌ أخلاقية؛ يعرض الله فيها على الأمة وجوه السابقين كي تتعرف إلى ملامح مصيرها قبل أن تكرره.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

الميثاق ليس كلمةً رخوة، بل عهدٌ مغلظ يحمل معنى الأخذ والشدة والتوثيق. لقد انتُشل بنو إسرائيل من عبودية فرعون، وشقّ لهم البحر، وأُغرق عدوهم أمام أعينهم، ثم لم تكن النجاة نهاية القصة؛ لأن الحرية من الطاغية لا تكتمل إلا بالعبودية لله.

وقد ينجو شعبٌ من سجن الخارج، ويبقى يحمل سجنه في داخله. تسقط السلاسل عن المعاصم، لكن آثارها تظل في الإرادة؛ فيخاف الحرية، ويحنّ إلى مألوفات العبودية، ويهرب من مسؤولية الميثاق. ولهذا كانت التربية بعد النجاة أطول من لحظة العبور؛ فعبور البحر قد يقع في ليلة، أما عبور الخوف من النفس فقد يحتاج عمرًا وجيلًا.

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

النقيب هو الكفيل على القوم، الذي يتعرف أحوالهم ويتولى شأنهم. فالميثاق لا يبقى معنى فرديًّا مبعثرًا، بل يحتاج إلى بنيةٍ تحفظه، وقيادةٍ ترعاه، ومسؤولين يحملون أمانة الجماعة.

وقوله: ﴿مِنْهُمُ﴾ له دلالته؛ فالقيادة التي تنهض بالجماعة ينبغي أن تعرف نسيجها، وتفهم أحوالها، وتكون موصولةً بها. لكن كون القائد من القوم لا يكفي ما لم يكن أمينًا على ميثاق الله؛ فقد يخرج من بينهم ثم يرتفع فوقهم، ويتحدث باسم آلامهم ليصنع مجده الخاص.

ولم يكن اختيار النقباء تشريفًا مجانيًّا، بل تكليفًا مضاعفًا. فالمنصب في ميزان الوحي حملٌ على الكاهل، لا وسادةٌ تحت الرأس. وكلما اتسعت دائرة سلطان الإنسان، اتسعت مساحة السؤال عنه. وقد يفرح المرء بأن اسمه صار في المقدمة، ولا يدري أن صحيفته صارت أثقل بالتبعات.

ثم جاء الوعد الإلهي: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

ما أعظم هذه الكلمة! لو استقرت في القلب لاستغنى بها عن جيوشٍ من الطمأنينة المصطنعة. معية الله هنا معية نصرٍ وتأييد وحفظ لمن وفى بشرطها. ليست المعية شعارًا يُعلّق، بل ميثاقًا يُعاش.

لكنها لم تُمنح لهم على أساس العِرق أو الانتساب التاريخي؛ فقد أعقبها الشرط:

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

ليست القرابة من نبيٍّ بديلًا عن الوفاء برسالته، ولا الانتساب إلى تاريخ مقدس حصانةً من المحاسبة. فالله لا يحابي الشعوب بأنسابها، وإنما يقيمها بقدر قيامها بأمره.

بدأ بالصلاة: ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾. ولم يقل: صليتم فقط؛ لأن إقامة الصلاة أوسع من أدائها صورةً. الإقامة أن تنهض الصلاة في وقتها وخشوعها وأثرها، وأن تقيم هي بدورها اعوجاج النفس. فالصلاة التي لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لم تؤدِّ كامل وظيفتها فيه، وإن أسقط أداءُ أركانها الفرضَ بحسب أحكامه.

ثم: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾. فبعد صلة الإنسان بربه تأتي صلته بحقوق الخلق. الصلاة ترفع القلب عن عبادة الدنيا، والزكاة تنزع من اليد احتكار الدنيا. وبالصلاة يتحرر الإنسان من الكبر، وبالزكاة يتحرر من الشح.

إن التدين الذي يكثر من الحديث عن الله ثم ينسى الفقير تدينٌ قد اختل ميزانه؛ كما أن الإحسان المادي المقطوع عن العبودية يفقد وجهته العليا. في القرآن

يلتقي المحراب والسوق، السجود والعطاء؛ لأن الله يريد قلبًا خاشعًا ويدًا رحيمة.

﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾.

جاءت الرسل بصيغة الجمع، لأن رسالة الله سلسلةٌ واحدة في أصل التوحيد والهداية. لا يملك الإنسان أن ينتقي منها رسولًا يرضاه ويرفض آخر حمل إليه الحق نفسه. والإيمان بالرسل ليس تعليق أسمائهم على جدران الذاكرة، بل تصديق ما جاءوا به واتباعهم.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ أي نصرتموهم ووقرتموهم. فالنبي لا يحتاج إلى إعجابٍ صامت من بعيد، بل إلى أمةٍ تحمل رسالته، وتحمي الحق الذي جاء به، وتصون مقامه من الابتذال. وليس التعزير غلوًّا يرفع الرسول فوق مرتبته البشرية، ولا جفاءً يجعله شخصيةً تاريخية باردة؛ بل محبةٌ وتوقيرٌ ونصرةٌ واتباع.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

والله هو الغني ونحن الفقراء، فما معنى أن نقرضه؟ إنه تكريمٌ للعطاء حتى يجعل ما يبذله الإنسان في سبيل الله كأنه قرضٌ في ذمة الكريم، وقد تعهد برده مضاعفًا. وما أعجب لطف الخطاب: المال ماله، والعبد عبده، والتوفيق منه، ثم يسمي بذل العبد قرضًا، ويعده عليه جزاءً!

والقرض الحسن ما خلص من المنّ والأذى والرياء، وجاء من حلال، ووُضع في موضعه. فقد يبذل الإنسان مالًا كثيرًا، ثم يجرح به كرامة المحتاج، فيسترد

بلسانه ما أعطاه بيده. والإحسان الذي يهين الإنسان يطعم جسده ويكسر روحه.

ثم يأتي الجزاء مؤكَّدًا: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

مرةً أخرى تتقدم المغفرة على الجنة. لأن أول ما يحتاج إليه السائر أن يزاح عن ظهره حمل الماضي. وتكفير السيئات يتضمن سترها ومحو أثرها؛ فكأن رحمة الله لا تقود العبد إلى الجنة وهو ملوثٌ بأوزاره، بل تطهره ثم تدخله دار الطهر.

والأنهار تجري من تحت الجنات، فلا خوف من انقطاعها ولا عناء في طلبها. في الدنيا يجري الإنسان وراء رزقه، أما في الجنة فيجري الرزق من تحته. هنا يكدّ ليبلغ النعمة، وهناك تحيط النعمة به جزاءً على أنه سار إلى الله رغم تعب الطريق.

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾: بعد الميثاق، وبعد البيان، وبعد النجاة، وبعد وعد المعية والجنة. ولهذا يكون الضلال أفدح؛ لأنه ليس تيه من لم ير الطريق، بل انحراف من وقف في وسطه ثم أعرض.

وسواء السبيل هو وسطه واستقامته. فمن خرج عنه بعد هذا البيان لم يخطئ تفصيلًا صغيرًا، بل فقد الجادة نفسها. وقد يواصل السير سريعًا، لكن السرعة لا تنفع من اختار الاتجاه الخطأ؛ بل تزيده عن غايته بعدًا.

الآية الثالثة عشرة

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هنا تظهر العاقبة الداخلية لنقض الميثاق. فالخيانة لا تبقى فعلًا خارج النفس، بل تعود إليها وتعيد تشكيلها: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾.

اللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله. ولم يقع هذا جزافًا، بل ﴿بِمَا نَقْضِهِمْ﴾؛ فالجزاء متصل بالعمل، والمصير نبتةٌ من البذور التي زرعتها الإرادة.

إن الإنسان حين ينقض عهده مع الله لا يفقد حكمًا واحدًا فقط؛ بل يبتعد عن مصدر النور. وقد يتوهم أن المعصية تمنحه مساحةً أوسع للحركة، ولا يرى أنها تبعده عن الرحمة التي كانت تحفظ قلبه من التيه.

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

قسوة القلب ليست صلابة قوة، بل جمود موت. والحجر الصلب قد يحفظ بناءً، أما القلب القاسي فلا يحفظ حقًّا ولا يتشرب موعظة. يسمع الآية فلا يرتجف، ويرى المظلوم فلا يرقّ، وتمر به النعم فلا يشكر، وتنزل به النذر فلا يعتبر.

وهذه القسوة عقوبةٌ تناسب نقض الميثاق؛ فلما استخفوا بالعهد مرةً بعد مرة، فقد القلب قدرته على الإحساس بثقله. وكل خطيئة لا يتوب الإنسان منها تترك طبقةً رقيقة على قلبه؛ فإن تكاثرت الطبقات صار النور يطرق ولا يدخل.

أخطر ما في الذنب ليس لذته العابرة، بل التحول الذي يصنعه في جهاز الإحساس. في أول مرةٍ يرتجف المرء، ثم يضعف الارتجاف، ثم يألف، ثم يدافع عما كان يخجل منه. وهكذا لا تتغير الأفعال وحدها؛ تتغير المعايير، حتى يرى القلب القاسي استقامته تشددًا، وانحرافه تحررًا.

ثم تظهر ثمرة القسوة في التعامل مع الوحي: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

لم يقل فقط: يجهلون الكلم، بل ينقلونه عن مواضعه. والتحريف قد يكون في اللفظ، وقد يكون في المعنى والتأويل، بأن تُقتطع الكلمة من سياقها، أو تُحمّل ما لا تحتمل، أو يُخفى من الحق ما يصادم المصلحة.

والقلب القاسي لا يستطيع أن يتلقى الوحي كما هو؛ لأنه لو تلقاه صادقًا لاضطر إلى التغير. لذلك يغير معنى النص كي يبقى هو كما هو. بدل أن يحاكم هواه إلى الوحي، يعيد تشكيل الوحي حتى يصادق على هواه.

وهذه آفةٌ لا تختص بزمنٍ ولا أمة من حيث العبرة: قد يكون النص حاضرًا على الألسنة، غائبًا عن موضعه في الحياة. يُستشهد بآيات الرحمة لإلغاء العدل، وبآيات القوة لتبرير العدوان، وبنصوص الطاعة لحماية الاستبداد، وبنصوص الجهاد لتغطية شهوة الانتقام. وكلما اقتُطع النص من نظامه الكلي، أمكن للهوى أن يصنع منه قناعًا.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

التعبير لا يقول إن كل ما عندهم قد زال، بل إنهم نسوا نصيبًا مهمًّا مما ذُكّروا به. وقد يكون النسيان تركًا وإهمالًا، لا مجرد غياب عن الذاكرة. فالإنسان قد يحفظ النص بلسانه، ثم يكون ناسِيًا له في ميزان حياته.

وأخطر النسيان أن تحتفظ الأمة بالألفاظ وتفقد الوظائف: تبقي الصلاة هيئةً وتنسى الخشوع، وتحفظ أحكام العدل وتنسى إنصاف الخصم، وتتغنى بتراث النبوة وتنسى نصرة المستضعف. عندئذ يكون الكتاب موجودًا في الرفوف، مفقودًا في حركة التاريخ.

وقوله: ﴿حَظًّا﴾ يحمل معنى النصيب الذي كان يمكن أن يغنيهم. فما ينساه الإنسان من الوحي ليس معلومةً زائدة؛ إنه حظّه من النور، ونصيبه من الطمأنينة، وحصته من النجاة. حين تهجر آيةً لا تحرمها من حضورك؛ بل تحرم نفسك من هدايتها.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾.

أي على خيانةٍ أو طائفة خائنة؛ فقد صار نقض العهد نمطًا يتكرر، لا حادثةً تنقضي. ومن خان الميثاق الأكبر سهل عليه أن يخون العهود الأصغر؛ لأن الأمانة منظومة واحدة. من راقب الله في الغيب حفظ حقوق الناس، ومن هان عليه نظر الله بحث عن فرصةٍ تختفي فيها خيانته عن الخلق.

لكن القرآن لا يذيب الأفراد في حكم الجماعة: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

هذا الاستثناء ميزان عدل. حتى في سياق الذم الشديد، لا ينسى القرآن القلة التي لم تشارك في الخيانة. فلا يجوز أن تتحول قراءة التاريخ إلى كراهيةٍ عمياء تلغي الفروق بين الناس، ولا أن تُنقل جرائم جماعة إلى كل فردٍ ينتسب إليها.

العدل القرآني يرى الخيانة، ويسميها، ويحذر منها، ثم يفتح في الجدار نافذةً صغيرة ليقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾. لا تغلق عينك عن الشر باسم التسامح، ولا تغلقها عن الخير باسم الخصومة.

ثم تأتي المفاجأة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾.

العفو ترك المؤاخذة، والصفح أبلغ منه؛ كأنه طي صفحة الإساءة وعدم الوقوف عند تفاصيلها، وذلك في موضعه الذي تتحقق به المصلحة ولا يضيع حق واجب. فليس العفو إلغاءً لكل عدل، ولا تمكينًا للخائن من تكرار خيانته، وإنما هو فضيلةٌ تُمارس بهدي الحكمة والشرع.

وقدرة الإنسان على الصفح لا تعني أنه لم يتألم؛ بل تعني أن الألم لم يعد هو الذي يقود قراره. إن بعض القلوب تبقى سجينةً لمن أساء إليها سنواتٍ طويلة؛ يعيش المسيء حياته، ويظل المجروح يحمل صورته في داخله. والصفح تحريرٌ للروح من سلطان الجرح، قبل أن يكون هديةً للمسيء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لم يقل: يحب العافين فقط، بل أدخل العفو في مقام الإحسان. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وأن تعامل الخلق بما يرضيه، لا بمجرد ما تمليه عليك جراحك.

وما أعظم المكسب: أن تترك بعض حظ النفس، فتفوز بمحبة الله! إن القلب الذي ذاق معنى ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لا يعود ينظر إلى الصفح كأنه خسارة؛ فماذا فقد من ربح محبة الله؟

الآية الرابعة عشرة

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

بعد ذكر ميثاق بني إسرائيل ونقض طوائف منهم له، تنتقل الآية إلى الذين قالوا: ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾.

وللتعبير وقعٌ دقيق: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. فقد يكون بين ما يقوله الإنسان عن نفسه وما يقيمه في حياته مسافة بعيدة. الاسم لا يؤدي وظيفة الحقيقة، والانتساب لا يغني عن الميثاق.

قد يقول المرء: أنا مسلم، ثم لا يظهر من الإسلام في عدله ولا أمانته ولا رحمته؛ وقد يحمل الإنسان اسمًا عظيمًا، لكنه لا يحمل مقتضاه. إن الأسماء أبواب مسؤولية، لا صكوك نجاة. وكلما كان الاسم أشرف، كانت الخيانة له أفدح.

﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾.

فالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأتِ الناس بدينٍ يحررهم من العبودية لله، بل دعاهم إلى توحيده وطاعته، وكان عبدًا لله ورسولًا من أولي العزم. غير أن الأجيال حين تبتعد عن ينابيع الرسالات قد تضيف إلى الوحي من تصوراتها، ثم تورث الإضافة حتى تبدو عند المتأخرين جزءًا من الأصل.

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

يتكرر المرض نفسه: نسيان حظٍّ من التذكير. فالوحي هو الخيط الجامع، وإذا تُرك بعضه اختل النسيج كله. لا يمكن للإنسان أن ينتقي من رسالة الله ما يلائم هواه، ثم يتوقع أن تظل الهداية كاملة الأثر.

ولم يكن النسيان هنا حادثًا ذهنيًّا بلا عاقبة، بل أعقبه تمزق اجتماعي: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

كأن العداوة أُلصقت بهم حتى صارت ملازمةً لعلاقاتهم؛ جزاءً على تركهم من الوحي ما كان يستطيع أن يجمعهم على الحق. فحين ينسحب الوحي الصحيح من المركز، لا يبقى المكان فارغًا؛ تتقدم إليه الأهواء والتأويلات والمصالح والسلطات، ثم يتحول الاختلاف إلى فرقٍ متنازعة.

إن الوحدة لا تُصنع بمجرد تكرار الدعوة إليها، بل تحتاج إلى حقيقةٍ مرجعية تقف النفوس جميعًا تحتها. فإذا جعل كل فريق هواه مرجعًا، استحال أن يلتقي المختلفون؛ لأن الهوى لا يعترف بسلطانٍ أعلى منه.

والعداوة غير البغضاء؛ فالعداوة تظهر في السلوك والمواجهة، والبغضاء تستقر في القلب. وقد توجد خصومةٌ ظاهرة دون كراهية عميقة، وقد توجد بغضاء مكتومة لم تجد بعد فرصة الفعل. أما إذا اجتمعت العداوة والبغضاء، تمزق الظاهر والباطن معًا.

والآية لا تقرر أن كل فردٍ من النصارى في كل عصرٍ يحمل العداوة لكل فرد آخر، وإنما تخبر عن أثر النقض والنسيان في الجماعات والفرق، وما ينشأ

عنه من خصومات ممتدة؛ مع بقاء العدل الواجب في الحكم على الأعيان، كما علّمتنا الآية السابقة: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

ومن وراء السياق التاريخي يخرج تحذيرٌ للأمة المسلمة: لا تظني أن تكرار اسم الإسلام يحميك من سنة النسيان. فإذا نسيتِ حظًّا مما ذُكرتِ به، وجعلتِ الانتماءات الصغيرة فوق ميثاق الله، أغرى ذلك بين أبنائك العداوة والبغضاء. إن سنن الله لا تحابي أمةً لأنها تحفظ أسماءها المقدسة؛ إنما تنصر من حفظ الميثاق.

كم من خصومةٍ بين المسلمين يُرفع فوقها شعار الدين، وهي في أعماقها صراع نفوسٍ ومصالح! وكم من فرقةٍ تدّعي أنها تحرس الحق، بينما تحرس موقعها داخل الناس! حين يصبح الدين وقودًا للعصبية بدل أن يكون حاكمًا عليها، يتكرر النسيان نفسه وإن تغيرت الأسماء.

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي يبقى أثر هذا الانحراف ممتدًّا في تاريخهم ما بقيت أسبابه، ولا يُرفع رفعًا كاملًا بحيلة بشرية ما دام أصل الانحراف قائمًا. قد تعقد المصالح هدنًا، وتجمع الأخطارُ المتنازعين مؤقتًا، لكن المصالحة العميقة تحتاج إلى الرجوع إلى الحق الذي نُسي.

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

لم يقل: بما كانوا يعملون فحسب، بل ﴿يَصْنَعُونَ﴾؛ والصنع يوحي بالتدبير والتكرار والإحكام. كأن الانحراف لم يكن زلةً عابرة، بل بناءً تراكمت طبقاته عبر الزمن، وأسهم فيه تحريفٌ وكتمانٌ وتأويلٌ وصراعات مصالح.

وسوف ينبئهم الله؛ أي سيواجههم بحقيقة ما صنعوا. ففي الدنيا يستطيع الإنسان أن يضع لعمله عنوانًا نبيلًا، وأن يكتب تاريخًا يبرئه، وأن يجعل الضحية متهمًا والمتهم قديسًا. أما يوم القيامة، فالله هو الذي ينبئ، وحين ينبئ الله تسقط كل روايةٍ مزيفة.

إن أعظم أهوال القيامة أن يرى الإنسان عمله منزوعًا من الاسم الذي خدع به نفسه. يرى التعصب الذي سماه غيرة، والكبر الذي سماه ثباتًا، والتحريف الذي سماه تجديدًا، والسكوت عن الحق الذي سماه حكمة. هناك لا تُعرض الأفعال بعناوين أصحابها، بل بحقائقها التي يعلمها الله.

وهكذا ترسم الآيات الثلاث قانونًا تاريخيًّا بالغ العمق: ميثاقٌ من الله، ثم مسؤوليةٌ عن إقامته؛ فإن حُفظ الميثاق جاءت المعية والمغفرة والجنة، وإن نُقض قسا القلب، وحُرّف الكلم، ونُسي حظ الوحي، ثم انقسم المجتمع على نفسه.

فالفرقة لا تبدأ دائمًا من ساحات الصراع؛ قد تبدأ من صفحةٍ من الوحي تُركت، ومن قيمةٍ سقطت من التربية، ومن ميثاقٍ صار يُتلى ولا يُعاش. وحين تنسى الأمة ما يجمعها بالله، لا تلبث أن تنسى ما يجمع بعضها ببعض.

الفصل السادس

مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور

حين يكشف الكتابُ ما أخفاه الناس، ويقود الرضوانُ إلى سُبُل السلام

الآية الخامسة عشرة

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

بعد أن كشفت الآيات ما صنعه نقض الميثاق من تحريفٍ ونسيانٍ وفرقة، لم تترك أهل الكتاب في عتمة العتاب، بل فتحت لهم باب العودة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾.

ناداهم بما بقي عندهم من صلة بالوحي، كأن الخطاب يستخرج من رماد التاريخ جذوةً يمكن أن تهديهم إلى الحق. فلم يقل: يا أهل الضلال، مع أن السياق كشف انحرافاتٍ عظيمة، وإنما خاطب فيهم بقية الذاكرة التي تعرف معنى النبوة والكتاب.

وهذه من حكمة الدعوة: ألا تحبس المخاطَب داخل أسوأ أفعاله، بل تبحث عن موضعٍ حيّ في نفسه تناديه منه. فرب إنسانٍ غلبت عليه الغفلة، لكن في أعماقه بقية عهدٍ إذا ذُكّر بها استيقظ. والداعية الذي لا يرى في الناس إلا أخطاءهم قد يغلق الباب الذي كان يمكن أن يدخل منه الإصلاح.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.

أضاف الله الرسول ﷺ إلى نفسه تشريفًا وتثبيتًا لمصدر رسالته. فهو لم يخرج إلى الناس بفكرةٍ نبتت في عزلته، ولا بمشروعٍ صنعه طموحه؛ إنه رسول الله، وما جاء به ليس اقتراحًا بشريًّا ينافس اقتراحات البشر، بل خبر السماء إلى الأرض.

وقوله: ﴿جَاءَكُمْ﴾ يحمل معنى الرحمة الواصلة. لم يُترك الناس ليصعدوا بعقولهم المحدودة إلى علم الله، بل جاءهم رسولٌ بلغتهم، يعيش بينهم، يأكل مما يأكلون، ويمشي في أسواقهم، حتى صار الغيب مسموعًا في صوت بشر، والهدى منظورًا في سيرة إنسان.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

كانت المشكلة ليست جهلًا بريئًا دائمًا، بل كتمانًا؛ فبعض الحقائق لم تَغِب، وإنما أُغيبت. وقد يكون إخفاء الحقيقة أخطر من إنكارها الصريح؛ لأن المنكر يُظهر موقفه، أما الكاتم فيترك الناس يظنون أنه مؤتمن على الوحي، بينما يحجب عنهم ما يهدد سلطانه أو مصالحه.

والعلم إذا صار وسيلةً للهيمنة انقلب من نورٍ إلى حجاب. قد يملك صاحبه النص، لكنه يمنع الناس من الوصول إليه إلا عبر بوابته، ثم يبرز لهم ما يثبّت مكانته ويخفي ما يحاسبه. وهذه خيانة العالم: أن يتحول من خادمٍ للحقيقة إلى حارسٍ لمصلحته عند أبوابها.

وجاء البيان النبوي ليعيد الكلمات إلى الضوء. فالحق لا يخاف الكشف؛ إنما يختبئ الباطل في المناطق المعتمة، حيث لا تسأل الجماهير، ولا يُراجع الموروث، ولا يُسمح للنص أن يشهد على حامليه.

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

أي يترك بيان كثيرٍ مما أخفوه مما لا تقتضي الحكمة كشفه، فلا يتتبع كل خبيئة، ولا يجعل الرسالة سجلّ فضائح. وهذا من سمو المنهج النبوي: يكشف من الخطأ ما يحتاجه تصحيح العقيدة وإقامة الحجة، ويعرض عما لا ثمرة في إشاعته.

ليست كل حقيقةٍ تعرفها مأمورًا أن تنشرها، وليس كشف كل مستور بطولة. قد يكون البيان عدلًا إذا تعلّق به حق، وقد يكون الستر إحسانًا إذا لم يترتب على الكشف إصلاح. والحكمة أن تعرف متى يضيء الكلام الطريق، ومتى لا يفعل إلا أن يوقظ الفتنة ويجرح الكرامات.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

النور هو ما تنكشف به الأشياء. والقرآن نورٌ لأنه لا يمنح الإنسان معلوماتٍ عن الطريق فحسب، بل يمنحه عينًا جديدةً يرى بها الطريق والدنيا ونفسه. قبل الوحي قد يملك الإنسان حدة الذكاء، لكنه يستخدمها في ظلام الغاية؛ يعرف كيف يصل، ولا يعرف إلى أين ينبغي أن يصل.

والكتاب ﴿مُبِينٌ﴾: بيّنٌ في نفسه، مبيّنٌ لما يحتاجه الناس في هدايتهم. لا يعني ذلك أن كل أحدٍ يستقل بفهم دقائقه دون علمٍ وأدوات، وإنما يعني أن رسالته الكبرى ليست لغزًا مستغلقًا: الله واحد، والإنسان عبد، والدنيا امتحان، والآخرة مصير، والعدل واجب، والهوى ليس إلهًا.

وقد يقرأ المرء الكتاب ولا يدخل النور قلبه؛ لأن وجود المصباح لا يكفي إن أغمض الإنسان عينيه. القرآن نورٌ بطبيعته، لكن الانتفاع به يحتاج قلبًا يريد الهداية، لا عقلًا يبحث فقط عما يؤيد رأيه السابق.

إن بعض الناس يدخل إلى القرآن وفي يده خريطةٌ رسمها هواه، ثم يطلب من الآيات أن توقّع عليها. أما المتدبر فيدخل وفي يده سؤال العبد: ماذا يريد الله مني؟ وهناك يبدأ النور عمله الحقيقي.

الآية السادسة عشرة

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

تبيّن هذه الآية وظيفة النور، لكنها تبدأ بشرط الانتفاع به:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

ليست الهداية لعبةً ذهنية، بل رحلة إرادة. من أراد رضوان الله وطلبه بصدق، هداه الله بالوحي. أما من دخل إلى الكتاب يبحث عن شهرة، أو غلبةٍ في الجدل، أو مخرجٍ لشهوته، فقد يكثر نظره في الألفاظ ويبتعد عن المقصد.

تأمل قوله: ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾؛ فالرضوان أمامه، وهو يسير خلفه. لا ينتظر أن يتبعه الحق إلى حيث يريد، بل يتبع هو ما يرضي الله. وشتان بين من يسأل: كيف أستخدم الدين لتحقيق رغبتي؟ ومن يسأل: كيف أغيّر رغبتي حتى توافق مرضاة ربي؟

﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

جاءت السبل جمعًا؛ لأن مسالك الخير كثيرة: في الصلاة سبيل سلام، وفي العدل سبيل، وفي بر الوالدين سبيل، وفي الصدق والعفو والعلم النافع وإغاثة الملهوف سبلٌ تتوزع على تفاصيل الحياة. وكلها تصب في الصراط المستقيم الواحد.

والسلام ليس مجرد غياب الحرب؛ إنه مصالحة الإنسان مع فطرته، واستقرار القلب تحت حكم ربه، وأمان المجتمع من الظلم، ونجاة المصير من العذاب. يبدأ السلام من التوحيد؛ لأن القلب إذا عبد إلهًا واحدًا نجا من التمزق بين أرباب الشهوة والخوف والقبول الاجتماعي.

كم يبدو الإنسان المعاصر حرًّا، وهو موزعٌ بين سادةٍ لا يراهم: ينتظر من الجمهور تعريف قيمته، ومن السوق تحديد رغباته، ومن الصورة تقرير جماله، ومن الأخبار صناعة خوفه. ثم يأتي التوحيد ليجمع شتاته في عبوديةٍ واحدة، فيتحرر من ألف سيدٍ حين يسجد لرب واحد.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

جمع الظلمات وأفرد النور؛ لأن طرق الباطل كثيرة، ولكن الحق في أصله واحد. للضلال أبواب لا تنتهي: ظلمة الشرك، وظلمة الهوى، وظلمة الجهل، وظلمة الحقد، وظلمة الشبهة، وظلمة الشهوة. أما النور فمصدره واحد وإن تعددت أشعته.

والتعبير بـ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ يوحي بحركة إنقاذ. الإنسان لا يحتاج إلى درسٍ عن الظلمة فقط، بل إلى يد هداية تخرجه منها. وقد يعرف المرء أن حاله مظلم،

لكنه يألف سجنه حتى يخشى الهواء خارجه. تأتي الهداية فتفك علاقته القديمة بالعتمة، وتعلّمه احتمال الضوء.

وليس الخروج دائمًا لحظةً واحدة؛ قد يخرج الإنسان من ظلمة، ثم يكتشف في نفسه زاويةً لم يصل إليها النور بعد. يهتدي في عقيدته، ثم يحتاج إلى هدايةٍ في أخلاقه؛ ويستقيم ظاهره، ثم يخوض رحلةً أطول لتطهير نيته. ولذلك نظل نسأل في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لأننا نحتاج إلى أصل الهداية وزيادتها والثبات عليها.

﴿بِإِذْنِهِ﴾.

لا يخرج أحد بقوة ذكائه وحده، ولا ببلاغة معلمه، ولا بكثرة كتبه. هذه أسباب، لكن فتح القلب لله. كم من إنسانٍ سمع الآية نفسها سنوات، ثم سمعها في يومٍ فكأنها نزلت في تلك اللحظة إلى موضعٍ لم تبلغه من قبل! من الذي فتح الباب؟ إنه الله.

وهذا يمنع الداعية من الغرور واليأس معًا. لا يغتر إذا اهتدى على يديه إنسان؛ لأنه لم يخلق الهداية. ولا ييأس إذا أعرض آخر بعد البيان؛ لأنه مأمور بالدلالة، أما القلوب فبيد الله.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

السبل متعددة في أبواب الخير، لكنها تلتقي في صراطٍ واحد يوصل إلى الله. وهو مستقيم، لا التواء فيه ولا انحراف؛ يوازن بين الروح والجسد، والفرد والجماعة، والحق والرحمة، والعمل للدنيا والاستعداد للآخرة.

الاستقامة لا تعني أن الطريق بلا تعب، بل أنه لا يخدعك في وجهته. قد يكون طريق الهوى سهل البداية، لكنه ينتهي إلى هاوية؛ ويكون طريق الحق شاقًّا في بعض مراحله، لكنه يأخذ بيدك إلى السلام.

الآية السابعة عشرة

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد أن أعلن القرآن أنه نورٌ يهدي، بدأ يسلط هذا النور على أعظم مواضع الانحراف العقدي: القول بألوهية المسيح ابن مريم عليه السلام.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

القرآن واضحٌ لا يذيب الحقيقة في مجاملات الحوار. يحسن إلى المخالف، ويعدل معه، ويبيح طعامه ضمن أحكام الشريعة، لكنه لا يساوم على التوحيد. فالاحترام الإنساني لا يعني تصحيح الاعتقاد الباطل، والبرّ لا يقتضي محو الفروق بين الإيمان والكفر.

وفي وصف المسيح بأنه ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ تذكيرٌ بحقيقته البشرية. له أمٌّ حملته وولدته، وكان مولده آيةً عظيمة، لكن الإعجاز لا ينقل المخلوق إلى مقام الخالق. لقد خُلق آدم من غير أبٍ ولا أم، ولم تجعله كيفية خلقه إلهًا. فالذي يخلق على غير مثالٍ معتاد يعلن قدرته، لا ألوهية المخلوق.

ثم يأتي السؤال الذي يهدم الدعوى من أساسها: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

من يستطيع أن يدفع إرادة الله؟ من يملك أن ينتزع من سلطانه شيئًا؟ المسيح وأمه ومن في الأرض جميعًا داخلون تحت قدرة الله، ووجودهم قائم بإبقائه، فلا يكون من يفتقر إلى إبقاء الله هو الله.

ليس المراد أن الله أراد إهلاك المسيح وأمه، وإنما إقامة الحجة على كمال سلطانه سبحانه وعجز كل من سواه عن دفع قضائه. فالإله الحق لا تحيط به قدرةٌ أعلى، ولا تقوم حياته بإرادة غيره؛ أما الخلق جميعًا فمعلقون بإرادة خالقهم في كل نفس.

وقد ينحرف الحب حين يفارق العلم. أحب أقوامٌ المسيحَ عليه السلام، لكنهم تجاوزوا به مقام الرسالة إلى الألوهية. والإسلام لا يعالج الغلو بإهانة المسيح، بل يضعه في مقامه الكريم: عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، من أولي العزم، وجيهٌ في الدنيا والآخرة؛ لكنه ليس الله ولا ابن الله.

إن المحبة الصادقة لا ترفع المحبوب فوق منزلته التي أنزله الله إياها، لأن الغلو نفسه صورةٌ من عدم الوفاء بحقيقته. وأشد الناس وفاءً للمسيح هم الذين يؤمنون برسالته كما أراد الله، لا كما صنعت المبالغات المتأخرة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

الملك كله لله، فلا مساحة في الوجود تخرج عن سلطانه، ولا ذرةٌ تقوم بذاتها. وحين يمتلئ القلب بهذا المعنى، تسقط منه الأصنام الصغيرة: الخوف المفرط

من البشر، والتعلق المرضي بالأسباب، والرهبة من المستقبل؛ فكل ما تخشاه وتطلبه يجري داخل ملك الله.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

يخلق إنسانًا من أبٍ وأم، ويخلق عيسى من أم بلا أب، ويخلق آدم من غير أب ولا أم. تنوع الخلق دليل حرية القدرة الإلهية من القوانين التي خلقها الله نفسه. فالسنن تحكمنا، لكنها لا تحكم خالقها.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بهذه القدرة وُلد المسيح آيةً، لا إلهًا. ومن الخطأ أن يستدل الإنسان بظهور قدرة الله في مخلوق على أن المخلوق شريكٌ في القدرة؛ فالمعجزة توقيع الخالق، وليست ألوهية الورقة التي ظهر عليها التوقيع.

الآية الثامنة عشرة

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

بعد الغلو في الأشخاص يأتي الغلو في الجماعة: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

والمقصود دعوى القرب والاختصاص والمحبوبية، دعوى تجعل الانتساب وحده حصانةً من الحساب. إنها واحدةٌ من أخطر حيل النفس الدينية: أن تحول علاقتها بالله من عبوديةٍ ومسؤولية إلى امتيازٍ موروث.

حين يظن قومٌ أنهم أحباء الله بحكم الاسم، يبدأون في قراءة كل نجاحٍ دليلًا على الرضا، وكل جريمةٍ منهم استثناءً مغفورًا، وكل مصيبةٍ تصيب غيرهم برهانًا على غضب الله عليه. وهكذا تتحول العقيدة من ميزانٍ يحاكم الذات إلى مرآةٍ تمجدها.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

لو كانت المحبة المدعاة تمنع المؤاخذة، لما وقع العقاب على الذنوب. إن محبة الله ليست لقبًا تتناقله الأجيال، بل لها طريقٌ بيّنه الوحي: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. فالدليل ليس ما تدعيه عن موضعك عند الله، بل ما يظهر من اتباعك لأمره.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

يا لها من جملةٍ تردّ الغرور إلى ترابه! أنتم بشر؛ تخضعون لسنن الله، وتفتقرون إليه، وتمرضون وتموتون، وتُحاسبون كما يُحاسب سائر خلقه. لا تمنح الأسماء أحدًا طبيعةً فوق بشرية، ولا تخرجه الأنساب من قانون العدل.

وهذه رسالةٌ لكل أمةٍ تحمل كتابًا: لا تقرئي نقد السابقين وكأنه وثيقة براءةٍ لك. قد يقول المسلم بلسانه ما يشبه دعواهم بواقعه: نحن أمة محمد ﷺ، ونحن خير أمة؛ ثم يتكئ على الشرف ويترك شرطه. وخيرية الأمة ليست امتيازًا عرقيًّا، بل وظيفة: إيمانٌ بالله، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر. فإذا تُركت الوظيفة بقي الادعاء بلا جوهر.

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

مشيئته سبحانه مقرونةٌ بحكمته وعدله، لا تحكمها أهواء البشر ولا أنسابهم. لا يملك أحدٌ أن يفرض على الله مغفرته لأنه ينتسب إلى جماعة، ولا أن يوزع رحمته وعذابه وفق خصومات الأرض.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

يتكرر إعلان الملك؛ لأن الغلو في الأشخاص والجماعات لا يُهدم إلا باستعادة مركزية الله. حين يُنسى أن الملك له، تنشأ طبقاتٌ تزعم لنفسها حق توزيع النجاة، وجماعاتٌ ترى ذاتها مالكةً لمفاتيح الرضا الإلهي.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ليس المصير إلى رواية الجماعة عن نفسها، ولا إلى الألقاب التي منحتها لأفرادها، بل إلى الله. هناك يقف الإنسان فردًا، وقد سقطت عنه زينة النسب والحزب والطائفة، ولا يبقى له إلا قلبه وعمله ورحمة ربه.

الآية التاسعة عشرة

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يعود النداء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، ويعود معه فتح باب الحجة والرحمة.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

الفترة هي الزمن بين رسولين حين ينقطع مجيء الرسل، وقد طال العهد بين رسالة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وتراكم على المعاني غبار القرون، واختلط الوحي بتأويلات البشر، وصار العالم محتاجًا إلى كلمةٍ تفصل بين الأصل وما أُلحق به.

فجاء محمد ﷺ، لا بوصفه حادثةً تخص العرب، بل رحمةً للعالمين، وخاتمًا للنبوة، ومجددًا لنداء التوحيد الذي حمله جميع الأنبياء.

وفي مجيء الرسول بعد الفترة معنى يملأ القلب رجاءً: قد يطول الليل، لكنه لا يلغي إمكان الفجر. وقد تتراكم طبقات الانحراف حتى يظن الناس أن الحقيقة دُفنت إلى الأبد، ثم يأذن الله للنور أن يطلع من موضعٍ لم تحسبه القوى الكبرى.

لقد جاءت الرسالة الخاتمة من مكة، لا من عواصم الإمبراطوريات، ونزل الوحي على رجلٍ أميّ في أمةٍ أمية؛ ليعلم العالم أن الله لا يحتاج إلى مراكز القوة كي يغير التاريخ. بل قد يصنع من الصحراء منارةً، ومن المستضعفين أمةً، ومن كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ حضارةً تقرأ الإنسان والكون.

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

جاء الرسول لقطع العذر وإقامة الحجة. فلا يقولوا يوم القيامة: طال الزمان، وغاب البيان، ولم يأتنا من يفتح أبواب الرجاء أو يحذرنا من المصير.

والإنسان بارعٌ في صناعة الأعذار، حتى ليكاد يبني من أعذاره بيتًا يسكن فيه بدل أن يمشي. يقول: لم أجد من يدلني، فإذا جاء الدليل ناقش أسلوبه؛ ويقول: لم تتضح لي الحقيقة، فإذا اتضحت خاف تكلفتها. والوحي لا يقطع

الجهل وحده، بل يكشف أحيانًا أن المشكلة لم تكن في غياب البيان، وإنما في غياب الإرادة.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

قدّم البشير؛ لأن رحمة الله تسبق غضبه، ولأن الرسالة تفتح الطريق إلى الجنة قبل أن تحذر من النار. لكنها تجمع البشارة والنذارة، فلا يتحول الرجاء إلى أمنٍ كاذب، ولا يتحول الخوف إلى يأس.

البشير يقول للمنكسر: تستطيع أن تعود، وللتائب: إن الله يقبل، وللعامل: لن يضيع سعيك. والنذير يقول للغافل: الطريق لا يستمر بلا نهاية، وللظالم: القوة المستعارة ستُنتزع، وللمتكبر: ستقف فردًا أمام الله.

وحاجة الإنسان إليهما كحاجة المسافر إلى علامةٍ تبشره بقرب الواحة، وعلامةٍ تحذره من الهاوية. من أخذ إحداهما وترك الأخرى اختل سيره: فإن رأى البشارة وحدها تهاون، وإن رأى النذارة وحدها قنط. أما التربية القرآنية فتزرع في القلب شوقًا يدفعه، وخوفًا يحرسه.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هو القادر على إرسال الرسول بعد الفترة، وعلى إحياء القلوب بعد موتها، وعلى جمع الناس على هدىً بعد تفرقهم. فلا ينبغي أن يقيس المؤمن إمكان الهداية بظلمة الواقع وحدها؛ فالواقع أثرٌ من آثار القدرة، وليس قيدًا عليها.

قد ترى قلبًا قديم القسوة فتظن أن لا منفذ إليه، لكن الله قادرٌ أن يفتح فيه نافذةً بكلمة. وقد ترى أمةً تاهت طويلًا فتظن أن ليلها أبدي، لكن الذي أخرج النور بعد فترة الرسل قادرٌ أن يردها إلى كتابه.

وتنتهي هذه الآيات حيث بدأت: جاء نور، وجاء كتاب، وجاء رسولٌ يبين. فالحجة لم تعد غائبة، وإنما السؤال انتقل إلى الإنسان: ماذا سيفعل بالنور؟

إن النور لا يجبر أحدًا على فتح عينيه، لكنه يسلبه حجة الظلام. ومن جاءه البشير والنذير، لم يعد يستطيع أن يقول: لم أعرف الطريق؛ بل يبقى عليه أن يختار: أيتبع رضوان الله إلى سبل السلام، أم يعود بإرادته إلى الظلمات؟

الفصل السابع

عَلَى أَعْتَابِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَة

حين تقف الأمةُ بين نداء اليقين وذاكرة الاستعباد

الآية العشرون

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

بعد أن ذكرت السورة مجيء الرسول الخاتم على فترةٍ من الرسل، عادت إلى مشهدٍ من سيرة موسى عليه السلام؛ لتكشف كيف يمكن لأمةٍ أن تحيط بها النعم، ثم تعجز عن حمل المسؤولية التي جاءت النعم لتؤهلها لها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾.

يقف موسى أمام قومه لا بصفته قائدًا سياسيًّا فحسب، بل نبيًّا يريد أن يعيد بناء نفوسٍ خرجت تَوًّا من مصنع العبودية الفرعونية. لقد عبروا البحر، لكن البحر الذي بينهم وبين الحرية الداخلية لم يُعبَر بعد. غرق فرعون خارجهم، وبقيت ظلاله في صدورهم: الخوف من القوة، والتردد أمام المواجهة، والحنين إلى أمن العبودية حين تصبح الحرية مكلفة.

بدأ موسى خطابه بالنداء الحاني: ﴿يَا قَوْمِ﴾. نسبهم إلى نفسه، مع ما آذوه وخالفوه، لأن المصلح لا يتبرأ من قومه كلما ثقلوا عليه؛ يحمل آلامهم وانحرافاتهم، ويظل يبحث عن الباب الذي يدخل منه النور إلى نفوسهم.

ثم قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

فمعركة المستقبل تحتاج أحيانًا إلى ذاكرة الماضي. من نسي كيف نجّاه الله بالأمس، خاف أن يضيعه غدًا. والذاكرة المؤمنة ليست ألبومًا للحنين، بل خزانًا للقوة؛ تستخرج من النجاة السابقة طاقةً للمواجهة القادمة.

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

لم تكن أعظم نعمهم كثرة المال ولا سعة الأرض، بل أن أقام الله فيهم الأنبياء. لأن أعظم النعم ليست ما يملأ اليد، بل ما يهدي الروح. قد تعيش أمةٌ في أرضٍ خصبة وقصورٍ مرتفعة، لكنها لا تعرف لماذا تعيش؛ فتكون ثرية الأدوات، فقيرة الغاية.

والأنبياء مصابيح في تاريخ الإنسان؛ كلما تكاثفت ظلمات الهوى، رفعوا كلمة الله، وأعادوا إلى البشر تعريف أنفسهم. يخبرون الإنسان أنه ليس حيوانًا متطورًا يسابق إلى اللذة، ولا رقمًا في دولة، ولا ترسًا في سوق؛ بل عبدٌ مكرم يحمل أمانة وسيعود إلى ربه.

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

ذهب المفسرون إلى معانٍ منها: أن جعلهم أحرارًا يملكون أنفسهم وأهليهم ومساكنهم بعد أن كانوا تحت قهر فرعون. فالملك هنا ليس بالضرورة تاجًا على الرأس، بل قد يكون أن تملك شأنك بعد أن كان غيرك يملكه.

وما أعظم نعمة أن يسترد الإنسان نفسه! لقد كانوا يُذبح أبناؤهم وتُستحيا نساؤهم، لا يملكون أمنًا ولا قرارًا، ثم أخرجهم الله من ذلك الذل. فالحرية ملكٌ، والسكن ملكٌ، والأسرة الآمنة ملكٌ؛ ونعمٌ يعتادها الإنسان حتى لا يعرف قيمتها إلا حين تُسلب.

غير أن الحرية ليست أن تنكسر القيود فقط، بل أن يولد في النفس استعدادٌ لاستخدام الحرية في الطاعة والمسؤولية. قد يخرج الإنسان من قبضة سيدٍ بشري، ثم يضع نفسه في قبضة شهوته. وقد تنال أمةٌ استقلالها السياسي، لكنها تستبقي عقل المستعمر داخلها، فتقيس نفسها بمقاييسه، وتطلب اعترافه، وتخشى غضبه أكثر مما تخشى ضياع ذاتها.

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

أي عالمي زمانهم؛ من كثرة الآيات، ونجاة البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك من وجوه الإكرام. لكن تفضيل النعمة لا يعني حصانةً أبدية؛ فكل فضلٍ يحمل تكليفًا يناسبه.

إن النعمة إذا لم تتحول إلى شكر، تحولت إلى حجة. وكلما اتسع العطاء، اتسع السؤال: ماذا فعلت بما أوتيت؟ لم تُعط الأمة النبوة والنجاة والحرية لتجلس عند أطراف التاريخ، بل لتدخل ميدان التكليف.

الآية الحادية والعشرون

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

بعد التذكير بالنعمة جاء الأمر بالحركة: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾.

لا تكفي الذكريات العظيمة إن لم تُنجب موقفًا عظيمًا. لقد ذكرهم موسى بما صنع الله لهم، ثم دلّهم على ما ينبغي أن يصنعوه هم. فالإيمان لا يجعل الإنسان متفرجًا على أفعال الله في التاريخ؛ بل يدعوه إلى أن يتحرك داخل سننه.

والمقدسة أي المطهرة المباركة، والمراد أرض بيت المقدس وما حولها على ما جاء في أقوال المفسرين. لكن قداسة المكان لا تعفي الداخل إليه من بذل الثمن؛ فالوعود الإلهية ليست ذريعةً للكسل، وإنما نورٌ يقود السعي.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

أي كتب لكم دخولها في ذلك العهد إن أطعتم أمره، فلا يُفهم الوعد منفصلًا عن شرطه. لقد أمرهم أن يدخلوها، ولم يقل لهم: اجلسوا حتى تحملكم الأقدار إليها. ما كتبه الله لهم كان ينبغي أن يسيروا إليه بأقدام الطاعة.

وهنا تصحح الآية فهمًا معيبًا للقدر: فبعض الناس يظن اليقين أن ينتظر النتائج دون عمل، مع أن اليقين الحق هو أن تعمل لأنك تثق بوعد الله. التوكل لا يلغي الباب، بل يمنحك الشجاعة لطرقه؛ ولا يستغني عن الطريق، بل يطمئنك وأنت تسلكه.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾.

الارتداد على الأدبار صورةٌ جسدية للنكوص النفسي: الوجه كان متجهًا إلى الأمام، ثم استدار الجسد كله إلى الخلف. إن لحظة الخوف قد تعكس وجهة أمةٍ بأكملها؛ فتنسى مقصدها، وتتحول من سؤال: كيف نحقق الأمر؟ إلى سؤال: كيف نهرب منه؟

﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

الخسارة ليست فقط أن تفوتهم الأرض؛ بل أن يفقدوا أهلية حمل الرسالة. وقد يخسر الإنسان نفسه قبل أن يخسر الشيء الذي طلبه. حين يخون مبدأه خوفًا على منصبه، قد يحفظ المنصب مؤقتًا، لكنه يفقد الرجل الذي كانه.

إن بعض المكاسب تُنال بالتراجع، لكنها تحمل في باطنها خسارةً أفدح: يربح المرء السلامة، ويخسر كرامته؛ يربح رضا الأقوياء، ويخسر حريته؛ يربح لحظةً هادئة، ويورث أبناءه زمنًا طويلًا من الذل.

الآية الثانية والعشرون

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

ها هو الخوف يتكلم، لكنه لا يعلن نفسه خوفًا؛ بل يرتدي لباس الواقعية:

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

لم يكن وجود الجبارين وهمًا؛ لقد كانوا ذوي قوة وبطش. والإيمان لا يطلب من الإنسان أن يكذب في تقدير الواقع، ولا أن يسمي الضعف قوةً والقوة ضعفًا. لكن المشكلة لم تكن أنهم رأوا قوة العدو، بل أنهم رأوها وحدها. غاب عن المشهد رب العدو وربهم، فتحولت المعلومة الصحيحة إلى نتيجة باطلة.

الواقعية التي تحصي جنود الخصم وتنسى سنن الله ليست واقعيةً كاملة؛ إنها نصف رؤية. كما أن الحماسة التي تتجاهل موازين القوة تهور، فإن الحساب الذي يستبعد قدرة الله عجزٌ متنكر في ثوب الحكمة.

﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا﴾.

جاءت ﴿لَنْ﴾ حاسمةً مغلقة. لم يقولوا: نخاف، أو نحتاج إلى إعداد، أو دلنا على الخطة؛ بل أعلنوا الامتناع. والخوف حين يستولي على النفس لا يكتفي بأن يحذرها، بل يصنع لها قرارًا نهائيًّا، ثم يقنعها أن كل محاولةٍ ضربٌ من الجنون.

﴿حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾.

يريدون النصر بعد أن يزول العدو، والدخول بعد انتهاء معركة الدخول، والثمار بلا موسم البذر. فكأنهم يشترطون على القدر أن ينجز عنهم المهمة، ثم يدعوهم إلى استلام الجائزة.

وهذا مرضٌ يتكرر في الأفراد والأمم: نريد بيئةً بلا فتنة كي نستقيم، وطريقًا بلا تعب كي نسير، وحقًّا بلا خصوم كي ننصره. نؤجل الشجاعة حتى يختفي الخوف، مع أن الشجاعة لا تولد إلا في وجود ما يُخاف.

﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

إنهم مستعدون لدخول مكانٍ لا يحتاج دخوله إليهم! أما حين كان لوجودهم معنى، تراجعوا. وهذا من مفارقات النفس الضعيفة: تتقدم حين يصبح التقدم احتفالًا، وتختفي حين يكون التقدم صناعةً للنصر.

الأمة الحية لا تنتظر أن ينتهي التاريخ كي تنضم إلى المنتصرين؛ بل تدخل ميدان الواجب حين تكون الكلفة قائمة، لأن قيمة الموقف في توقيته. وقد يقول الجميع الحق بعد انتصاره، لكن فضل السبق لأولئك الذين قالوه حين كان مكلفًا.

الآية الثالثة والعشرون

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

في وسط جماعةٍ أنهكها الخوف، نهض رجلان. لم يقل القرآن: قال القادة الكثيرون، بل ﴿رَجُلَانِ﴾. وقد يحمل اثنان في لحظةٍ من نور البصيرة ما تفقده جموعٌ غلب عليها الوهن.

إن الحق لا يُقاس بعدد أصواته. ربما كانت الكثرة أحيانًا تردّد الخوف نفسه، بينما يرى القليل ما حجبته الضوضاء عن الجميع. وليس فضل القلة في قلتها، ولا عيب الكثرة في كثرتها؛ إنما المعيار ما تحمله القلوب من يقين.

﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

قيل: يخافون الله، وقيل: يخافون الجبارين ولكن أنعم الله عليهما بالثبات. والمعنيان يلتقيان عند حقيقةٍ عميقة: المؤمن الشجاع ليس إنسانًا بلا إحساسٍ بالخطر، بل إنسانًا لم يسمح للخطر أن يهزم طاعته.

قد يدخل الخوف القلب، لكنه لا ينبغي أن يجلس على عرشه. وجود الخوف طبيعة بشرية، أما تسليمه القيادة فاختيار. وموسى نفسه خرج من المدينة خائفًا يترقب، لكنه مضى حيث أمره الله؛ فالخوف لا يناقض الإيمان ما دام الإيمان هو الذي يقرر الوجهة.

﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

الثبات نعمة. والقدرة على رؤية إمكان النصر في زمن الهزيمة نعمة. والكلمة الصادقة حين يصمت الآخرون نعمة. قد يظن الإنسان أن النعمة مالٌ أو صحة، وينسى أن قلبًا لا ينهار أمام الترهيب من أعظم العطايا.

وإضافة النعمة إلى الله تحفظ الشجاع من الغرور. لم يكونا ثابتين لأن معدنهما منفصلٌ عن فضل الله، بل لأن الله أنعم عليهما. ومن عرف أن ثباته من الله رقّ للمترددين، ولم يتكبر عليهم، ودعا لهم بدل أن يكتفي باحتقار ضعفهم.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾.

قدّم الرجلان خطةً عملية، لا خطبةً عاطفية فقط. اليقين الصحيح لا يستغني عن معرفة الباب. فالأسباب ليست ضد التوكل؛ بل هي الطريق الذي يمشي فيه المتوكل. معرفة نقطة الدخول، وحسن التوقيت، وتركيز القوة؛ كلها من فقه النصر.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

كان المطلوب كسر حاجز البداية. للرهبة هيبةٌ تتضخم ما دام الإنسان واقفًا أمامها، فإذا دخل الباب اكتشف أن كثيرًا من قوتها كان يعيش في خياله. بعض المخاوف حراسٌ من دخان؛ تبدو جبالًا من بعيد، فإذا تقدمت إليها تبددت.

الخطوة الأولى لا تنجز الطريق كله، لكنها تفك سحر العجز. ولذلك يعرف الشيطان قيمة البداية، فيحاول أن يمنع الإنسان من فتح المصحف، أو رفع السماعة للاعتذار، أو كتابة السطر الأول، أو اتخاذ قرار التوبة. يعلم أن من دخل الباب قد يُفتح له ما وراءه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾.

مرةً أخرى يتقدم اسم الله في الجملة ليكون الاعتماد عليه وحده. ادخلوا الباب بأقدامكم، لكن لا تتوكلوا على الباب. خذوا بالخطة، لكن لا تعبدوا الخطة. فكم من خطةٍ محكمةٍ خذلت أصحابها لأنهم اطمأنوا إليها، وكم من سببٍ قليل باركه الله لأنه خرج من قلبٍ صادق.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

جعل التوكل مقتضى الإيمان؛ لأن من آمن حقًّا بأن الله قادرٌ حكيمٌ وكافٍ وناصر، لا يمكن أن يبقى قلبه معلقًا بالأسباب وحدها. وقد يضعف توكله كما يضعف إيمانه، لكنه يعود كلما تذكّر من بيده الأمر.

الآية الرابعة والعشرون

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

كان الرد أكثر قسوةً من الموقف الأول: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا﴾.

انتقلوا من وصف الخطر إلى تأبيد العجز. وكلمة ﴿أَبَدًا﴾ تكشف أن الجبارين لم يعودوا يسكنون الأرض فقط، بل سكنوا مخيلة القوم. لقد جعلوا قوة العدو قدرًا لا يتغير، كأن الأيام لا تتداول، وكأن الجبابرة لا يموتون، وكأن الله الذي أغرق فرعون قد انتهت قدرته عند شاطئ البحر.

وهكذا يصنع الاستبداد أنجح انتصاراته: لا حين يملأ الشوارع بجنوده، بل حين يملأ قلوب الناس باستحالة هزيمته. فإذا آمنت الشعوب بخلود جلادها، صار خوفها جيشًا إضافيًّا يحرسه دون أجر.

ثم قالوا الكلمة التي تكشف انفصالهم عن رسالة نبيهم:

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾.

تعالى الله عن المكان والحركة ومشابهة خلقه؛ وليس قولهم هذا إلا تعبيرًا عن جهلهم وسوء أدبهم وتنصلهم من التكليف. لقد جعلوا القضية قضية موسى لا قضيتهم، والرسالة مشروعه الخاص، والنصر مهمةً تُنجز لهم وهم يتفرجون.

وهذه علامة موت الجماعة: أن تتعامل مع المصلح كأنه موظفٌ عندها، تطالبه بأن يصنع المستقبل وحده، ثم تعود هي إلى مقاعد المشاهدة. يريدون

من القائد أن يضحي، ومن العالم أن يصدع، ومن الصادق أن يدفع الثمن، بينما يحتفظون لأنفسهم بحق التعليق.

﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

ليست القعود هنا هيئة جسد فقط، بل عقيدة عجز. لقد عيّنوا لأنفسهم مكانًا خارج الحدث: ﴿هَاهُنَا﴾. دعوا موسى إلى الأمام، وثبّتوا أنفسهم في الخلف.

وكم من «هاهنا» يقعد فيها الناس اليوم: هاهنا في منطقة الأمان، هاهنا خلف الشاشات، هاهنا في مساحة النقد التي لا تكلف صاحبها شيئًا. يتحدثون عن التقصير كأنهم ليسوا جزءًا من الأمة، وينتظرون المخلص الذي يبني بيديه ما يرفضون أن يضعوا فيه حجرًا.

الآية الخامسة والعشرون

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

يا لوحدة موسى في هذا المشهد! نبيٌّ أنقذ قومه من الذبح، وشق الله لهم البحر على يديه، ثم يقف بينهم فلا يجد مستجيبًا ظاهرًا إلا أخاه ومن ثبت من القليل.

﴿رَبِّ﴾.

حين ضاقت به استجابة الناس، اتسع له باب الله. المصلح لا يملك قلوب الجماهير، لكنه يملك أن يعود إلى ربه. وقد تكون المناجاة آخر ما يبقى للإنسان بعد سقوط الأدوات كلها، لكنها في الحقيقة أول القوة، لا آخر العجز.

﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.

هذه معرفةٌ دقيقة بحدود المسؤولية. كان موسى رسولًا مؤيدًا بالمعجزات، لكنه لا يملك أن يُكره قلبًا على الشجاعة. يبلّغ ويقود ويذكّر، أما القرار الداخلي لكل إنسان فبين العبد وربه.

وما أريح أن يعرف المصلح ما يملك وما لا يملك! كثيرٌ من الصادقين يحترقون لأنهم يحملون أنفسهم مسؤولية هداية الجميع، كأن عليهم أن يخلقوا الاستجابة في القلوب. وظيفتك أن تقول الحق بحكمة، وأن تثبت عليه، وأن تبذل ما تستطيع؛ أما الثمرة فليست في يدك.

لكن قوله: ﴿إِلَّا نَفْسِي﴾ ليس انسحابًا من المسؤولية الجماعية؛ بل إعلانٌ عن آخر حصنٍ لا يجوز التفريط فيه. إذا خذلك الناس، فلا تخذل أنت الحق في نفسك. وإذا تغيّر الجميع، فاثبت على الجزء الذي تملكه: قلبك وقرارك وموقفك.

قد يعجز المرء عن إصلاح زمنه، لكنه لا يُعذر في أن يسمح للزمن بإفساده. وقد لا يستطيع منع الطوفان، لكنه يستطيع ألا يكون قطرةً فيه.

﴿وَأَخِي﴾.

في الشدائد يظهر معنى الأخوة. لم يكن هارون قرابة دمٍ فقط، بل رفيق رسالة. وكم يحتاج صاحب الحق إلى أخٍ لا يتركه حين تنفضّ الجموع؛ شخصٍ واحد يقول له في لحظة الوحشة: ما زلتُ معك، قد يساوي أمةً في ميزان القلب.

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

أي افصل واحكم بيننا وبينهم. ووصفهم بالفسق لأنهم خرجوا عن طاعة الله بعد وضوح الأمر. وحين يبلغ الرفض هذا الحد، لا يعود الاختلاف تفصيلًا في الخطة، بل مفاصلةً بين الطاعة والتمرد.

إن الداعية يظل رحيمًا بقومه، صابرًا عليهم، لكنه لا يذيب الحد الفاصل بين الوفاء والخيانة. الرحمة لا تعني أن يسمى القعود شجاعة، ولا أن يُمنح التمرد اسم الاجتهاد. فقد بكى القلب على القوم، لكن الميزان بقي مستقيمًا.

الآية السادسة والعشرون

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

جاء الحكم من الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

الأرض التي كُتبت لهم حين دُعوا إلى دخولها، حُرمت عليهم لما رفضوا. فالوعود لها أهلية، والنعم تُفتح بالطاعة وقد تُحجب بالفسق. ليست الأرض وحدها هي التي تحتاج إلى من يفتحها؛ الإنسان نفسه يحتاج أن يُفتح من داخله كي يكون أهلًا لحمل النصر.

أربعون سنة؛ مدةٌ يذهب فيها جيلٌ نشأ في ظلال العبودية، وينشأ جيلٌ آخر في الصحراء، بعيدًا عن قصر فرعون وسوطه. وكأن الأمة التي عجزت نفوسها عن حمل الحرية احتاجت إلى زمنٍ طويل يعاد فيه تشكيلها.

فالأمم لا تتغير بمجرد سقوط الطغاة. قد يسقط الطاغية في ساعة، وتبقى ثقافته أربعين عامًا في اللغة والمؤسسات والعلاقات. الاستبداد لا يبني سجونه من

الحجر وحده؛ يبنيها في الخيال، حتى يظل الناس بعد زواله يبحثون عمّن يخافونه ويطيعونه.

﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

التيه هو السير بلا اهتداء إلى الوجهة. يا للمفارقة: خافوا أن يدخلوا الأرض في معركةٍ لها هدف، فعوقبوا بحركةٍ طويلة بلا وصول. أرادوا السلامة من تعب الطريق، فدخلوا تعبًا لا يثمر.

إن من يرفض تكاليف الغاية لا ينجو من التعب؛ إنما يستبدل تعبًا يصنع معنى بتعبٍ يبدد العمر. فالحياة لا تعفي أحدًا من المشقة، لكنها تتيح له أن يختار: أيكون تعبه جسرًا إلى مقصد، أم دورانًا في دائرة؟

قد يتحرك الإنسان كثيرًا ويظل تائهًا؛ يبدل الوظائف والأمكنة والعلاقات، ويملأ يومه بالضجيج، لكنه لا يعرف لماذا يتحرك. التيه ليس قلة الحركة، بل غياب القبلة. وربما كانت حضارةٌ بأكملها سريعةً في أدواتها، تائهةً في غاياتها.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

الأسى حزنٌ شديد. والله يسلّي موسى؛ فقد بذل وذكّر، لكن القوم اختاروا القعود. فلا تُهلك نفسك حزنًا على من أصرّ بعد قيام الحجة.

ليس النهي عن الأسى دعوةً إلى قسوة القلب، فموسى نبي رحيم، وإنما هو حماية للمصلح من أن يتحول حزنه إلى استنزافٍ يعطله. هناك فرقٌ بين

رحمةٍ تدفعك إلى العمل، وحزنٍ يبتلع قدرتك على العمل. وإذا حملت نفسك نتائج اختيارات الناس، انكسرت تحت حملٍ لم يضعه الله عليك.

وفي القصة كلها صورةٌ مهيبة للصراع بين نعمة الله وذاكرة الاستعباد: أنبياء فيهم، وآيات وراءهم، ووعدٌ أمامهم، ورجلان صالحان بين أظهرهم، وموسى يقودهم؛ ومع ذلك غلبتهم صورة الجبارين.

وهذا يعلمنا أن كثرة الأدلة لا تكفي إذا انهارت الإرادة، وأن رؤية المعجزة لا تصنع بالضرورة رجلًا شجاعًا، وأن الأمة قد تعرف الحق ثم تعجز عن دفع ثمنه. فالعقبة لم تكن في الطريق إلى الأرض المقدسة، بل في الإنسان الذي يقف على أعتابها.

لقد احتاج الجيل إلى أن يتعلم في صحراء التيه أن الحرية لا تُعطى لمن يطلب من نبيه أن يقاتل عنه، وأن الوعد لا يحمله القاعدون، وأن الأرض المقدسة لا يدخلها قلبٌ لا يزال يقدّس قوة الجبارين.

الفصل الثامن

الْقُرْبَانُ الأَوَّلُ وَالدَّمُ الأَوَّل

حين يُفسد الحسدُ معنى القُرب، ويعلّم الغرابُ الإنسانَ كيف يواري عاره

الآية السابعة والعشرون

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

بعد قصة قومٍ قعدوا عن مواجهة الجبارين، تنتقل السورة إلى قصة إنسانٍ أصبح هو نفسه جبارًا على أخيه. هناك خاف الناس من القتل فتراجعوا عن الواجب، وهنا اندفع رجلٌ إلى القتل لأن قربان أخيه قُبل ولم يُقبل قربانه. وبين الجبن والعدوان تضيع الأمانة حين يغيب ميزان التقوى.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾.

لم يقل: احك لهم قصةً للتسلية، بل ﴿نَبَأَ﴾؛ والنبأ خبرٌ عظيم له خطره وما وراءه من العبرة. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحرر القصة من إضافات الخيال، ويردّها إلى مقصدها الرباني. لسنا أمام أسطورةٍ عن طفولة البشر، بل أمام كشفٍ مبكر عن ظلمةٍ يمكن أن تولد في قلب الإنسان حتى وهو ابن أول نبي.

ولم تسمِّ الآية الابنين؛ لأن المقصود ليس أن نحفظ اسميهما بقدر ما نكتشف ملامحهما في النفس البشرية. قد يختلف المفسرون في الأسماء والتفاصيل المنقولة، أما الحقيقة القرآنية الباقية فهي أن أخوين تقربا إلى الله، ثم تحولت لحظة العبادة عند أحدهما إلى جريمة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾.

القربان ما يتقرب به العبد إلى الله. والاثنان فعلا الصورة نفسها: قدّم كل واحد منهما شيئًا. لكن تشابه الأعمال في ظاهرها لا يعني تساويها في حقيقتها؛ فالسماء لا تنظر إلى حجم القربان وحده، بل إلى القلب الذي حمله.

قد يقف رجلان في الصلاة نفسها، ويبذل اثنان الصدقة نفسها، ويكتبان الكلمة نفسها، ولكن بين العملين من التفاوت بقدر ما بين قلبٍ يريد الله وقلبٍ يريد أن يراه الناس. فالعمل له جسدٌ ظاهر، وله روحٌ باطنة، والتقوى روحه التي بها يحيا ويُقبل.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

ها هنا موضع الامتحان الحقيقي. لم يكن الابتلاء أن يقدم القربان فحسب، بل أن يرى قبول عمل غيره وعدم قبول عمله. يستطيع كثيرٌ من الناس أن يعملوا الخير، لكن القليل منهم يستطيع أن يفرح بظهور فضل أخيه إذا خفي فضلهم.

إن الحسد لا يبدأ دائمًا من بغض النعمة نفسها، بل من السؤال المسموم: لماذا كانت له ولم تكن لي؟ بدل أن يراجع الإنسان سبب حرمانه، يحاكم من أُعطي. وبدل أن يصلح قربانه، يفكر في إزالة صاحب القربان المقبول.

كان يمكن للأخ أن يسأل: ما الذي أفسد عملي؟ كيف أصلح قلبي؟ لكنه اختار الطريق الأقصر في وهمه: أن يقتل المرآة التي أظهرت نقصه. وهكذا يفعل الحاسد؛ لا يكره في المحسود ذنبًا ارتكبه، بل يكره فيه النعمة لأنها تذكّره بما فاته.

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

يا له من انتقال مرعب: من المذبح الذي قُدّم عليه قربانٌ لله إلى مذبحٍ يريد أن يقدم عليه أخاه لهواه! عندما لا يقبل الإنسان حكم الله في القبول والرد، قد يتحول تدينه الظاهري إلى خصومةٍ مع عباد الله.

لقد تضخم الحسد حتى صار قرارًا بالقتل. وهذا يكشف أن الجرائم الكبرى تبدأ خواطر صغيرةً لم تُعالج. نظرة مقارنة، ثم ضيق، ثم اعتراض داخلي، ثم كراهية، ثم تمني زوال النعمة، ثم استعداد لإزالة صاحبها. الشر لا يصل دائمًا إلى القلب دفعةً واحدة؛ بل يدخل كخيط، ثم ينسج حول الروح شبكة.

وجاء جواب الأخ الصالح هادئًا، لا يشبه صخب التهديد:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

لم يقل: أنا أفضل منك، ولا عدد محاسنه، ولا عيّره بالرد؛ بل أعاده إلى القانون: القبول من الله، وطريقه التقوى. كأنه يقول له: ليست المشكلة بيني وبينك، ولا علاجها بإزالتي؛ أصلح ما بينك وبين الله.

و﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر؛ فليس القبول حقًّا يفرضه الإنسان على الله لمجرد أنه عمل. العبرة ليست أن تقول: قدّمت، بل أن تسأل: هل اتقيت؟ ربما بذلت كثيرًا، لكنك لوثت العطاء بالمن، أو طلبت به منزلةً في قلوب الناس، أو قدّمت لله ما لا ترضاه لنفسك.

وقد كان السلف يخافون على قبول العمل أكثر من خوفهم من مشقة أدائه؛ لأن القدرة على الفعل قد تُرى، أما سر القبول فغيبٌ بين العبد وربه. ومن هنا

لا يتكبر الطائع بطاعته، بل يظل بين الرجاء والخوف: يرجو فضل الله، ويخشى أن يكون في عمله ما حجبه عن القبول.

﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

التقوى هنا ليست دعوى كمال، وإنما أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وقايةً من الطاعة، والإخلاص، واجتناب ما نهى عنه. وقد يقع المتقي في زلة، لكنه لا يتخذ من الزلة بيتًا، بل يعود.

إن العمل المقبول لا يُعرف بكثرة الضجيج حوله. قد يكون عملًا صغيرًا حمله قلبٌ خاشع فرفعه الله، وقد يكون مشروعًا يملأ الأرض ذكرًا، لكنه عند الله خفيفٌ لأن صاحبه أراد أن يملأ به اسمه لا ميزانه.

الآية الثامنة والعشرون

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

يقف الأخ الصالح أمام تهديدٍ حقيقي، ومع ذلك يعلن: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

ليست هذه الجملة تأسيسًا لترك الدفاع المشروع في كل حال؛ فللدفاع عن النفس والدم والأهل أحكامه في الشريعة. وإنما تكشف موقف هذا العبد الصالح في سياق الفتنة الأولى، وامتناعه عن أن يبدأ أخاه بالقتل أو يدخل معه في جريمةٍ متبادلة.

ولفظ ﴿بَسَطْتَ﴾ يرسم اليد وهي تخرج من حدودها إلى جسد أخيها. فالعدوان بسطٌ لما كان ينبغي أن يُكف، وتجاوزٌ للمسافة التي أقامها الله حول الدم المعصوم.

أما الصالح فلم يقل: لا أقدر، بل قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ﴾. الامتناع قرارٌ أخلاقي، لا عجزٌ جسدي. وقد يكون الإنسان قادرًا على الانتقام، ثم يكف نفسه لله؛ وهنا تبلغ التقوى ذروتها، لأن الفضيلة التي تنشأ من العجز لم تُختبر كما تُختبر حين توجد القدرة.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.

هذا هو الحاجز الذي وقف بين يده ودم أخيه. لم يقل: أخاف الناس، فلم يكن حوله مجتمعٌ يردعه، ولا قانونٌ وضعي يهدده، ولا كاميرا ترصد الجريمة. في فجر البشرية لم يكن ثمة سجنٌ ينتظره، لكن كان في القلب علمٌ بأن الله يرى.

وهنا تظهر وظيفة الخشية: حين يغيب الشرطي الخارجي، يبقى الحارس الداخلي. الحضارات لا يحفظها القانون وحده؛ لأن المجرم قد يجد ثغرةً أو ظلامًا أو شاهدًا يقبل الرشوة. إنما تُحفظ حين يسكن في الإنسان معنى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.

والخوف من الله ليس رعبًا أعمى من قوةٍ مجهولة؛ إنه خشية العبد لربه الذي يعرف عدله وعظمته، ويستحي أن يلقاه بدمٍ لم يأذن بسفكه. ولذلك قال: ﴿رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. فالذي ينهاني عن قتلك ليس رب قبيلتي وحدها، بل ربك ورب

الناس أجمعين. دمك لم يكتسب حرمته من محبتك لي، وإنما من حكم رب العالمين.

كم يحتاج الإنسان إلى هذا المعنى حين يحتدم الصراع! إذا رأى خصمه مخلوقًا لله، لم يعد مجرد عقبةٍ في طريقه يستطيع إزالتها. وحتى حين يقاتله بحق، يظل مقيدًا بأحكام الله، فلا يغدر ولا يمثل ولا يتجاوز؛ لأن رب المعركة هو رب العالمين، لا رب فريقٍ دون فريق.

الآية التاسعة والعشرون

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

لا تعني الآية أن الأخ الصالح أحب لأخيه النار ابتداءً، ولا أنه أراد إغراءه بالجريمة؛ بل المعنى: إن كنت مصرًّا على قتلي، فلن أشاركك العدوان، وسترجع حاملًا إثم قتلي مع إثمك السابق، فتبوء بعاقبته.

﴿أَنْ تَبُوءَ﴾؛ أي ترجع متحملًا، كأن الجريمة حملٌ يذهب به صاحبها ثم يعود وقد استقر على ظهره. فالقاتل قد يظن أنه أزاح خصمه من الطريق، لكنه في الحقيقة نقل إلى نفسه حملًا لم يكن عليها.

والظالم دائمًا يرى الجزء الظاهر من فعله: يرى جسدًا أزاله، أو مالًا أخذه، أو صوتًا أسكته؛ ولا يرى الشيء الذي يعود به إلى بيته ويدخل معه قبره. كل مظلمةٍ حقيبةٌ خفية يحملها صاحبها، ولو سار أمام الناس خفيف الخطو.

﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾.

أي بإثم قتلك إياي مضافًا إلى إثمك. وليس معناه أن القاتل يحمل ذنوب المقتول كلها بلا سبب، فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ وإنما يحمل إثم العدوان عليه وما يتعلق بجريمته، مع آثامه التي تقدم بها.

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

انتقلت الخصومة من لحظة الغضب إلى مشهد المصير. وهذه قدرة الإيمان: أن يمد بصر الإنسان وراء اللحظة. فالمعصية تستمد كثيرًا من قوتها من تضييق الأفق؛ تجعل المرء يرى دقيقة اللذة ولا يرى سنوات الندم، يرى نشوة الانتقام ولا يرى وقوف الحساب.

لو استطاع الإنسان عند كل إغراءٍ أن يفتح نافذةً على نهاية الطريق، لفقدت شهواتٌ كثيرة سحرها. المشكلة أننا نرى الفعل في أوله حين يتزين، ولا نراه في آخره حين ينزع الزينة ويظهر عاقبته.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

لم يقل: جزاء من أبغضهم أنا، بل ﴿الظَّالِمِينَ﴾. المعيار هو الظلم، وليس صلة الدم أو مقدار الغضب. فالجزاء لا ينزل لأن المقتول تفوق في القربان، بل لأن القاتل تجاوز حد الله واستباح نفسًا بغير حق.

الآية الثلاثون

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

من أعجب ألفاظ القصة قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾.

القتل في فطرة الإنسان السوية أمرٌ فظيع، يحتاج ارتكابه إلى عمليةٍ داخلية طويلة تحوّل المستنكر إلى مقبول، والصعب إلى سهل. النفس لم تدفعه دفعةً فحسب، بل أخذت تروّض فيه مقاومة الفطرة، وتقدم له المبررات، حتى صار القتل طوع يده.

وهكذا تعمل النفس حين تريد المعصية: لا تقول لصاحبها منذ البداية «كن مجرمًا»، بل تمنحه سلسلةً من الأعذار. تقول: أنت مظلوم، ثم: هو السبب، ثم: لا سبيل لاسترداد حقك إلا بإزالته، ثم: الجميع لو كانوا مكانك لفعلوا. وكل مبررٍ يزيل حجرًا من السد، حتى يندفع الشر.

إن أخطر الأكاذيب ما تقوله النفس لصاحبها بصوته. يثق بها لأنها خارجة من داخله، ولا يدري أن القرب لا يعني الصدق. ولذلك يحتاج الإنسان إلى وحيٍ يحاكم به نفسه، وإلى محاسبةٍ تفصل بين ما يريده وما ينبغي أن يريده.

﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾.

تتكرر الأخوة في قلب الجريمة؛ لم يقل: قتل الرجل. كأن الآية تضع كلمة ﴿أَخِيهِ﴾ أمامه وأمامنا لتكشف مقدار ما سحقه الحسد. كان القتيل أخاه: من الدم نفسه، والبيت نفسه، والأب نفسه؛ لكن حين يتضخم الهوى، يغيّب أوضح الحقائق.

والإنسانية كلها أبناء آدم، لكن الناس يقتلون إخوتهم بعد أن يمنحوهم أسماءً تخرجهم في الوهم من دائرة الإنسان: عدو، غريب، أقل شأنًا، مجرد رقم. كل جريمة واسعة تحتاج أولًا إلى لغةٍ تنزع عن الضحية وجهها البشري؛ فإذا عادت كلمة «أخي» إلى القلب، ثقلت اليد عن الدم.

﴿فَقَتَلَهُ﴾.

جملةٌ قصيرة، لكنها تحمل أول دمٍ بشري سُفك ظلمًا على الأرض. انتهت حياة، وانفتح في التاريخ بابٌ مظلم. ومن سنّ سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، كما ثبت في الحديث الصحيح في شأن ابن آدم الأول الذي سن القتل.

كان يظن أن المشكلة ستنتهي بموت أخيه، لكنها بدأت. القتل لا يحذف الحقيقة التي أراد القاتل حذفها؛ فالقبول بقي للقتيل، والرد بقي على القاتل، وأضاف إلى رد قربانه جريمة أخيه.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أصبح؛ كأن صباحًا جديدًا طلع عليه، لكنه لم يعد الإنسان الذي كانه. في لحظة الجريمة ظن أنه ربح ساحة المنافسة، فلما هدأ الغضب اكتشف أنه خسر أخاه، وراحة ضميره، وسلامة صحيفته، وخسر نفسه التي كانت قبل الدم.

الخسارة ليست دائمًا أن يأخذ منك الآخرون شيئًا؛ قد تكون أن تعطيك نفسك ما تشتهي، ثم تكتشف أن الثمن أنت. وفي كل معصية كبرى صفقةٌ خفية: تمنحك النفس لحظة انتصار، وتأخذ منك مساحةً من نورك.

الآية الحادية والثلاثون

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

وقف القاتل أمام الجسد الذي صنعه غضبه، ولم يعرف ماذا يفعل به. كانت الجريمة أسرع من معرفته بعواقبها؛ فالشر يعد الإنسان بلحظة الفعل، ثم يتركه وحيدًا أمام النتائج.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾.

لم يبعث إليه حكيمًا يخطب، بل غرابًا يبحث في الأرض. الحيوان الذي قد يراه الإنسان أدنى منه صار معلمه؛ لأن من عصى الله قد يسقط عن مقامٍ كان يؤهله للقيادة، فيحتاج أن يتعلم أوليات الرحمة من مخلوقٍ لم يُمنح عقله.

وفي القرآن إشاراتٌ توقظ الإنسان إلى التعلم من الكون: النحلة تبني، والنملة تحذر قومها، والهدهد يحمل خبرًا، والغراب يعلّم الدفن. ليس الإنسان مكرمًا لأنه أقوى المخاليق جسدًا، بل لأنه حُمّل العقل والوحي والأمانة؛ فإن عطّل ما أُعطي، فضحته الفطرة المستقيمة في مخلوقاتٍ حوله.

﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

يحرك التراب ويثيره ليريه كيف يواري جسد أخيه. الأرض التي خُلق منها آدم تفتح الآن صدرها لأول أبنائه المقتولين؛ خرج منها الإنسان حيًّا، ثم يعود إليها جسدًا. وبين الخروج والعودة امتحانٌ قصير يسمى العمر.

﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

السوأة ما يسوء ظهوره، والمراد هنا جثمان أخيه وما ينبغي ستره. حتى بعد أن اعتدى على حياته، بقي للجسد حقّ أن يُوارى. في الإسلام كرامة الإنسان لا تنتهي بموته؛ يُغسّل ويكفّن ويُدفن، فلا يتحول جسده إلى شيء مهمل.

لكن المفارقة موجعة: القاتل الذي لم يعرف كيف يحفظ أخاه حيًّا، يتعلم الآن كيف يستره ميتًا. وكم يتأخر الإنسان في تعلم قيمة من يحب! لا يعرف مكانه حتى يفقده، ولا يتعلم كيف يكرمه إلا حين يصبح الإكرام عاجزًا عن إعادة لحظة واحدة.

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا﴾.

إنها صرخة الإنسان حين ينقشع سكر الغضب. الويل هو الهلاك والحسرة، وهو يناديه كأن المصيبة صارت أقرب شيء إليه. كان قبل الجريمة ينادي الحسد، وبعدها صار ينادي الويل.

﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾.

لم يقل: أجهلت، بل ﴿أَعَجَزْتُ﴾. رأى نفسه دون الغراب في هذه المعرفة. وهذا هو الانهيار الذي تقود إليه المعصية: كان الإنسان مؤهلًا أن يكون معلمًا في الأرض بالوحي، فإذا به يستحي من عجزه أمام طائر.

﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

عاد يقول: ﴿أَخِي﴾، لكن بعد فوات وقت الأخوة. قبل القتل غطّى الحسد معنى الأخوة، وبعده كشف الغياب ما كان حاضرًا. أحيانًا لا تستعيد الكلمات دفأها إلا بعد أن تفقد أصحابها؛ يعود «أخي» إلى اللسان حين لا يعود الأخ ليجيبه.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

الندم ألمٌ على ما فات، لكنه لا يكون توبةً نافعةً بمجرده حتى يقترن بالإقلاع والاستغفار والرجوع إلى الله، مع ما يلزم في حقوق العباد. وقد يندم المجرم لأن الجريمة أتعبته، لا لأنها أغضبت ربه؛ أو لأنه عجز عن ستر آثارها، لا لأنه رأى قبحها.

وهنا يجب أن نفرق بين ندمٍ يفتح باب التوبة، وندمٍ يدور حول الذات. الأول يقول: ظلمتُ، فكيف أرضي الله وأردّ الحق؟ والثاني يقول: ما أسوأ ما جلبتُه على نفسي! الأول يعيد بناء الإنسان، والثاني قد يظل حسرةً عقيمة.

وتنتهي القصة بجسدٍ تحت التراب، وقاتلٍ فوقه يحمل ترابًا أثقل في قلبه من الجبال. بدأ الأمر بقربانٍ يراد به القرب من الله، وانتهى بجريمةٍ أبعدته. وبين القرب والبعد وقف الحسد.

إن الحسد اعتراضٌ خفي على توزيع الله لفضله؛ ولذلك لم يحتمل القاتل أن يرى القبول عند أخيه. ولو أنه نظر إلى أخيه كدليل طريق، لقال: يا أخي، علّمني كيف أُصلح قرباني. لكنه نظر إليه كمنافسٍ ينبغي أن يزول.

وهنا يكمن الفرق بين قلبين: قلبٌ إذا رأى فضلًا عند غيره، جعله بابًا للاقتداء والدعاء؛ وقلبٌ يجعله سببًا للعداوة. الأول تزيده نعم الناس غنىً لأنه يتعلم منها، والثاني تجعله فقيرًا ولو ملك الدنيا؛ لأنه لا يهنأ ما دام لأحدٍ نعمة لا يملكها.

لقد دفن ابن آدم جسد أخيه، لكنه لم يستطع دفن معنى الجريمة. ظل الدم الأول يتردد في كل دمٍ سُفك ظلمًا بعده، وظل الغراب واقفًا في ذاكرة الإنسان يسأله: كيف استطعت أن تتعلم ستر الجسد، ولم تتعلم بعد أن تكف يدك عن صنعه؟

الفصل التاسع

حُرْمَةُ الدَّمِ وَحِرَاسَةُ الْحَيَاة

حين يصبح قتلُ الواحد عدوانًا على الإنسانية، وتغدو نجاةُ النفس إحياءً للعالم

الآية الثانية والثلاثون

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾؛ من أجل ذلك الدم الأول الذي سفكه الحسد، ومن أجل ما كشفت عنه الجريمة من قابلية الإنسان لأن يمد يده إلى أخيه، شُرع الحكم الذي يقيم حول النفس البشرية سورًا من الهيبة.

إن جريمة ابن آدم لم تنته بدفن الجثمان؛ لقد كشفت أن حياة الإنسان تحتاج إلى وحيٍ يحرسها من الإنسان. فالمخلوق الذي يستطيع أن يبني المدن قادرٌ أيضًا على أن يحولها مقابر، والذي أُعطي عقلًا يصنع به الدواء يستطيع أن يصنع به السلاح. لذلك لا يكفي التقدم العقلي ليضمن الرحمة؛ لا بد من ميزانٍ أعلى يخبر القوة أين تقف.

﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أي فرضنا عليهم وشرعنا لهم تعظيم حرمة الدم. وذِكر بني إسرائيل متصلٌ بسياق الحديث عن مواثيقهم، لكن القيمة التي تكشفها الآية من أعظم القيم التي

أكدها الإسلام: أن النفس المعصومة ليست رقمًا، وأن العدوان عليها هدمٌ لمعنى الأمان الذي تقوم عليه حياة البشر.

﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

بدأت الآية بكلمة ﴿نَفْسًا﴾ منكرةً، لتشمل كل نفسٍ ثبتت لها الحرمة. لا تسأل قبل حماية الدم: ما نسب صاحبه؟ وما لونه؟ وإلى أي جماعة ينتمي؟ الحياة أسبق من هذه التصنيفات، وحقها لا يسقط لأن صاحبها ضعيفٌ لا عشيرة وراءه ولا منبر يدافع عنه.

وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ إثباتٌ للقصاص المشروع بضوابطه وحكم القضاء، لا انتقام الأفراد وفوضى الثأر. وقوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يشير إلى الجرائم الجسيمة التي قرر الشرع عقوباتها. فحرمة الدم لا تعني تعطيل العدل، كما أن إقامة العدل لا تعني إباحة الدم للأهواء.

إن أخطر ما يصيب المجتمعات أن ينتزع الأفراد والجماعات سلطة الحكم من القضاء، فيصبح كل غاضبٍ قاضيًا، وكل صاحب سلاح منفذًا، وكل خصومةٍ حكمًا بالإعدام. وحين تُترك الدماء للتأويلات الخاصة، لا يبقى أحدٌ آمنًا؛ لأن كل قاتلٍ سيجد عنوانًا يسمي به جريمته عدلًا.

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

كيف يصبح قتل الواحد كقتل الجميع؟ لأن القاتل انتهك المبدأ الذي يحفظ الجميع. لم يعتدِ على جسدٍ مفرد فقط، بل أعلن بفعله أن حرمة النفس قابلةٌ للكسر إذا امتلك الأقوى سببًا يقنع نفسه به. فإذا سقط هذا الحاجز في نفس واحدة، صار كل إنسانٍ مهددًا.

إن الإنسانية ليست أكوامًا من الأفراد المنفصلين؛ في كل نفسٍ صورةٌ من سر الحياة الذي أودعه الله في بني آدم. ومن استهان بواحدةٍ فقد استهان بالأصل الذي تشترك فيه النفوس جميعًا.

وقد يستطيع القاتل أن يخفي الجثمان، لكنه لا يستطيع أن يحصر أثر الجريمة في القبر. وراء كل قتيل أمٌّ ينطفئ شيءٌ في قلبها، وأبٌ يشيخ في لحظة، وأبناءٌ يتغير مستقبلهم، ومجتمعٌ يفقد جزءًا من شعوره بالأمان. الرصاصة تصيب جسدًا واحدًا، لكن دوائر الألم تتسع أبعد من مرمى السلاح.

ولذلك لا تقيس الدماء بعدد القتلى وحده، بل بما تهدمه الجريمة من الثقة والسكينة والمعنى. قتيلٌ واحدٌ مظلوم قد يفتح باب ثأرٍ يمتد أجيالًا، ويحوّل قريةً إلى معسكر خوف، ويورث الأطفال لغة الكراهية قبل أن يتعلموا أسماء الأشياء.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

إحياء النفس يشمل إنقاذها من الهلاك، ومنع قتلها، والسعي في سلامتها، ويدخل في معناه كذلك كل فعلٍ مشروع يحفظ حياتها. طبيبٌ يقف ساعاتٍ ليعيد قلبًا إلى النبض، ومنقذٌ يلقي بنفسه في الماء، وصاحب كلمةٍ يمنع ثائرًا من سفك دم، وقاضٍ يرد تهمةً باطلةً عن بريء؛ كلهم يقفون في جهة الإحياء.

كم من حياةٍ أُنقذت بكلمةٍ قيلت في الوقت المناسب! وكم من يدٍ كانت على وشك أن تقتل، فردّتها موعظةٌ أو حكمة! ليس الإحياء دائمًا عمليةً طبية؛ قد يكون إطفاء فتنة، أو إصلاحًا بين متخاصمين، أو طعامًا يصل إلى جائعٍ أوشك أن يهلك.

وفي عصرنا تتسع دوائر الإحياء: الدواء إحياء، وتأمين الماء النظيف إحياء، ومكافحة الجوع إحياء، وحماية المدنيين إحياء، ومنع تجارةٍ تفتك بأجساد الناس إحياء. كل مشروعٍ يصون النفس المعصومة من الهلاك يحمل نصيبًا من هذا المعنى العظيم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

لم تُترك حرمة الدم إلى الحدس وحده؛ جاءت الرسل بالحجج الواضحة. لكن وضوح الحق لا يمنع الانحراف إذا لم يرد القلب الانقياد.

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾: بعد قصة الدم الأول، وبعد التشريع، وبعد البينات. ولهذا كان الإسراف أشد قبحًا. والإسراف تجاوز الحد؛ وليس الإسراف في الطعام والمال فقط، بل أعظمه أن يتجاوز الإنسان حدود الله في الدماء.

ومن البلاء أن تُختزل كلمة «الإسراف» في إنفاقٍ زائد على مائدة، بينما يُنسى إسراف السلاح في الأجساد، وإسراف الطغاة في السجون، وإسراف الجماعات في تصنيف الناس ثم استباحة حقوقهم. ربما تحرج الإنسان من لقمةٍ زائدة، ولا يتحرج من كلمةٍ تحرض على دماء كثيرة.

والقرآن يعيد الميزان إلى حجمه الحقيقي: الدم خطٌّ أحمر رسمه الله حول كرامة الإنسان، ومن تجاوزه فقد أسرف في أبشع صور الإسراف.

الآية الثالثة والثلاثون

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بعد أن عظّمت الآية السابقة حرمة النفس، جاءت هذه الآية لتحمي المجتمع ممن يحولون الحياة الآمنة إلى ساحة رعب. فالرحمة بالنفس البريئة تقتضي الحزم مع من يقطع الطريق عليها، والعدل ليس عاطفةً رخوة تترك المفسد ينهش الناس باسم التسامح.

﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

تعالى الله أن تناله حرب البشر، وإنما محاربتهم لله ورسوله محاربةٌ لشرعه، واعتداءٌ على الأمن الذي أقامه، وتمردٌ مسلح يروع العباد ويفسد في الأرض. وقد بيّن الفقهاء أن الآية في الحرابة وقطع الطريق والإفساد العنيف، ولها شروط وتفاصيل وأحكام يرجع فيها إلى القضاء الشرعي وأهل العلم.

إن تسمية الجريمة حربًا لله ورسوله تكشف فظاعتها: فالمفسد لا يهاجم المسافر وحده، بل يهاجم حق الله في أن تكون أرضه موطن أمانٍ لعباده. حين يقطع الطريق، ويسفك الدم، ويسلب المال، ويزرع الرعب؛ فإنه ينازع الشريعة مقصدها في حفظ الحياة والمجتمع.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

السعي حركةٌ مقصودة متكررة. لم تصف الآية زلةً عارضة، بل مشروع فسادٍ يمشي صاحبه في الأرض ينشر الخوف. فهناك فرق بين ذنبٍ فردي يحصر ضرره غالبًا في صاحبه، وفسادٍ منظم يهدد حياة الناس وأمن الطرق واستقرار المجتمع.

والفساد ليس كلمةً مطاطةً يضعها الحاكم على خصومه ثم يستبيحهم؛ إنما تُفهم في ضوء الشرع وبيناته وضمانات القضاء. فما أكثر ما سمّى الطغاة مطالبة المظلوم بحقه «إفسادًا»، وسموا فسادهم هم «حماية للنظام»! لذلك لا تُسلّم العقوبات لأهواء السلطة ولا لانفعالات الجماهير، وإنما لعدالةٍ مؤسسية تضبط الإثبات والتنفيذ.

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾.

هذه عقوباتٌ شديدة تناسب شدة الجريمة، وقد اختلف الفقهاء في تنزيلها: أهي مرتبة بحسب نوع الجناية من قتلٍ وأخذ مالٍ وإخافة سبيل، أم للإمام فيها تخييرٌ يراعي الجريمة والمصلحة ضمن ضوابط الشرع؟ وتفاصيل ذلك موضع الفقه والقضاء، لا مجال المبادرات الفردية.

ولا يجوز أن تُقرأ الآية منفصلةً عن الآية السابقة التي جعلت قتل نفسٍ بغير حق كقتل الناس جميعًا. فالذي عظّم الدم هو الذي شرع العقوبة؛ ولذلك لا تنفذ إلا بحق ثابت، وسلطة مختصة، وقضاء عادل. ليست الحدود انتقامًا أهوج، بل سياجًا يحيط بالأبرياء، ويحذر من يحاول تحويل المجتمع إلى غابة.

وقد يرى بعض الناس في شدة العقوبة قسوة، وينسون قسوة الجريمة على ضحاياها. يرون جسد المفسد عند الجزاء، ولا يرون الأجساد التي روعها أو قتلها، والأسر التي شردها، والطرق التي جعلها مصائد للموت. الرحمة التي لا ترى الضحية قد تتحول إلى ظلمٍ جديد.

لكن العقوبة في الإسلام ليست تشفيًا؛ لا تُقام لإشباع غضبٍ اجتماعي، ولا يُزاد فيها إيلامٌ لم يأذن به الله. إنها حكمٌ محدود، يؤدي وظيفة الردع والعدل، ويبقى المنفذ نفسه عبدًا تحت القانون لا مالكًا للدماء.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾.

لقد أراد المفسد أن يصنع لنفسه هيبةً في نفوس الناس بالرعب، فجاء الجزاء خزيًا يكسر الهيبة الزائفة. كان يظن أن السلاح يرفعه فوق المجتمع، فإذا بالقضاء العادل يعيده إلى موضع الجاني.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

العقوبة الدنيوية لا تعني بالضرورة سقوط تبعة الآخرة عمن لم يتب توبةً صادقة، فالأمر إلى الله وحكمه. والجريمة لم تكن مخالفةً اجتماعية فحسب، بل تمردًا على حدود الله وعدوانًا على خلقه.

وفي الجمع بين خزي الدنيا وعذاب الآخرة إغلاقٌ لوهم الإفلات. قد يهرب المفسد من قضاء الأرض، أو تحميه سلطة، أو يشتري الصمت، لكنه لا يخرج من ملك الله. أما إذا قامت عليه العقوبة، فلا ينبغي أن يغفل عن التوبة؛ فالعقوبة قد تمس الجسد، لكن التوبة هي التي تعيد القلب.

الآية الرابعة والثلاثون

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ما أسرع ما يفتح القرآن باب الرحمة بعد ذكر العقوبة! فحتى المفسد الذي ملأ الطريق رعبًا لم يُغلق الله أمامه إمكان العودة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.

إنها نافذةٌ تفتح في جدارٍ شديد الصلابة. تقول للإنسان: مهما بعدتَ، لا يزال الاتجاه إلى الله قائمًا. ليس في الإسلام إنسانٌ صارت الجريمة هويته التي لا تنفك عنه؛ قد يكون محاربًا مفسدًا، ثم تنقله التوبة الصادقة من معسكر الفساد إلى عتبة المغفرة.

لكن التوبة هنا مقيدة:

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾.

لأن التوبة قبل القدرة عليهم أقرب إلى الدلالة على صدق الرجوع؛ تابوا وهم ما يزالون قادرين على الفرار والمقاومة، فتركوا الجريمة اختيارًا، لا بعد أن ضاقت بهم السبل وأمسكت بهم السلطة.

شتان بين من يلقي السلاح لأن قلبه استيقظ، ومن يلقيه لأن يده عجزت عن حمله. الأول غيّر وجهته، والثاني ربما لم يغير إلا خطته.

وتوبتهم قبل القدرة عليهم تُسقط عنهم حد الحرابة عند جمهور أهل العلم، أما حقوق الآدميين من دماءٍ وأموالٍ فلا تسقط بمجرد التوبة، بل تُرد الحقوق ويُمكّن أصحابها من حقوقهم وفق أحكام القضاء. فمغفرة الذنب فيما بين العبد وربه لا تجعل مظالم العباد عدمًا.

وهذه دقةٌ بالغة: الإسلام يفتح للمجرم بابًا إلى الله، لكنه لا يغلق باب الضحية إلى حقها. لا يجعل الرحمة ستارًا لإهدار العدل، ولا يجعل العدل حاجزًا يمنع التائب من الرجاء. فالمجتمع يحتاج أن يطمئن إلى أن الحقوق لا تضيع، والتائب يحتاج أن يعلم أن باب السماء لم يُغلق.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال: ﴿فَاعْلَمُوا﴾، لأن القلب قد يستبعد المغفرة بعد سماع جرائم الحرابة. يريد الله منا أن نصحح تصورنا عنه: شدة عقابه لا تناقض سعة رحمته، كما أن رحمته لا تعني الاستهانة بحدوده.

﴿غَفُورٌ﴾ يستر الذنب ويمحوه لمن تاب، و﴿رَحِيمٌ﴾ لا يكتفي بإزالة أثر الماضي، بل يفيض على التائب من رحمته ما يعينه على بناء مستقبل جديد.

وقد يتوب الإنسان إلى الله، لكن المجتمع يصر على سجنه داخل صورته القديمة. يظل الناس ينادونه باسم خطيئته بعد أن سماه الله تائبًا. لا يعني ذلك إسقاط الحذر المشروع أو إنكار الحقوق، لكن من الظلم أن نجعل الماضي قَدَرًا أبديًّا لمن ظهرت توبته واستقامته.

إن التوبة ليست محو ملفٍّ لغويًّا، بل ثورةٌ داخلية: ندمٌ على الماضي، وإقلاعٌ في الحاضر، وعزمٌ على عدم العودة، وردٌّ للمظالم بحسب القدرة والأحكام.

إنها أن يموت الإنسان الذي كان يفسد في الطريق، ويولد مكانه إنسانٌ يعرف حرمة الطريق.

وهكذا تجمع الآيات بين ثلاث دوائر متكاملة:

حرمةٌ عظيمة للنفس، حتى يكون قتل الواحدة كقتل الناس جميعًا؛ وعقوبةٌ رادعة لمن يحارب المجتمع ويسعى في الأرض فسادًا؛ وباب توبةٍ مفتوح لمن يعود قبل القدرة عليه.

فلا أمنٌ بلا عدل، ولا عدلٌ بلا قوةٍ تحميه، ولا قوةٌ إيمانية بلا رحمةٍ تفتح للمذنب طريق الرجوع. بهذه الموازنة يحفظ القرآن حق الحي، ويأخذ على يد المعتدي، ثم لا ييأس حتى من قلب المفسد أن يعود حيًّا بعد موته الأخلاقي.

الفصل العاشر

ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ

بين جهاد النفس، وعدالة الحدود، وملكٍ لا تنفع أمامه خزائن الأرض

الآية الخامسة والثلاثون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

بعد أن تحدثت الآيات عن الفساد في الأرض وعقوبته، التفت الخطاب إلى المؤمنين ليبين لهم الطريق المقابل: هناك من يسعى في الأرض فسادًا، وهنا من يبتغي إلى الله وسيلةً ويجاهد في سبيله. كلاهما يسير، لكن شتان بين سعيٍ يقطع الطريق على الناس، وسعيٍ يفتح الطريق إلى الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

يعود النداء إلى الإيمان؛ لأن الأوامر الكبرى لا تحملها نفسٌ فارغة من أصلها. والتقوى هي الحارس الذي يمنع الإنسان من أن يفسد وهو يظن أنه يصلح، أو يعتدي وهو يرفع شعار الجهاد، أو يطلب القرب بوسيلةٍ لم يأذن بها الله.

فليس كل اندفاعٍ في الدين تقوى، ولا كل فعلٍ يحمل اسم النصرة يكون نصرة. قد يتخذ الهوى من الألفاظ المقدسة ثيابًا، ولذلك تبدأ الآية بالتقوى قبل الوسيلة والجهاد؛ لتظل الحركة كلها خاضعةً لمراقبة الله.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

الوسيلة هي ما يتقرب به إلى الله من الإيمان والطاعات والأعمال التي يحبها ويرضاها. وقوله: ﴿ابْتَغُوا﴾ يدل على طلبٍ جاد، لا أمنيةٍ ساكنة. إن القرب من الله لا يُنال بالانتساب المجرد ولا بالتمنّي، وإنما بطريقٍ من معرفةٍ وطاعةٍ وإنابة.

ولم يقل: ابتغوا الوسيلة فقط، بل ﴿إِلَيْهِ﴾؛ فالوجهة تحدد قيمة الطريق. كم من إنسانٍ يعمل عملًا يشبه العبادة، لكنه يريد به منزلته في قلوب الناس! الصورة متجهةٌ إلى الله، والقلب متجهٌ إلى الجمهور.

إن أول الوسيلة صدق التوحيد، ثم الفرائض التي افترضها الله، ثم ما شرعه من النوافل والقربات. وفي الحديث القدسي الصحيح أن أحب ما يتقرب به العبد إلى الله ما افترضه عليه، ثم لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه. فالقرب ليس سرًّا غامضًا تحتكره طبقة، بل طريقٌ بيّن يبدأ من أداء الحق.

وقد يبحث الإنسان عن وسيلةٍ بعيدة، بينما أقرب الأبواب إليه مهجور: صلاةٌ يؤخرها، ورحمٌ يقطعها، ومظلمةٌ لا يردها، وقلبٌ لا يخلصه. يريد طريقًا استثنائيًّا إلى الله، وينسى أن الله وضع الطريق في تفاصيل يومه.

قد تكون وسيلتك إلى الله أمًّا ترعاها، أو يتيمًا تجبره، أو شهوةً تكفها في خلوة، أو حقًّا تقوله حين يصمت الناس، أو ركعتين لا يعلم بهما أحد. ليست المسافة إلى الله مسافة أقدام، وإنما مسافة طاعة؛ وقد يكون عبدٌ على فراشه أقرب إليه من مسافرٍ قطع الأرض وقلبه بعيد.

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾.

الجهاد بذل الجهد في نصرة دين الله، ويشمل مجاهدة النفس والشيطان، والقيام بالعلم والدعوة والبيان، ويشمل القتال المشروع في موضعه بأحكامه وضوابطه وتحت سلطته الشرعية. ولفظ ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ هو الميزان؛ فلا يكون الجهاد لله إذا كان سبيله عصبيةً أو انتقامًا أو طلبَ سلطان.

رب قتالٍ رفع أصحابه رايةً دينية ولم يكن في سبيل الله، لأن الباعث هوىً والوسيلة ظلمٌ والغاية ملك. والله لا يُنصر بمعصيته، والحق لا يحتاج إلى الباطل كي يقوم.

والجهاد يبدأ من الداخل؛ لأن من لم ينتصر على طمعه قد يحول المعركة إلى غنيمة، ومن لم يقهر غضبه قد يتجاوز الحدود، ومن لم يخلص نيته قد يقاتل ليُقال شجاع. لا يعني ذلك اختزال الجهاد في النفس وإلغاء معناه الشرعي الآخر، بل يعني أن ميدان الخارج يحتاج قلبًا مجاهدًا في الداخل حتى لا تفسده القوة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وفي أصله شق الأرض للزراعة؛ كأن الطريق إلى الفلاح حرثٌ طويل. لا يكفي أن تحمل البذرة، بل لا بد أن تشق التربة، وتصبر على الموسم، وتحرس الزرع.

إن التقوى توجّه، والوسيلة تقرّب، والجهاد يزيل العقبات؛ فإذا اجتمعت هذه المعاني نبت الفلاح. أما من يريد ثمرةً بلا تقوى، وقربًا بلا طاعة، ونصرًا بلا مجاهدة؛ فإنه يريد حصاد أرضٍ لم يزرعها.

الآية السادسة والثلاثون

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بعد أن أمرت الآية المؤمنين أن يبذلوا الجهد ليبلغوا الفلاح، تعرض هذه الآية صورة من أضاع طريق الفلاح، ثم حاول يوم القيامة أن يشتري النجاة.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

كل ما في الأرض: الذهب والقصور والمزارع والمصانع والسلطان والأسواق؛ كل ما تقاتل الناس عليه، وقطعوا الأرحام من أجله، وباعوا مبادئهم ليحصلوا على جزءٍ صغير منه.

ثم تضيف الآية: ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾. ليست أرضًا واحدةً بما فيها، بل مثلها معها. ومع ذلك كله يحاول الإنسان أن يقدمه فديةً من العذاب.

يا له من انقلابٍ في قيمة الأشياء! في الدنيا ربما باع دينه ليحصل على قطعة من الأرض، وفي الآخرة يتمنى لو امتلك الأرض مرتين ليشتري بها دينه الذي أضاعه. هنا يبدو المال غاية، وهناك يتضاءل حتى لا يساوي لحظة نجاة.

﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾.

الفداء أن يقدم الإنسان شيئًا ليخلّص به نفسه. ولكن يوم القيامة ليس سوقًا تُشترى فيه البراءة؛ فقد انتهى زمن البيع والشراء، وجاء زمن ظهور نتائج

الاختيارات. كانت الفدية الممكنة في الدنيا توبةً صادقةً وعملًا صالحًا، فلما أُغلق باب العمل لم تعد خزائن الأرض تنفع.

إن الإنسان يستطيع اليوم أن يدفع شيئًا صغيرًا عظيم الأثر: دمعة ندم، وسجدة رجوع، وحقًّا يرده، وشهوةً يتركها لله. فإذا أخّر ذلك حتى الموت، لم تنفعه كنوز العالم.

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾.

تعود كلمة القبول التي ظهرت في قصة ابني آدم. هناك لم يُقبل القربان لغياب التقوى، وهنا لا تُقبل الأرض كلها ممن جاء بالكفر. فليست القيمة في حجم ما يقدم، بل في الوقت الذي قُدم فيه، والإيمان الذي حمله، والوجهة التي قصدها.

رب درهمٍ قُدّم بإخلاص في الدنيا سبق جبلًا من الذهب، ورب أرضين كاملتين لا تساويان شيئًا حين ينتهي زمن الامتحان.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وصف العذاب بالألم؛ لأنهم سيذوقون الحقيقة لا يعرفونها خبرًا. في الدنيا كانوا يسمعون الوعيد، لكن المسافة بينهم وبينه سمحت للغفلة أن تخفف وقعه. أما هناك فتزول المسافة، ويصير الخبر واقعًا محيطًا بهم.

الآية السابعة والثلاثون

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا﴾.

الإرادة هنا حاضرة، لكنها جاءت بعد زمن الاختيار. في الدنيا كانت إرادتهم قادرةً على أن تقودهم إلى التوبة، لكنهم أضاعوها في الشهوات والعناد. وفي الآخرة تبقى الرغبة، ويسقط أثرها.

إن قيمة الإرادة ليست في قوتها وحدها، بل في توقيتها. كم من إنسانٍ قال: سأعود يومًا، سأصلح الأمر لاحقًا، سأعتذر حين تهدأ الظروف. ثم مضى الوقت، وبقيت الإرادة نيةً لم تولد.

الحياة هي المدة التي تتحول فيها الإرادة إلى عمل. أما بعد الموت، فقد تنتفض النفس بأقوى رغبةٍ في الرجوع، ولكن الزمن الذي كانت فيه الرغبة قادرةً على صنع المصير قد انقضى.

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾.

تأتي الجملة قاطعةً لأمل الخروج لمن مات على الكفر. والتعبير بالاسمية والتوكيد يرسخ معنى الاستمرار. لقد أرادوا الانفصال عن أمر الله في الدنيا، فصاروا عاجزين عن الانفصال عن جزاء اختيارهم في الآخرة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

مقيمٌ لا يرتحل. في الدنيا مهما طال الألم، يخفف منه علم الإنسان أن له نهاية؛ الليل يمضي، والحمى تنكسر، والحزن يتبدل. أما العذاب المقيم فهوله في أنه لا يحمل وعد الصباح.

ولهذا ليست آيات النار مادةً للحديث البارد، بل جرس إنقاذٍ يهز القلب وهو ما يزال قادرًا على تغيير الطريق. من قرأها ولم يسأل نفسه: كيف أنجو؟ فقد حوّل النذارة إلى معلومة، وهي إنما نزلت لتكون حركة.

الآية الثامنة والثلاثون

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

من مشهد من يريد أن يفتدي نفسه بكل خزائن الأرض، تعود السورة إلى من يمد يده في الدنيا إلى مال غيره.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾.

ذكر الرجل والمرأة لأن المسؤولية الأخلاقية لا تسقط باختلاف الجنس؛ فكل واحد منهما مكلف، وله إرادة، ويحاسب على فعله. وليس الحكم لكل أخذٍ للمال، بل للسرقة المستوفية شروطها المعتبرة: من أخذ مالًا محترمًا بلغ نصابًا من حرزٍ على وجه الخفية، مع انتفاء الشبهة والضرورة وسائر الموانع التي بسطها الفقهاء.

ولهذا كانت إقامة الحد من اختصاص القضاء والسلطة، بعد تحقق صارم؛ لا يملك فردٌ ولا جماعة أن ينفذه. فالحدود أحكام عدل، وإذا اختُطفت من القضاء تحولت إلى أدوات عدوان.

﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

جاءت العقوبة شديدةً لأن السرقة ليست نقل مالٍ فقط، بل اعتداءٌ على الأمن الذي يجعل الإنسان مطمئنًا إلى ثمرة عمله. فإذا عاش الناس وهم يتوقعون أن تمتد الأيدي إلى بيوتهم وأموالهم، تعطلت الثقة، وانتشر الخوف، وصار كل بيتٍ سجنًا يحرسه صاحبه.

غير أن الشريعة لا تنظر إلى العقوبة وحدها؛ فهي تأمر بإقامة العدل الاجتماعي والزكاة والنفقة وحقوق الفقراء، وتحرم الاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل. فلا يصح أن يُترك الضعفاء للجوع، وتُنهب أموال الأمة بطرقٍ محمية، ثم يُستدعى الحد على فقيرٍ لم تُستوفَ في حقه شروطه.

والتاريخ الفقهي نفسه يعرف أثر الشبهة والضرورة في درء الحد. فالعدل القرآني لا يبدأ من يد السارق فقط؛ بل ينظر إلى المجتمع الذي حوله، وإلى المال المسروق، وكيف حُفظ، وما الدافع، وهل اكتملت البينة، وهل انتفت الشبهة.

﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾.

نسب الكسب إليهما؛ لأن العقوبة ليست تعذيبًا بلا سبب، بل نتيجة فعلٍ اختاراه. واليد التي كانت أداة الجريمة صارت موضع العقوبة، في تناسبٍ يجعل الجزاء شاهدًا على طبيعة الاعتداء.

﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾.

النكال عقوبة تردع صاحبها وغيره عن تكرار الجريمة. فالعقوبة لا تنظر إلى الماضي وحده، بل تحمي المستقبل؛ تريد أن توقف سلسلة الاعتداء قبل أن تصبح السرقة نظامًا يلتهم المجتمع.

وقد يكون الردع باليقين في تنفيذ القانون العادل أعظم من كثرة العقوبات. فحين تطبق الأحكام بلا محاباة، يعرف القوي والضعيف أن المال مصون. أما إذا قُطع الضعيف وغُض الطرف عن نهب القوي، فذلك ظلمٌ باسم العدل، والشريعة منه بريئة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

عزيزٌ لا تُغلب شريعته ولا يحتاج حكمه إلى رضا أصحاب الأهواء، وحكيمٌ يضع العقوبة في موضعها وبقدرها. واقتران العزة بالحكمة يمنع فهم القوة على أنها بطش؛ فقوة الله كاملةٌ يحكمها كمال الحكمة.

وكل تطبيقٍ يزعم الانتساب إلى حكم الله ثم يفارق الحكمة والعدل والتحقق، فقد أخذ من الآية ظاهر القوة وترك نورها.

الآية التاسعة والثلاثون

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ما إن ذُكرت العقوبة حتى عاد باب التوبة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾.

سمّت الآية السرقة ظلمًا؛ فهي ظلمٌ للمسروق، وظلمٌ للمجتمع، وظلم السارق لنفسه حين يعرضها للعقوبة ويغذيها بالحرام.

لكن قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ يحمل رجاءً: يمكن أن تكون للظلم «بعد». ليس الماضي سجنًا بلا باب، ولا الذنب زمنًا أبديًّا. يستطيع الإنسان أن يضع نقطةً بعد مرحلة السقوط، ثم يبدأ سطرًا آخر.

﴿وَأَصْلَحَ﴾.

لم تكتف الآية بكلمة التوبة؛ لأن التوبة الصادقة لا تكون شعورًا داخليًّا فقط، بل إصلاحًا لما أفسده الإنسان بحسب استطاعته. يرد المال، أو يستحل صاحبه، ويقطع أسباب الجريمة، ويعيد تربية نفسه، ويثبت بسلوكه أن الندم قد صار طريقًا.

الإصلاح هو برهان التوبة. قد يقول المرء: ندمت، لكنه يظل ممسكًا بثمرة ظلمه؛ فأي توبةٍ لا ترد الحق إلى صاحبه؟ إن الدموع التي تسيل في المحراب لا تغني عن الدرهم الذي يجب أن يعود إلى يد المظلوم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾.

توبة العبد رجوعٌ إلى الله، وتوبة الله عليه قبولٌ ورحمة وتوفيق. يا لكرم الله! العبد هو الذي ابتعد، ثم إذا عاد لم يعامله ربه كغريبٍ ثقيل، بل تاب عليه.

وقد تقام العقوبة الدنيوية إذا ثبت موجبها لدى القضاء، وتبقى التوبة نافعةً لصاحبها عند الله؛ إذ طهارة القلب بابٌ غير باب الإجراءات القضائية. وفي

تفاصيل أثر التوبة على الحد خلافٌ فقهي يُرجع فيه إلى أهل العلم والقضاء، لا إلى الأحكام الفردية.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تكرر الاسمان بعد آية الحرابة، ويتكرران هنا بعد السرقة؛ كأن السورة تريد أن تمنع العقوبات من أن تصنع فينا تصورًا قاسيًا عن الله. الذي شرع الحد هو الغفور الرحيم، وفتح التوبة قبل الجريمة وبعدها.

إن الله لا يحب الجريمة، لكنه لا يكره رجوع المجرم. يكره الظلم، ويفرح بتوبة الظالم إذا صدق وأصلح. والناس قد يقولون للتائب: لن ننسى ما كنت، أما رحمة الله فتقول له: أرني ما صرت.

الآية الأربعون

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد الحكم والعقوبة والتوبة، تأتي الآية لترد الأمر كله إلى صاحب الملك:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾.

السؤال ليس طلبًا لمعلومة مجهولة، بل تقريرٌ يوقظ اليقين: ألا تعلم علمًا ينعكس على قلبك أن الملك كله لله؟ قد يعرف الإنسان ذلك بلسانه، لكنه يعيش كأن أجزاءً من الكون خرجت من سلطان ربه.

﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

له وحده الملك الحقيقي. ملك البشر استعارةٌ مؤقتة: يملكون الورقة ولا يملكون بقاءها، يملكون البيت ولا يملكون منع الموت من دخوله، يملكون السلطان ولا يملكون استمرار نبضة واحدة في قلوبهم.

والله يملك المكان وما فيه، والزمان وما يجري خلاله، والقوانين التي تحكمه. ولذلك كان له وحده حق التشريع النهائي؛ فالذي خلق الإنسان ويملك مصيره أعلم بما يصلحه.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

مشيئة الله ليست فوضى ولا محاباة، بل تجري على علمٍ كامل وعدلٍ كامل وحكمةٍ كاملة. يعذب من استحق العذاب، ويغفر لمن شاء بمقتضى فضله وحكمته، ولا يظلم ربك أحدًا.

واللافت تقديم العذاب هنا على المغفرة، بعد سياق الحدود والجرائم، مع أن مواضع أخرى تقدم المغفرة؛ ليلائم الترتيب مقام التحذير. لكن المغفرة حاضرةٌ بجواره، فلا يتحول الخوف إلى قنوط.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قادرٌ على أخذ الظالم وإن ظن نفسه بعيدًا، وقادرٌ على تطهير المذنب وإن ظن أن قلبه لا يُصلح، وقادرٌ على رد الحقوق يوم القيامة إذا عجزت محاكم الأرض.

وفي الآية عزاءٌ للمظلوم: إن أفلت سارقٌ من القانون، فلم يفلت من الملك. وفيها تحذيرٌ للمتسلط: ما تملكه يقع داخل ملك من يستطيع نزعه. وفيها رجاءٌ

للتائب: الذي قدر على إقامة العدل قادرٌ على أن يخلق في قلبك بعد الفساد صلاحًا.

وهكذا انتظمت الآيات في مسارٍ واحد: ابتغاء الوسيلة يقرب الإنسان من الله، والجهاد يحرره من استسلامه، والآخرة تكشف ضآلة أموال الأرض، والحد يحمي أموال الناس، والتوبة تصلح ما أفسد الذنب، ثم يأتي الملك الإلهي في النهاية سقفًا يحيط بالمشهد كله.

فالعبد يسير إلى الله في ملك الله، ويطيعه بقوةٍ منحها الله، ويرجو مغفرة الله، ويقف آخر الأمر بين يدي الله. وما بين أول الخطوة وآخر المصير، ليس له ملجأٌ من الله إلا إليه.

الفصل الحادي عشر

لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

حين يمرض القلب، ويُشترى الحكم، ويصبح الكتاب أمانةً في أعناق العلماء

الآية الحادية والأربعون

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

يخاطب الله نبيه ﷺ بوصف الرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

كأن اللقب نفسه عزاءٌ وتثبيت: أنت رسول، ومهمتك البلاغ والبيان، وليست إليك قلوب الناس لتجبرها على الإيمان. وقد يحزن صاحب الرسالة حين يرى الوضوح أمام الناس ثم يختارون العتمة؛ لأن الصادق يظن أن ظهور الحق كافٍ لاتباعه، ثم يكتشف أن بين الإنسان والحقيقة مصالح وأهواءً وأمراضًا لا تُزال بالدليل وحده.

﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

لم يقل: يمشون، بل ﴿يُسَارِعُونَ﴾. كأن الكفر ميدانٌ يتسابقون إليه، لا هاويةٌ يترددون عندها. والمسارعة تكشف رغبةً داخلية واستعدادًا؛ فما إن تظهر شبهةٌ أو فتنة حتى يندفعوا نحوها، لأن القلب كان ينتظر ما يبرر ما اختاره.

وفي النهي عن الحزن رحمةٌ بالنبي ﷺ وحمايةٌ لكل وارثٍ لدعوته. الحزن الطبيعي لا يُلام عليه الإنسان، لكن لا ينبغي أن يتحول إلى نارٍ تأكل قدرته على الاستمرار. فلا تُهلك نفسك لأن آخرين اختاروا الطريق الخطأ بعد أن بينته لهم؛ ازرع النور، واترك لله شأن القلوب.

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾.

هذه هي مأساة الانقسام الداخلي: الفم في جهة، والقلب في جهة أخرى. قالوا بأفواههم ما لم يعبر عتبة القلب، فصار الإيمان عندهم صوتًا اجتماعيًّا لا حقيقةً باطنة.

والقرآن لا يقول إن كل تقصيرٍ يجعل صاحبه منافقًا؛ فالمؤمن يضعف ويذنب ويبقى في قلبه أصل الإيمان. إنما يكشف هنا حال من أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. ومع ذلك يبقى المشهد تحذيرًا لكل مؤمن: لا تسمح للمسافة بين قولك وقلبك أن تتسع؛ لأن الشق الصغير إذا تُرك قد يصير انقسامًا كاملًا.

قد يقول اللسان: الله أكبر، بينما يملأ الخوف من الناس القلب حتى يكونوا فيه أكبر. ويقول: إياك نعبد، ثم تتوزع إرادته بين سادة المال والسمعة والشهوة. ليست النجاة بترديد الكلمات فقط، بل بأن تستعيد الكلمات سلطانها على الداخل.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

الآية تتحدث عن طوائف موصوفة بهذه الصفات، ولا تسوّغ تعميمها على كل يهودي في كل زمان. والقرآن نفسه يستثني ويعدل ويفرق بين الناس، فلا يحمل فردًا ذنب غيره.

و﴿سَمَّاعُونَ﴾ صيغة مبالغة؛ أي شديدو الاستماع والقبول للكذب. ليست المشكلة أنهم سمعوا كذبةً عرضًا، بل أنهم هيّؤوا آذانهم لها، يطلبونها لأنها تخدم ما يريدون.

فالإنسان لا يسمع بأذنه وحدها؛ يسمع برغبته أيضًا. قد تمر عليه الحقيقة ثقيلةً فلا تكاد تدخل، وتأتيه الإشاعة التي توافق هواه فيفتح لها أبواب نفسه كلها. وهكذا يصبح السامع شريكًا في صناعة الكذب؛ لأن سوق الأخبار الزائفة لا تقوم بالكاذب وحده، بل بالجمهور الذي يشتهي بضاعته.

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾.

أي يسمعون لينقلوا إلى آخرين غائبين، أو يقبلون كلام قومٍ لم يحضروا مجلس النبي ﷺ. إنهم وسطاء لا يبحثون عن الهدى، بل يحملون الكلام لخدمة غرضٍ مرسوم مسبقًا.

وقد يجلس الإنسان أمام العالم لا ليسأله، بل ليلتقط منه عبارةً يستخدمها خارج سياقها. يدخل مجلس العلم رسولًا لهواه، لا طالبًا للحق. يسمع ما يمكن توظيفه، ويترك ما يصحح تصوره.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.

يزحزحون الكلام عن موضعه بعد أن استقر فيه وظهر حكمه. والتحريف ليس دائمًا تغيير الحروف؛ قد يكون بانتزاع الجملة من سياقها، أو إخفاء قيدها، أو إسقاط شرطها، أو نقلها إلى واقعةٍ لا تنطبق عليها.

وكم من كلمةٍ صحيحة تحولت إلى باطلٍ لأنها وُضعت في غير موضعها! الرحمة في غير موضعها قد تصير تمكينًا للمجرم، والقوة في غير موضعها تصير بطشًا، والطاعة إذا نُزعت من قيودها تصير عبوديةً للطغيان، والحرية إذا فُصلت عن المسؤولية تصير فوضى.

البلاغة ليست أن تقول القول الجميل فقط، بل أن تضع الحق في موضعه؛ والتحريف أن تنقل الحجر من مكانه في البناء، فيبدو الحجر نفسه صحيحًا، لكن الجدار كله يختل.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

جاؤوا إلى الحكم لا ليخضعوا له، بل ليمتحنوا مدى موافقته لرغبتهم. إذا أعطاهم النبي ﷺ الحكم الذي يريدونه أخذوه، وإن جاء بخلافه حذروا ورفضوا.

وهذا قلبٌ لمنهج العبودية: المؤمن يسأل عن حكم الله ليغير نفسه، وهؤلاء يسألون ليبحثوا عن فتوى لا تغيّرهم. لقد اتخذوا الحقيقة متجرًا؛ يتنقلون بين الأبواب حتى يجدوا الحكم الأرخص على هواهم.

وما أكثر من يفعل ذلك في كل زمان: يسأل عالمًا بعد عالم، لا طلبًا للأعلم والأورع، بل بحثًا عمن يمنح رغبته غطاءً شرعيًّا. فإذا سمع الفتوى التي يريد، قال: وجدت الحق؛ والحقيقة أنه وجد صوت نفسه صادرًا من فم غيره.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي من قضى الله بعدله أن يضل بسبب إعراضه وإصراره، فلن تستطيع دفع حكم الله عنه. فالهداية فضل، والفتنة جزاءٌ لمن اختار أسبابها حتى استحق أن يُوكل إلى هواه.

ولا يُفهم من الآية أن الإنسان يُفتن بلا سبب ثم يعاقب ظلمًا؛ تعالى الله عن ذلك. إنما يبين القرآن أن الإعراض المتكرر قد يبلغ بصاحبه حالًا تُغلق فيها منافذ القلب جزاءً وفاقًا.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

الطهارة الحقيقية تبدأ من القلب. وقد يغسل الإنسان يديه من أثر الجريمة، ولا يغسل قلبه من حبها. ويتقن المظهر الديني، بينما يعيش الداخل على الكذب والتحريف.

ولم يُحرموا الطهارة اعتباطًا؛ بل لأنهم لم يسلكوا سبيلها، واستحبوا سماع الكذب على سماع الحق. فمن أعرض عن الماء لا يلومن إلا نفسه إذا بقي عليه الدنس.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الخزي ثمرة انكشاف التناقض. فقد يبني المخادع لنفسه صورةً عالية، لكن الكذب يحمل في داخله ساعة سقوطه. وفي الآخرة لا يكون الانكشاف أمام الناس فحسب، بل أمام الله الذي يعلم السرائر.

الآية الثانية والأربعون

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

جمع القرآن بين الأذن والبطن: أذنٌ تلتهم الكذب، وبطنٌ تلتهم الحرام. فالفساد يدخل الإنسان من منافذ متعددة، لكن منابعها تلتقي في قلبٍ لا يخشى الله.

والسحت هو المال الحرام الذي يستأصل البركة، ومن أظهر صوره الرشوة. سُمي سحتًا لأنه يسحت الدين والمروءة، ويستأصل خير المال وإن بدا كثيرًا.

وقوله: ﴿أَكَّالُونَ﴾ صيغة مبالغة، تصور نهمًا لا يشبع. فالحرام لا يسد الجوع الداخلي؛ كلما أكل صاحبه ازداد طلبًا، لأن الذي يريد أن يملأه ليس المعدة، بل فراغ النفس.

قد يبدأ المرتشي بهديةٍ صغيرة، ثم يضعف الحاجز، فيصبح الحكم عنده سلعة. وحين يُشترى القرار، لا تضيع قضيةٌ واحدة فقط؛ ينهار إيمان المجتمع

بالعدل، ويعرف الفقير أن حقه بلا ثمن، ويعرف الغني أن كل بابٍ له مفتاح من المال.

والمفارقة أن آكل السحت يظن أنه زاد رزقه، وهو في الحقيقة يأكل من كرامته. يدخل المال بيته، وتخرج منه الطمأنينة؛ يشتري لأبنائه به طعامًا، لكنه يورثهم عالمًا لا يأمنون فيه حقًّا بلا رشوة.

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

كان للنبي ﷺ في ذلك السياق أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، ثم جاءت آيات الحكم بما أنزل الله وبيّن الفقهاء تفاصيل العلاقة بين هذه الأحكام. والمقصد البارز هنا أن مجيئهم إليه لا يمنحهم سلطانًا عليه، ولا يلزمه أن يدخل في لعبتهم التي يطلبون فيها حكمًا موافقًا لهواهم.

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾.

من استند إلى الله لا تهزه مؤامرة طالبي الباطل. قد يهددون السمعة، أو يحاولون صنع الضغط، لكن الضرر لا يقع استقلالًا عن قدر الله. وليس المعنى ترك الحذر، بل تحرير القلب من المبالغة في تقدير قوة المتلاعبين.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾.

لم يقل: إن حكمت بينهم فانتصر لنفسك ممن كذبوا عليك، بل أمر بالقسط. حتى من جاء يريد استغلال القضاء يستحق حكمًا عادلًا. فساد نيته لا يبيح فساد حكمك، وكذبه لا يمنحك حق الظلم.

هذا هو العدل الذي لا يستمد طهارته من أطراف القضية، بل من الله. القاضي العادل لا يسأل: هل أحب هؤلاء؟ بل: ما الحق الذي أُمرت أن أقيمه فيهم؟

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

المقسط هو العادل، بخلاف القاسط الذي يجور. ويا لها من منزلة: محبة الله في مجلس القضاء! قد تكون كلمة الحكم جافةً في ظاهرها، لكنها عند الله عبادةٌ عظيمة إذا ردت حقًّا ومنعت ظلمًا.

والعدل لا يقتصر على القضاة؛ كل إنسانٍ يقضي في مساحةٍ ما: أبٌ بين أبنائه، ومديرٌ بين موظفيه، وكاتبٌ بين خصمين، وصديقٌ يسمع روايتين. وفي كل مرةٍ تميل فيها الموازين، تسأل الآية قلبك: أتريد راحة الانحياز، أم محبة الله للمقسطين؟

الآية الثالثة والأربعون

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾.

سؤال استنكار يكشف التناقض. لم يأتوا إلى النبي ﷺ إيمانًا برسالته، ولا طلبًا مجردًا للحق؛ إنما ظنوا أنهم قد يجدون عنده حكمًا أخف مما يعرفونه في كتابهم.

﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾.

كانت التوراة التي أنزلها الله على موسى مشتملةً على هدىً وأحكام، ومنها الحكم الذي حاولوا الهروب منه. فمشكلتهم لم تكن فقدان النص، بل فقدان الطاعة.

وقد يعيش الكتاب بين الناس كما تعيش جوهرةٌ في بيتٍ لا يعرف أهله قيمتها. يكون عندهم، لكنهم لا يكونون عنده؛ يحملونه بأيديهم، ولا يحملهم في طريقه.

إن عبارة ﴿عِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ مؤلمةٌ في كل أمةٍ معها كتاب. قد يكون القرآن عندنا في المساجد والبيوت والهواتف، لكن السؤال الأشد: هل حكم تصوراتنا وأخلاقنا وخلافاتنا؟ قرب المصحف من اليد لا يعني قرب هدايته من القلب.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

لم يكتفوا بالإعراض عن كتابهم، بل جاؤوا إلى النبي ﷺ، ثم إذا لم يوافق حكمه هواهم تولوا عنه كذلك. إنهم لا يبحثون عن مرجع، بل عن نتيجة. وكل مرجعٍ يعطيهم النتيجة التي يريدون يقبلونه مؤقتًا، فإذا خالفهم تركوه.

وهذه عبادة الهوى في صورتها القانونية: لا يرفض الإنسان الحكم لأنه لم يثبت، بل لأنه لم يخدمه. يغيّر المرجع، لا لأن الحق انتقل، بل لأن المصلحة لم تجد فيه مأوى.

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

الإيمان الحقيقي يقتضي التسليم لحكم الله، لا التسوق بين الأحكام. ليس المؤمن من يرفع الكتاب حين يكون شاهدًا له، ثم يخفضه حين يشهد عليه.

إن أعظم اختبار لعلاقتك بالحق أن تكون أنت المتهم في ميزانه. هل تظل تحبه حين ينتزع منك امتيازًا؟ هل تقبله حين يعطي خصمك حقه؟ هناك يُعرف من يعبد الله ومن يعبد انتصاره.

الآية الرابعة والأربعون

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

بعد أن ذمت الآية السابقة الهروب من حكم التوراة، أثنت هنا على أصلها المنزل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

الإسلام لا يبني موقفه على إنكار أصل الكتب السابقة، بل يؤمن بأن الله أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى. وما وقع من تحريفٍ وكتمان لا يغير حقيقة المصدر الأول.

﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

الهدى يدل على الطريق، والنور يكشف معالمه. قد تعرف الاتجاه ولا ترى العوائق، وقد ترى الأشياء ولا تعرف إلى أين تتجه؛ فجاء الوحي بالهداية والرؤية معًا.

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾.

كل الأنبياء مسلمون بالمعنى العام: مستسلمون لله، موحدون له، منقادون لأمره. اختلفت بعض شرائعهم، لكن أصل دينهم واحد. لم يكن موسى صاحب مشروعٍ منفصل عن إبراهيم وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ بل كانوا أنهارًا من الوحي خرجت من مصدرٍ واحد.

ووصف النبيين بأنهم ﴿أَسْلَمُوا﴾ يبين أن أعظم الناس منزلةً أكثرهم تسليمًا لله. النبوة لم تجعلهم شركاء في السلطان، بل جعلتهم أكمل الخلق عبودية.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

الربانيون أهل العلم والعمل والتربية، والأحبار العلماء. فبعد الأنبياء تأتي مسؤولية العلماء؛ يحملون الكتاب، ويبينون أحكامه، ويحفظون صلته بحياة الناس.

لكن العالم الرباني لا يكتفي بجمع المعلومات؛ ينسب الناس إلى ربهم، ويربيهم بصغار العلم قبل كباره، ويجعل من معرفته عبودية. وقد يكون الإنسان واسع الحفظ، لكنه ليس ربانيًّا؛ لأن العلم تضخم في ذهنه ولم ينزل إلى خُلُقه.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أي استُؤمنوا عليه وطُلب منهم حفظه. وفي صيغة الاستحفاظ ثقل الأمانة: الكتاب ليس ملكًا للعالم يغيّر فيه كما يريد، بل وديعةٌ عنده. وظيفته أن يحفظ النص من التحريف، والمعنى من التلاعب، والحكم من البيع.

كل عالمٍ يقف بين الوحي والناس أمين. فإن نقل الحق كما أنزل، كان جسرًا إلى النور؛ وإن أخفى ما يخالف مصلحةً أو سلطانًا، صار جدارًا يحجب الناس عن الكتاب.

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

الشاهد يرى ويعلم ثم يؤدي ما علم. والعلماء شهداء على الكتاب: يشهدون بصحته، ويحفظونه، ويقيمون أحكامه، ويمنعون الأيدي من العبث به. والشهادة تقتضي الحضور الأخلاقي، لا مجرد المعرفة؛ فمن كتم ما يعلم فقد خان مقام الشاهد.

ثم تأتي وصيتان تحرسان العالم من أكبر أبواب السقوط: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

الخوف أول مشترٍ لصمت العلماء. قد يعرف العالم الحكم، لكنه ينظر إلى سلطانٍ يستطيع إيذاءه، أو جمهورٍ يستطيع هجره، أو جماعةٍ تستطيع تشويه اسمه؛ فيبدأ بتخفيف العبارة، ثم إخفاء جزءٍ من الحق، ثم تبرير الباطل.

ولا يطلب القرآن من العالم أن يكون متهورًا لا يقدّر المصالح والمفاسد؛ فالحكمة واجبة. لكن الفرق عظيمٌ بين حكمةٍ تختار الوقت والعبارة لنصرة الحق، وخوفٍ يستخدم اسم الحكمة لدفن الحق.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

المال ثاني المشترين، ويدخل في الثمن كل منفعةٍ دنيوية: مالٌ، ومنصب، وقربٌ من سلطان، وشهرة، ورضا جمهور. وكل ثمنٍ يؤخذ مقابل كتمان آيةٍ قليل، ولو كان ملك الدنيا؛ لأنه يُشترى به ما لا يعوض.

البيع هنا خاسرٌ من جهتين: باع الإنسان كلام الله، وأخذ شيئًا فانٍ. كمن باع نجمًا بقطعة زجاج، ثم فرح بلمعانها القصير.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

آيةٌ عظيمة شديدة، يجب فهمها بعلمٍ وجمعٍ للنصوص، لا بأهواء التكفير المتعجل. فترك الحكم بما أنزل الله قد يكون كفرًا أكبر إذا جحد الحاكم حكم الله، أو استحله، أو اعتقد حكم غيره خيرًا أو مساويًا له، وقد يكون كفرًا أصغر وظلمًا وفسقًا إذا حكم في واقعةٍ بغير ما أنزل الله مع إقراره بوجوب حكم الله، حمله الهوى أو الرشوة أو العصبية؛ بحسب التفصيل الذي قرره أهل السنة والعلماء.

ولا يجوز تنزيل أحكام التكفير على المعيّنين بغير علمٍ ولا تحققٍ للشروط وانتفاء الموانع. فالتكفير حكم شرعي خطير، وليس سلاحًا في الخصومات السياسية أو المذهبية. كم من دمٍ أُريق لأن جاهلًا قرأ آيةً عظيمة بلا علم، ثم جعل نفسه قاضيًا على قلوب الناس!

ومع هذا الاحتراز، لا ينبغي أن تُفرغ الآية من رهبتها. الحكم بما أنزل الله من صميم العبودية؛ لأن التشريع حق من حقوق الربوبية. ومن عرف أن الله أحكم الحاكمين، ثم جعل هواه فوق حكمه، فقد عرض إيمانه لخطر عظيم.

إن الحكم بما أنزل الله لا يبدأ في قصر الحاكم فقط؛ يبدأ في داخل الإنسان. حين يقع خلافٌ بينك وبين من تحب، أيحكم الهوى أم الوحي؟ وحين يعرض عليك مالٌ مشبوه، أيصدر القرار عن الحاجة أم عن حكم الله؟ كل قلبٍ فيه محكمة، وكل شهوةٍ تتقدم بمرافعتها، والإيمان أن يبقى الحكم لله.

وهكذا تختم الآية مسؤولية الكتاب بثلاث حراسات: ألا يخاف حامله الناس، وألا يبيع آياته، وألا يعطل حكمه. فإذا انهارت هذه الحراسات، بقيت صفحات الكتاب محفوظةً في الخزائن، وضاع سلطانه من الحياة.

وما أحوج العلماء وحملة القرآن إلى أن يقفوا طويلًا عند قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾. فالكتاب أمانة، ومن حمل الأمانة لم يعد حرًّا أن يقول ما يشاء؛ صار مؤتمنًا أن يقول ما أراد الله، بعلمٍ وعدلٍ ورحمة، ولو خالفه الناس، ولو قلّ الثمن المعروض أو كثر.

الفصل الثاني عشر

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّه

من عدالة القصاص إلى اكتمال المرجعية، ومن اختلاف الشرائع إلى السباق في الخيرات

الآية الخامسة والأربعون

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

بعد أن وصف الله التوراة بأن فيها هدىً ونورًا، يورد نموذجًا من أحكامها:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾؛ أي فرضنا على بني إسرائيل في التوراة قانون القصاص، ليقف العدوان عند حد، ولا يتحول الدم الأول إلى أنهارٍ من الثأر.

﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

في الجاهليات القديمة لم تكن الأنفس متساويةً في الميزان؛ قد يُقتل فردٌ من قبيلة قوية، فتطلب القبيلة مقابله رجالًا من الضعفاء، وقد يُقتل السيد فلا يرون العبد مكافئًا له في الإنسانية. فجاء الوحي ليكسر تضخم العصبية: النفس بالنفس، لا القبيلة بالقبيلة، ولا الجماعة بالفرد.

القصاص ليس تشريعًا للانتقام، بل تقييدٌ له. النفس المجروحة تريد أحيانًا أن توسع العقوبة حتى تتجاوز الجاني إلى أهله وقومه، فيأتي العدل فيحصر المسؤولية في مرتكبها، ويضع الجزاء بقدر الجناية.

﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾.

تفصيلٌ دقيق يمنع الغضب من أن يبتلع الحدود. ليس عضو الغني أعظم حرمةً من عضو الفقير، ولا عين القوي أكثر إنسانيةً من عين الضعيف. الأجساد أمام العدل تتجرد من الألقاب.

ولكن تطبيق القصاص في الأعضاء والجراح له شروط إمكان المماثلة والأمن من الحيف، وتفاصيله إلى القضاء وأهل الاختصاص. فليس النص رخصةً للأفراد أن يقتصوا بأيديهم، لأن الغضب لا يحسن قياس الجراح، وقد يبدأ طالبًا للمساواة وينتهي معتديًا.

﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

جاءت العبارة جامعةً بعد التفصيل؛ فالجراح لها حرمة، والجسد ليس ساحةً مباحةً للبطش. وكل ضربةٍ يستخف بها المعتدي مكتوبة في ميزانٍ لا يستخف بشيء.

لكن بعد أن ثبت الحق كاملًا، فتح القرآن بابًا أعلى من استيفائه: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.

سمّى العفو عن القصاص صدقةً؛ لأن صاحب الحق يملك شيئًا معتبرًا ثم يتنازل عنه ابتغاء وجه الله. وليس العفو واجبًا على المجني عليه، فلا يجوز

للمجتمع أن يضغط عليه باسم الفضيلة حتى يسقط حقه كرهًا. العفو إحسانٌ حين يصدر من قدرة ورضا، أما حين يُنتزع من الضعيف لحماية القوي فليس عفوًا، بل ظلمٌ جديد.

وقوله: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قيل: للمجني عليه العافي؛ يكفر الله عنه بعفوه، وقيل: للجاني إذا عفا عنه صاحب الحق. والمعنى الأول هو الأشهر عند طائفة من المفسرين، واللفظ يفتح أمام القلب مشهدًا عظيمًا: جرحٌ في الجسد يصبح سببًا لمحو جراحٍ في الصحيفة حين يعفو صاحبه لله.

إن الصفح لا يرد العين التي ذهبت ولا يمحو الألم من الذاكرة، لكنه يستطيع أن يمنح الألم معنى. بدل أن يبقى الجرح بابًا إلى سلسلةٍ جديدة من الأذى، يتحول إلى قربانٍ يقدمه المظلوم طلبًا لمغفرة الله.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لأن تعطيل ميزان الله يضع الأشياء في غير مواضعها، وهذا هو الظلم. قد يكون الظلم بمحاباة القوي، أو بحرمان الضعيف من حقه، أو بمجاوزة القصاص قدر الجناية، أو بإهدار حق العفو حين يختاره صاحبه.

وقد جاءت في هذا السياق أوصاف ثلاثة لمن لم يحكم بما أنزل الله: الكافرون، والظالمون، والفاسقون. وتُفهم وفق حال الفاعل واعتقاده وفعله، كما قرر أهل العلم: فقد يجتمع فيه الوصف الأكبر إذا جحد حكم الله واستحله، وقد يكون ظلمه وفسقه دون الكفر الأكبر إذا عصى لهوىً مع إقراره بأصل الحكم. فلا تُتخذ الآيات مطايا للتكفير الفوضوي، ولا تُفرغ في الوقت نفسه من دلالتها على خطورة تنحية الوحي.

الآية السادسة والأربعون

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾.

أي أتبعنا النبيين السابقين بعيسى ابن مريم عليه السلام، يمشي على آثار النبوة لا خارجًا عنها. فالأنبياء ليسوا جزرًا متباعدة، بل قافلةٌ واحدة، يتبع اللاحق أثر السابق ويجدد أصل التوحيد.

ووصفه مرةً أخرى بأنه ﴿ابْنِ مَرْيَمَ﴾: تكريمٌ لأمه الطاهرة، وتثبيتٌ لبشريته، وهدمٌ للغلو فيه. هو المسيح العظيم، لكنه ابن مريم، عبدٌ لله ونبيّ.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

لم يأتِ عيسى عليه السلام ليهدم أصل رسالة موسى، بل مصدقًا لها، وإن نسخ الله بشريعته بعض الأحكام. فالوحي اللاحق يشهد للأصل الإلهي السابق، ويصحح ما أدخله البشر عليه.

وفي هذا درسٌ في العلاقة بالتراث: ليس التجديد قطعًا لكل ما سبق، ولا التقليد تجميدًا لكل ما وُرث. التجديد الحق يميز الوحي من الإضافات، ويحفظ الأصول ويعيد الروح إلى ما جمد.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾.

الإنجيل في التصور الإسلامي كتابٌ أنزله الله على عيسى، وليس كل ما نُسب لاحقًا إلى المسيح هو عين النص المنزل. والمسلم يؤمن بالإنجيل الذي أوحاه الله، كما يؤمن بالتوراة الأصلية، ويجعل القرآن المهيمن معيارًا فيما بقي أو نُقل.

﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

يتكرر الوصف الذي وُصفت به التوراة. فالمصدر واحد، والوظيفة واحدة: إخراج الإنسان من ظلام نفسه إلى معرفة ربه.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

تكرر التصديق ليترسخ معنى اتصال الرسالات، وليُرد على من يجعلون الأنبياء خصومًا. من آمن بموسى حقًّا كان إيمانه يدعوه إلى اتباع عيسى حين جاء بالبيّنة، ومن آمن بعيسى حقًّا قاده ذلك إلى اتباع محمد ﷺ حين جاءت بشارته وقامت حجته.

إن التعصب للنبي ضد النبي ليس وفاءً للأول، بل مخالفةٌ له؛ لأن كل رسولٍ دعا إلى طاعة الله واتباع رسله.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الموعظة كلامٌ يصل إلى القلب فيوقظه، لا يضيف إليه المعلومة وحدها. فقد يعرف الإنسان الحكم، لكنه يحتاج إلى ما يلين إرادته لتطيعه. العلم يرسم الطريق، والموعظة تدفع القلب إلى السير.

وخص المتقين بالانتفاع؛ لأن الموعظة كالمطر، لكنها لا تنبت في قلبٍ تحول إلى صخر. الذي يخشى الله يسمع التنبيه فيقول: لعل الخطاب يعنيني؛ والمتكبر يسمعه فيبحث عن شخصٍ آخر تنطبق عليه الموعظة.

الآية السابعة والأربعون

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾.

أي كان الواجب عليهم في زمن شريعتهم أن يحكموا بما أنزل الله، ومن حقيقة الحكم بما أنزل الله في الإنجيل اتباع ما بشّر به المسيح من الرسول الآتي، ثم الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته؛ لأن الوحي لا يطلب من أهله أن يتوقفوا عند مرحلةٍ بعد أن يأتي أمر الله بمرحلةٍ خاتمة.

فالوفاء بالكتاب السابق لا يكون برفض الكتاب الذي صدقه وهيمن عليه، كما أن الوفاء بالصبح لا يكون بإنكار طلوع النهار.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الفسق خروجٌ عن طاعة الله وحدوده. فالكتاب ليس أثرًا مقدسًا يُحتفى به في المواسم، بل حكمٌ يقيم حياة. وحين تفصل الأمة بين التلاوة والطاعة، تكون قد أبقت الصوت وأخرجت نفسها من سلطانه.

وتعود الأوصاف الثلاثة لتكوّن صورة الانحراف: كفرٌ حين يُجحد حق الله في الحكم أو يُستحل خلافه، وظلمٌ حين تضيع الحقوق، وفسقٌ حين يخرج

السلوك عن الطاعة. وقد تجتمع بحسب حال الإنسان، وقد يحمل بعضها معنى دون الكفر الأكبر؛ والتفصيل لأهل العلم.

الآية الثامنة والأربعون

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

ها هو القرآن يدخل المشهد بعد التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

مصدره حق، ومضمونه حق، وغاية إنزاله إقامة الحق. لم ينزل ليجامل عصرًا أو عرقًا، ولا ليكون صوتًا إضافيًّا في سوق الآراء؛ بل معيارًا يزنها.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

يصدق الأصول الإلهية في الكتب السابقة: التوحيد والنبوة واليوم الآخر ومكارم الأخلاق. فهو لا يبدأ تاريخ الإيمان من الصفر، بل يجمع خيوط الرسالات في خاتمتها.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

المهيمن هو الشاهد والمؤتمن والحاكم. فالقرآن يحفظ حقيقة الوحي السابق، ويشهد لما وافق أصله، ويكشف ما وقع من تحريف، ويكون المرجع النهائي بعد بعثة محمد ﷺ.

وهيمنة القرآن ليست استعلاء قومٍ على قوم، بل استعلاء الوحي المحفوظ على ما دخلته أيدي البشر. فلا يجوز للمسلم أن يحول هذا المقام إلى غرورٍ عرقي؛ إنما ينبغي أن يجعله أكثر خشوعًا أمام الأمانة. فالذي يحمل الكتاب المهيمن سيُسأل: هل جعله مهيمنًا على هواه أولًا؟

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

جاءت الفاء لتربط الهيمنة بالحكم: ما دام القرآن هو المرجع، فالحكم له. لا يكفي الاعتراف بقداسته مع تنحيته عند النزاع؛ فالاختبار الحقيقي للمرجعية يبدأ حين تتعارض مع المصالح.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

سمى ما يخالف الحق أهواءً؛ لأنها آراء تنبع من الميل لا من الدليل. والهوى لا يأتي إلى الحاكم دائمًا باسمه، بل يأتي في صورة ضغطٍ سياسي، أو مصلحةٍ عاجلة، أو خوفٍ من خسارة التأييد، أو دعوى مراعاة الواقع.

وقد يخدع الهوى الإنسان فيوهمه أنه لا يترك الحق، وإنما «يؤجله قليلًا». ثم يصبح التأجيل عادة، ويتحول الحكم إلى ذكرى جميلة لا سلطان لها. لذلك كان النهي مباشرًا: لا تتبع أهواءهم منحرفًا عما جاءك.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

الشرعة هي الشريعة والطريق إلى الماء، والمنهاج الطريق الواضح. جعل الله للأمم من أتباع الرسل شرائع في الفروع تناسب أحوالها وأزمنتها، مع

وحدة أصل الدين في التوحيد والاستسلام لله. ثم ختم الشرائع بشريعة محمد ﷺ العامة الباقية إلى قيام الساعة.

واختلاف بعض الشرائع لا يعني تناقض المصدر، بل تنوع الأحكام بحكمة المشرّع. الطبيب الواحد قد يصف علاجًا في مرحلة، ثم يصف غيره في مرحلة أخرى، لا لتناقض علمه، بل لاختلاف الحال؛ ولله المثل الأعلى.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

لو شاء لجمع الناس على شريعةٍ واحدة في جميع العصور، أو ألجأهم جميعًا إلى الإيمان، لكنه جعل الحياة ميدان اختيارٍ وابتلاء. والمشيئة الكونية في وقوع الاختلاف لا تعني رضا الله بكل ما يختاره المختلفون؛ فقد أراد كونًا وجود الكفر ابتلاءً، ونهى عنه شرعًا.

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

السؤال ليس فقط: ماذا أُعطيت؟ بل: ماذا فعلت بما أُعطيت؟ لأهل التوراة امتحانهم، ولأهل الإنجيل امتحانهم، ولأمة القرآن امتحانها الأعظم في حفظ الكتاب والعمل به وتبليغه.

وقد يكون العطاء نفسه امتحانًا أشد من الحرمان. العلم امتحان: هل تهدي به أم تتكبر؟ والمال امتحان: هل تعطي أم تحتكر؟ والسلطة امتحان: هل تعدل أم تطغى؟ والقرآن امتحان: هل تحمله أمانةً أم تجعله زينة هوية؟

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

لم يقل: استهلكوا أعماركم في خصوماتٍ لا تنتهي، بل تسابقوا في الخير. إن وجود الاختلاف لا ينبغي أن يحول الحياة إلى جدلٍ دائم يعطل العمل. سيحكم الله في الاختلاف، أما أنتم فاملؤوا الوقت بما ينفع.

والمسابقة غير السير؛ فيها شوق وسرعة ومبادرة. المؤمن لا ينتظر أن يُدفع إلى المعروف، بل يتلمس بابه. يرى حاجةً فيسبق إليها، ويرى مظلومًا فينصره، ويسمع نداء طاعة فيقول: لعل غيري يسبقني إلى الله.

وكم ضاع من طاقة الأمة في التنافس على الظهور، ولو تحول بعضه إلى استباق الخيرات لتغير وجه الأرض! نتنافس فيمن يُنسب إليه الإنجاز، لا في إنجاز الخير نفسه؛ ونريد أن يكون العمل بأسمائنا، ولو تأخر، أكثر من رغبتنا في أن يقع سريعًا على يد غيرنا.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

بعد تفرق الطرق البشرية، يجتمع الناس في مرجعٍ واحد. لا يستطيع فريقٌ أن يقيم يوم القيامة محكمته الخاصة، ولا أن يكتب النتيجة قبل الوصول. المرجع إلى الله جميعًا، الموافق والمخالف، القوي والضعيف.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

هناك يسقط الضجيج، ويأتي الخبر ممن يعلم الحقيقة كاملة. كثيرٌ من الاختلافات لا تنقصها الأصوات، بل ينقصها الحكم الذي لا يجهل ولا يظلم. وسيأتي يومٌ يتولى الله فيه بيان ما غطته العصبيات.

الآية التاسعة والأربعون

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

يتكرر الأمر بالحكم والنهي عن الهوى، والتكرار هنا حراسةٌ للمعنى من شدة الضغوط: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

الحاكم لا يخلق الحق من إرادته، بل يتلقاه وينفذه. وكل سلطةٍ بشرية تحتاج إلى سقفٍ فوقها، وإلا تحولت من أداة عدل إلى إلهٍ صغير يشرع لنفسه ما يشاء.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الأهواء جمع؛ لأنها متكاثرة متعارضة. لو اتبع الحاكم أهواء الناس، أرضى فريقًا وأغضب آخر، ثم احتاج في كل يومٍ إلى ميزانٍ جديد. أما الحق فواحد، لا تتغير استقامته بتبدل الجماهير.

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الخطر ليس دائمًا ترك الوحي كله؛ قد تبدأ الفتنة بـ﴿بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. يطلبون تنازلًا صغيرًا، وحكمًا واحدًا يؤجل، وقيمةً واحدة تُخفف. لكن البنية قد تبدأ انهيارها من حجرٍ واحد يُنزع في الموضع الحساس.

وقد يعرف المساوم أن مطالبتك بترك كل الحق ستُرفض، فيطلب جزءًا منه فقط. يقول: احتفظ بعقيدتك في قلبك، لكن لا تجعل لها أثرًا هنا؛ تحدث عن

الرحمة، واسكت عن العدل؛ تكلم عن الأخلاق، ولا تقترب من ميزان السلطة والمال.

وهكذا يتحول الدين بالتقسيط من منهج حياة إلى طقوسٍ لا تزعج باطلًا. لذلك جاء التحذير من بعض ما أنزل الله؛ لأن من رضي أن يبيع طرفًا من الميثاق قد يجد نفسه يومًا وقد خسر مركزه كله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾.

إن أعرضوا بعد البيان والحكم العادل، فلا تظن أن العيب في الحق لأنه لم يتبعوه. ليست شعبية الفكرة دليل صدقها، ولا إعراض الناس دليل بطلانها. قد يتولى الإنسان لأن الحكم أصاب موضع الهوى الذي يحميه.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

قد يكون الإعراض نفسه عقوبةً على ذنوبٍ سابقة؛ فالخطيئة لا تجلب ألمًا خارجيًّا فقط، بل قد تسلب صاحبها لذة الحق والقدرة على قبوله. وأقسى العقوبات أن يُترك الإنسان لما اختار، فلا يعود يرى قيده.

وقوله: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ مرعب؛ فإذا كان بعض الذنوب يكفي لعقوبةٍ كهذه، فكيف بما استتر وراءه؟ وفيه إشارة إلى سعة حلم الله؛ إذ لو يؤاخذ الناس بكل ذنوبهم عاجلًا ما ترك على ظهر الأرض من دابة.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

الكثرة لا تصنع الحق. قد يصبح الانحراف ثقافةً عامة، ويشعر المستقيم بالغربة، لكنه لا يغير اسم الفسق. الميزان لا ينتظر التصويت.

الآية الخمسون

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

تأتي الآية سؤالًا يهز القلب: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الجاهلية ليست زمنًا تاريخيًّا انتهى ببعثة الرسول ﷺ؛ إنها حالةٌ يعود إليها الإنسان كلما أبعد هداية الله عن الحكم، وجعل العصبية أو الهوى أو القوة مصدر الميزان.

قد ترتدي الجاهلية ثياب الحضارة، وتستخدم أحدث التقنيات، وتبني محاكم شاهقة؛ لكنها تبقى جاهليةً بقدر ما تجعل الحق تابعًا للمال أو العرق أو القوة. ليست الجاهلية أمية القراءة، بل أمية الهداية.

وحكم الجاهلية يحابي القبيلة، ويقسم الناس طبقات، ويمنح القوي قانونًا والضعيف قانونًا آخر. قد يُعاقب الصغير على سرقةٍ محدودة، ويُكافأ الكبير على نهب أمة؛ وقد تصبح الجريمة قانونية لأنها صدرت عن جهةٍ تملك كتابة القانون. وهذه هي الجاهلية حين تتعلم صياغة المواد ولا تتعلم الخضوع للعدل.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾.

سؤال لا يملك القلب المؤمن إلا أن يجيب عنه: لا أحد. ومن أعلم بالإنسان من خالقه؟ ومن أرحم به ممن وسعت رحمته كل شيء؟ ومن أعدل ممن حرّم الظلم على نفسه؟

أحكام البشر قد تصيب وتخطئ، وتتأثر بنقص المعرفة وضغط المصالح وحدود الزمان. أما حكم الله فصادرٌ عن علمٍ أحاط بالمعلن والمستور، وبالعاجل والآجل، وبالفرد والمجتمع، وبالجسد والروح.

لكن حسن حكم الله لا يظهر لمن ينظر بعين الهوى؛ ولذلك قال: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

اليقين هو الذي يجعل العبد يطمئن إلى حكم الله حتى إذا خفي عليه بعض وجه الحكمة. لا يعطل عقله، بل يستخدمه في الفهم والتنزيل، لكنه لا يجعل قصوره حاكمًا على كمال الله.

أما المتردد فينظر إلى الوحي بعين الارتياب، وإلى العصر بعين الانبهار؛ يطلب من حكم الله أن يثبت صلاحيته أمام محكمةٍ صنعت معاييرها أهواء البشر. والمؤمن يعكس القضية: يحاكم معايير العصر إلى نور الله، فما وافق الحق قبله، وما خالفه رده، مهما لمع اسمه.

إن اليقين لا يعني جمود الفقه أو إغلاق باب الاجتهاد؛ فتنزيل الأحكام على الوقائع يحتاج إلى علمٍ عميق وفهمٍ للمقاصد والواقع. لكنه يعني أن الاجتهاد حركةٌ داخل العبودية، لا محاولة للهروب منها، وأن العقل خادمٌ أمين للنص، لا خصمٌ ينازعه السيادة.

وهكذا تنتهي هذه الوحدة بسؤال المرجعية: من يحكم؟

فليست القضية نصًّا في كتاب فحسب، بل عرشًا في القلب. إما أن يجلس عليه حكم الله، وإما أن تتنازعه جاهليات كثيرة: جاهلية القبيلة، وجاهلية الحزب، وجاهلية السوق، وجاهلية الشهوة، وجاهلية القوة.

ومن أيقن بالله لم ير الخضوع لحكمه فقدانًا للحرية؛ بل رآه تحريرًا من أحكامٍ بشرية متقلبة، لكل واحدة منها سيدٌ ومصلحة وثمن. وحين يخرج الإنسان من حكم الهوى إلى حكم الله، لا ينتقل من الحرية إلى العبودية؛ بل ينتقل من عبودياتٍ متفرقة إلى العبودية الوحيدة التي تعيد إليه إنسانيته.

الفصل الثالث عشر

وَلَايَةُ الْقَلْبِ وَهُوِيَّةُ الْأُمَّة

حين يصنع الخوفُ ولاءاتٍ مريضة، ويأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه

الآية الحادية والخمسون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

بعد أن حسمت الآيات السابقة مرجعية الحكم، انتقلت إلى مرجعية الولاء؛ لأن الأمة لا تستطيع أن تحكم بما أنزل الله إذا كان قلبها مستسلمًا لقوىً تستمد منها عزتها وتعريفها لذاتها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

مرةً أخرى يُستدعى الإيمان قبل التكليف. فالولاء ليس ترتيبًا سياسيًّا خارجيًّا فقط؛ إنه حركة قلب، وشعور بالانتماء، ومصدر للثقة والنصرة. ولذلك كان ضبطه جزءًا من حقيقة الإيمان.

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾.

الولاية هنا ليست مطلق المعاملة الحسنة، ولا البر والقسط مع غير المحارب، ولا التجارة والجوار والتعاون في المعروف؛ فقد أباح القرآن طعام أهل الكتاب والمصاهرة منهم، وأمر بالعدل مع الجميع، وقال في غير المحاربين: ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾. إنما المنهي عنه ولاء النصرة والاندماج

والانحياز الذي يجعل المؤمن تابعًا لجماعاتٍ معادية لدينه وأمته، يسلّم لها سره ومصيره ويؤثرها على جماعة المؤمنين.

فالنص لا يصنع كراهيةً عمياء للأفراد، ولا يسوغ ظلم يهودي أو نصراني، بل يحرس استقلال الجماعة المؤمنة في سياق الصراع والمواثيق. والقرآن الذي نهى عن هذه الموالاة هو نفسه الذي قال قبل قليل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

وهذا التوازن دقيق: قد تعدل مع مخالفك دون أن تسلمه قيادك، وتحسن إليه دون أن تذوب في مشروعه، وتحفظ له إنسانيته وحقه دون أن تجعل رضاه معيارًا لهويتك. ليست القوة في العزلة المطلقة، وليست الرحمة في ذوبان الحدود.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

في سياق حماية مصالحهم الدينية والسياسية يتناصر بعضهم مع بعض. والآية تنبه المؤمنين إلى أن الجماعات الأخرى تعرف كيف تصون مصالحها، فلا يليق بالأمة أن تهدم وحدتها ثم تطلب عزتها ممن له مشروعه وانتماؤه.

وقد لا يكون الخطر في قوة الآخر وحدها، بل في فراغ الداخل. حين تفقد الأمة ثقتها بربها ورسالتها، تبدأ بالبحث عن مركزٍ خارجي يمنحها الاعتراف والأمن. تتحول من أمةٍ لها قبلة إلى هامشٍ يدور حول قبلة غيره.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

لأن الولاء العميق ينقل الإنسان شيئًا فشيئًا إلى الجهة التي منحها قلبه ونصرته. قد يبدأ الأمر بمصلحةٍ مؤقتة، ثم يصير إعجابًا، ثم دفاعًا دائمًا، ثم تبنيًا لمعايير الآخر، حتى يرى أمته بعين خصومها ويستحي من هويته أمامهم.

والإنسان يصير في المعنى مع من أحب نصرتهم على الحق، وذاب في مشروعهم ضد جماعة المؤمنين. أما العلاقات المدنية والعهود المشروعة والمصالح المتبادلة فلا تدخل بمجردها في هذا الوعيد؛ فقد عقد النبي ﷺ المعاهدات وتعامل مع غير المسلمين، وظل ميزان الولاء والعدل واضحًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

سمى هذه الموالاة ظلمًا؛ لأنها تضع الثقة والنصرة في غير موضعهما، وقد تفضي إلى إعانة المعتدي على المظلوم، أو بيع أمانة الجماعة طلبًا للأمن الشخصي.

ومن ظلم نفسه بأن جعل عزته عند غير الله، عوقب بأن يتيه فيمن استند إليهم؛ فلا يكون منهم حقًّا، ولا يبقى وفيًّا لأمته.

الآية الثانية والخمسون

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

تكشف الآية الدافع النفسي وراء الولاء المنحرف: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾.

لم تصف المشكلة بنقص المعلومات، بل بمرض القلب. والمرض حالةٌ بين الحياة والموت: القلب لم يمت تمامًا، لكنه فقد عافيته، وصار يتألم من التكاليف التي يجد فيها القلب السليم راحته.

ومن أمراضه الشك والنفاق والجبن وسوء الظن بالله. قد يملك صاحبه عقلًا سياسيًّا حادًّا، لكنه يحسب الواقع بقلبٍ مريض، فيضخم قوة الناس ويستصغر وعد الله.

﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾.

لا يكتفون بعلاقةٍ عابرة، بل يندفعون إلى الاندماج في ولائهم وطلب رضاهم. والمسارعة تكشف أن الخوف يدفعهم من الخلف؛ يريدون أن يحجزوا لأنفسهم مكانًا عند كل قوةٍ محتملة قبل أن تتغير الموازين.

هؤلاء لا يقفون مع المبدأ، بل مع الاحتمال الأقوى. يوزعون كلماتهم على الأطراف، ويتركون لكل جهةٍ بابًا، حتى إذا انتصرت واحدة قالوا: كنا معكم. إنهم لا يريدون النجاة بالحق، بل النجاة من الحق إذا صار مكلفًا.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.

الدائرة هي ما يدور من نوائب الدهر وتغير الغلبة. حجتهم تبدو واقعية: نخشى أن تنهزم جماعة المؤمنين، أو يصيبنا القحط والشدّة، فنحتاج إلى أولئك.

الخوف من المستقبل قد يجعل الإنسان يبيع حاضره الأخلاقي. يتخيل كارثةً لم تقع، ثم يرتكب اليوم خيانةً مؤكدةً ليتجنب غدًا مجهولًا. وبذلك يصبح الاحتمال سيدًا على المبدأ.

ليس المطلوب إلغاء التخطيط للمخاطر، فالحكمة تأخذ بالأسباب وتعقد العهود الجائزة وتحسن قراءة الموازين. إنما المذموم أن تتحول المخاوف إلى مبررٍ لتسليم الولاء، ونصرة الباطل، وسوء الظن بوعد الله.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾.

كل حساباتهم مبنيةٌ على ظاهر القوة، لكن في المعادلة أمرًا من عند الله لا يدخل جداولهم. قد يأتي الفتح، أو يأتي حدثٌ يبدل موازين المشهد من حيث لم يحتسبوا.

إن التاريخ ليس آلةً صماء تتحرك بالأرقام وحدها؛ تجري فيه سننٌ وأقدار، وقد تسقط قوةٌ بلغت ذروة بطشها بسبب عاملٍ لم تره، وتنهض أمةٌ ظنها الناس انتهت لأن في داخلها بذرة حياةٍ باركها الله.

﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

كانوا يخفون نواياهم خلف لغة المصلحة، فإذا جاء الفتح كشف الوقائع ما أخفوه. يندمون لا بالضرورة لأن قلوبهم طهرت، بل لأن رهانهم خسر.

وهناك ندمٌ أخلاقي يقول: خنتُ فأتوب، وندمٌ سياسي يقول: اخترتُ الفريق الخطأ. الأول بداية نجاة، والثاني قد يعيد صاحبه إلى النفاق نفسه في معسكرٍ جديد.

الآية الثالثة والخمسون

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

حين تنكشف الحقيقة، يقف المؤمنون مدهوشين: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

كانوا يبالغون في القسم ليغطوا ضعف الصدق. وكلما احتاج الإنسان إلى أيمانٍ أكثر لإثبات ولائه، كان ذلك أحيانًا علامةً على أن أفعاله لا تشهد له.

الصدق لا يحتاج دائمًا إلى صوتٍ مرتفع؛ يُعرف من الثبات حين تتغير الظروف. أما المنافق فيعوض هشاشة الموقف بكثافة اللغة، يملأ الفراغ بين قوله وقلبه بالأيمان.

﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

قالوا إنهم مع المؤمنين، لكن المعية لا تثبت بالكلمة في زمن الأمن؛ تظهر عند الخوف. قد يقف كثيرون حول الحق حين يكون غالبًا، ثم لا يبقى معه حين يدفعون ثمنًا.

والمبدأ الذي لا يصحبك في ساعة الخسارة ليس مبدأً، بل صفقة. والصديق الذي لا تعرفه إلا عند وفرة الطريق لم يكشف بعد عن موضعه.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

الحبوط سقوط ثواب العمل وفساده، وقد مرّ معنا أن أصله انتفاخ الدابة من مرعى مسموم. كانت لهم أعمالٌ ظاهرة تبدو كبيرة، لكن النفاق أكلها من الداخل.

فليس المهم أن يبدو البناء مرتفعًا؛ المهم من أي مادةٍ بُني. قد يكون العمل في أعين الناس جبلًا، وهو عند الله أجوف؛ لأن الذي حمله لم يرد وجهه.

﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

خسروا الفريق الذي راهنوا عليه حين جاء الفتح، وخسروا المؤمنين بخيانتهم، وخسروا أعمالهم بنفاقهم، وخسروا أنفسهم حين عاشوا بلا مركز ثابت. من أراد أن يكون مع الجميع على حساب الحق، قد ينتهي بلا أحد.

الآية الرابعة والخمسون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

إنها آيةٌ تهز غرور الجماعات كلها: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾.

الدين لا يتوقف على أحد. قد يظن الإنسان أن موقعه أو اسمه أو تاريخه يمنحه أهميةً لا تستغني عنها الدعوة؛ فتأتي الآية لتقول: إذا تركتم الطريق، لم يبق الطريق بلا سالكين.

الله غنيٌّ عن عباده، وإنما شرفهم في حمل دينه. الشمس لا تنطفئ لأن نافذةً أُغلقت؛ إنما يحرم البيت نفسه من الضوء.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾.

يذهب قومٌ ويأتي قوم، وتتداول الأمانة بين الأجيال. قد تسقط رايةٌ من يدٍ ارتخت، فيهيئ الله لها يدًا أخرى. وهذا وعدٌ يبعث الطمأنينة في قلب من يرى تقصير أهل زمانه: لا تخف على دين الله، بل خف على نفسك أن تُحرم شرف خدمته.

ثم ترسم الآية ملامح الجيل الذي يحبه الله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

بدأ بحبه لهم قبل حبهم له؛ لأن كل محبةٍ صادقة في قلوبهم إنما هي أثرٌ من عنايته وفضله. أحبهم فعرّفهم به، وفتح لهم أبواب الطاعة، ثم أحبوه.

ما أرفع هذا المقام! لم تقل الآية: يستخدمهم فقط، أو يكلفهم، بل ﴿يُحِبُّهُمْ﴾. قد يعيش العبد مجهولًا في الأرض، لا يلتفت إليه الناس، وهو معروفٌ محبوبٌ في السماء.

وحب الله ليس دعوى وجدانية بلا أثر؛ تظهر علاماته في الصفات التالية. فالمحبة التي لا تغير السلوك قد تكون إعجابًا بالنفس وهي تتحدث عن الله.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي رحماء لينين متواضعين لهم، لا أذلة هوان. يخفضون جناحهم لإخوانهم، ولا يجعلون قوتهم سوطًا على الضعفاء منهم.

ما أكثر من يتشدد على المؤمنين ليظهر صلابته، ثم يذوب أمام الأقوياء! أما الجيل المحبوب فترتيب مشاعره صحيح: رقيقٌ حيث تكون الرقة أخوة، عزيزٌ حيث تكون العزة حمايةً للحق.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أي أصحاب عزة وثبات أمام من يعادي الدين ويصد عنه، لا يستسلمون لضغطه ولا يطلبون كرامتهم من رضاه. وليس معنى العزة ظلم غير المسلم أو الغلظة مع المسالم؛ فالعدل والبر مأمور بهما. العزة قوة هوية، لا سوء خُلق.

المؤمن العزيز لا يحتقر الآخرين، لكنه لا يحتقر نفسه أمامهم. يتعلم منهم ما ينفع، ويتعامل معهم بالعدل، لكنه لا يرى هدايتهم البشرية أعلى من وحي ربه، ولا يجعل تفوقهم المادي حكمًا على قيمة دينه.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

لا تبقى محبتهم مشاعر دافئة، بل تتحول إلى بذل. يجاهدون أنفسهم وأهواءهم، ويجاهدون بالكلمة والعلم والمال، ويقاتلون القتال المشروع حين تتوافر شروطه وسلطته وأحكامه.

وقيد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يطهر الجهاد من سبيل العصبية والشهرة والانتقام. إنهم لا يقاتلون ليصنعوا لأنفسهم مجدًا، بل ليعلو الحق وفق شرع الله.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

لم يقل: لا يسمعون اللوم، بل لا يخافونه. سيُلامون؛ لأن السير عكس الأهواء العامة يستدعي سهام الكلام. لكنهم لا يجعلون اللوم بوصلتهم.

وقد يكون الخوف من كلام الناس أشد من الخوف على الجسد. كم من إنسانٍ عرف الحق، لكن جملةً متوقعةً من صديقٍ أو قريب منعته من قوله! عاش أسير محكمةٍ في خياله، جمهورها لائمون.

ولا يعني عدم الخوف من اللوم رفض النصيحة أو الإصرار على الخطأ؛ فالمؤمن يراجع نفسه ويقبل الحق. لكنه يميز بين ناصحٍ يكشف له خطأه، ولائمٍ يريد أن يعاقبه لأنه لم يخضع للهوى العام.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

المحبة والعزة والجهاد والثبات فضلٌ، لا صناعة ذاتية خالصة. فإذا وُفقت إلى موقفٍ شجاع، فلا تنظر إلى المترددين من برج كبريائك؛ اسأل الله الثبات واشكره أن حملك.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

واسع الفضل، لا تنفد خزائنه إذا استبدل قومًا بقوم، وعليمٌ بمن يستحق حمل الأمانة ويصدق في طلبها. قد يختار للدين رجلًا لم يكن في حساب الناس، ويترك صاحب اسمٍ كبير لأن علمه أحاط بالقلوب لا بالواجهات.

الآية الخامسة والخمسون

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

بعد بيان الولاء المنهي عنه، تقيم الآية الولاء الصحيح:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾.

بدأت بالله؛ لأنه أصل كل ولايةٍ وحماية ونصرة. والعبد الذي عرف ولاية الله لا يعيش يتيمًا ولو تخلى عنه الناس. قد تضيق به الأرض، لكن فوقها ربٌّ يتولاه.

وولاية الله للعبد هدايةٌ وحفظٌ وتوفيقٌ ونصرة، أما ولاية العبد لله فمحبةٌ وطاعة وانحيازٌ إلى أمره. وليست العلاقة بينهما علاقة ندية؛ تعالى الله، بل عبوديةٌ يتشرف فيها الفقير بأن يتولاه الغني الحميد.

﴿وَرَسُولُهُ﴾.

ولاية الرسول ﷺ باتباعه ومحبته ونصر سنته. لا يدّعي الإنسان ولاية النبي ثم يرد خبره، أو يقدّم على هديه هوى عصره. المحبة الصادقة تتخذ طريق الحبيب طريقًا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

تقيم العقيدة شبكةً من الأخوة تتجاوز الدم والجغرافيا. قد لا تعرف المؤمن في بلدٍ بعيد، لكن بينك وبينه ميثاقٌ من الإيمان، يفرحك خيره ويؤلمك ظلمه.

ثم تصفهم الآية:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

أي خاضعون لله، مقيمون الصلاة مؤتون الزكاة. وقيل: الواو للحال في معنى أنهم يؤتون الزكاة في حال ركوع، لكن الأظهر في سياق الصفة العامة أن الركوع تعبير عن الخضوع والعبادة، مع ما ورد من أقوال في سبب النزول.

جمعت الآية الصلاة والزكاة مرة أخرى: ولاية المؤمنين لا تقوم على العاطفة وحدها، بل على عبادةٍ تصلهم بالله، وعطاءٍ يصلهم بالناس. من يقيم الصلاة يعرف مصدره، ومن يؤدي الزكاة يعرف واجبه تجاه الجماعة.

إن الأخوة التي لا تحمل المحتاج تبقى خطابًا. لا يكفي أن تقول للمؤمن: أنا وليك، ثم تتركه فريسةً للجوع والوحدة والخوف. الولاية صلاةٌ في المحراب، وزكاةٌ في المجتمع، وركوعٌ يمنع النفس من التعالي.

الآية السادسة والخمسون

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

تبلغ الآيات هنا وعدها: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الولاية اختيار جهة، وليست كلمة حياد. حين تتعارض الطرق، يقف المؤمن مع أمر الله وهدي رسوله وجماعة المؤمنين على الحق.

ثم يقول: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

حزب الله وصفٌ قرآني لمن صدق ولاؤه لله، لا اسمًا يحتكره تنظيمٌ أو طائفة لنفسها. لا يصير الناس حزب الله بمجرد رفع الشعار؛ بل بقدر طاعتهم وصدقهم وعدلهم وتقواهم. ومن ظلم الناس وخرج عن حدود الله لا يطهّره الاسم الذي يعلقه على رايته.

﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وقد لا تكون الغلبة دائمًا نصرًا عسكريًّا عاجلًا. قد يُهزم المؤمن في جولة، ويُقتل، ويُطرد، لكنه يغلب إذا حفظ إيمانه ولم ينجح الباطل في تحويله إلى نسخةٍ منه. والغلبة التامة لأهل الحق في العاقبة، في الدنيا بحسب حكمة الله وسننه، وفي الآخرة يقينًا.

لقد ظن قاتلو الأنبياء أنهم غلبوا حين أسكتوا الجسد، لكن كلمة الأنبياء عاشت، وذهبت أسماء كثيرٍ من الجبابرة لا تُذكر إلا باللعنة. من الغالب إذن: من ملك الساعة، أم من ملك المعنى الذي عبر القرون؟

الغلبة تبدأ في القلب حين لا يملك الخوف قرارك، ولا يشتري الطمع ولاءك، ولا يبدل الضغط مرجعيتك. فإذا غلبتَ هواك بالله، بدأت أول معارك النصر.

وهكذا ترسم الآيات هوية الأمة المحبوبة: ولاؤها لله، وقلبها ممتلئٌ بحبه، وجناحها منخفضٌ للمؤمنين، وهامتها مرفوعةٌ أمام المعتدين، وحركتها جهادٌ في سبيله، وأذنها لا تخاف لومة لائم، ومجتمعها صلاةٌ وزكاة وأخوة.

إنها أمة لا تستمد قيمتها من اعتراف الآخرين، ولا تصنع عزتها من كراهية الآخرين؛ تستمدها من الله، ثم تتعامل مع خلقه بالعدل. لا تذوب، ولا تظلم؛ لا

تنكسر، ولا تتجبر. وهذه هي العزة حين تتطهر من الكبر، والرحمة حين تتطهر من الذل.

الفصل الرابع عشر

حِينَ تُتَّخَذُ الصَّلَاةُ هُزُوًا

سخريةُ القلب الميت، ونفاقُ اللسان، وصمتُ العلماء عن أكل السُّحت

الآية السابعة والخمسون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

بعد أن رسمت الآيات السابقة دائرة الولاية المؤمنة، تعود السورة لتكشف فئةً لا تقف عند الاختلاف مع الإسلام، بل تتخذ الدين نفسه مادةً للسخرية واللعب.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

الهُزؤ هو السخرية والاستخفاف، واللعب ما خلا من الجد والمقصد الصحيح. ولم تقل الآية إن كل مخالفٍ يفعل ذلك؛ بل قيّدت النهي بمن اتخذوا الدين هزوًا ولعبًا من طوائف أهل الكتاب والكفار. فالقرآن يفرق بين مخالفٍ يحاورك بإنصاف، وآخر يجعل مقدساتك ميدانًا للإهانة.

والاختلاف يمكن أن يبقى في دائرة الفكر والحجة، أما السخرية فتنقل الخلاف من سؤال الحقيقة إلى انتهاك الكرامة. من يناقشك يعترف ضمنًا بأن لك عقلًا يخاطبه، ومن يسخر منك يحاول أن يسقطك من مقام الحوار إلى موضع التهكم.

لكن القرآن لا يأمر المؤمن أن يرد السخرية بسخرية، ولا أن يظلم المستهزئ؛ وإنما يمنعه من منحه ولاية القلب والنصرة الحميمة. فالذي يعبث بما تقدسه لا يصلح أن يكون مستودع سر هويتك، ولا المرجع الذي تطلب منه تعريف ذاتك.

والهُزؤ بالدين ليس دليل قوةٍ فكرية؛ كثيرًا ما يكون هروبًا من مواجهة حجته. فالساخر لا يفند المعنى، بل يحيط به بالضحك حتى يخاف الناس من الاقتراب إليه. السخرية أحيانًا سلاح من لا يملك البرهان؛ يقتل هيبة السؤال بدل أن يجيب عنه.

وفي عصر الصورة السريعة، صار الهُزؤ صناعةً كاملة: تُقتطع شعيرةٌ من سياقها، وتُحوّل إلى مشهدٍ مضحك، ثم يُقاس نجاح السخرية بعدد المتفاعلين. وقد ينسى المستهزئ أن ما يصنعه للترفيه ساعةً قد يكون عند الله كلمةً تهوي بصاحبها في سخطه.

﴿لَا تَتَّخِذُوا... أَوْلِيَاءَ﴾.

المقصود — كما سبق — ولاية النصرة والانحياز والاعتماد القلبي الذي يذيب هوية المؤمن، لا البر والعدل وحسن المعاملة. فليس في الآية رخصةٌ لظلم أحد، وإنما فيها صيانةٌ للقلب من أن يمنح قربه الأعمق لمن يزدري ما بينه وبين الله.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

جعل التقوى برهانًا على الإيمان؛ لأن المؤمن قد يدفعه طلب القبول الاجتماعي إلى الضحك مع الساخرين، أو الصمت المتلذذ عن الإهانة، حتى يثبت أنه «خفيف» لا تأخذه الغيرة لدينه.

والتقوى هنا أن تبقى مهذبًا دون أن تكون بارد الولاء، وأن ترفض الإساءة دون أن تتحول إلى معتدٍ، وأن تحمل كرامة المؤمن وعدل الإسلام معًا.

الآية الثامنة والخمسون

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

تنتقل السخرية من الدين عامةً إلى الأذان والصلاة: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

الأذان ليس صوتًا يعلن الوقت فقط؛ إنه إعلانٌ متكرر عن مركز الكون في قلب المؤمن. حين يقول المؤذن: «الله أكبر»، فإنه ينزع عن كل قوةٍ ادعاء الكِبَر المطلق، ويقول للمدينة الغارقة في السوق والضجيج: هناك معنى أعلى من كل ما تطاردون.

يمر الأذان على التاجر في ماله، والحاكم في سلطانه، والعامل في تعبه، والحزين في وحدته؛ فيجمعهم إلى صفٍّ واحد أمام رب واحد. ولهذا يحمل الأذان قوةً تحررية هائلة: لا أحد أكبر من الله، ولا عملٌ يستحق أن يبتلع الإنسان حتى ينسيه غايته.

لكنهم ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

استهزؤوا بالنداء أو الصلاة التي يدعو إليها؛ لأن من لم يذق معنى السجود يرى انحناء الجسد حركةً غريبة، ومن لم يعرف الله يسمع الأذان أصواتًا لا نافذةً إلى السماء.

المادي يرى الجبهة تلامس الأرض، والمؤمن يرى الروح تبلغ بذلك أعلى مراتبها. يظن الساخر أن الساجد يذل نفسه، ولا يدرك أنه يتحرر من الذل لكل ما سوى الله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

العجيب أن القرآن نسب السخرية إلى غياب العقل، لا إلى قوة التفكير. العقل الحق لا يسخر قبل أن يفهم، ولا يحاكم المشهد من سطحه، بل ينفذ إلى معناه. أما الاستهزاء فهو اختصارٌ كسول يلغي حاجة صاحبه إلى التدبر.

كم من شيءٍ ضحك منه الناس لأنهم لم يبلغوا سره! الطفل قد يضحك من الطبيب وهو يجري عمليةً معقدة، لأنه يرى الحركة ولا يعرف الغاية. وكذلك من يرى الصلاة ركوعًا وسجودًا فقط؛ حُجب عن هندسة الروح التي تبنيها.

إن الصلاة تعيد الإنسان خمس مراتٍ من التبعثر إلى الوحدة، ومن العمل إلى الغاية، ومن الخلق إلى الخالق، ومن كِبَر الذات إلى سكينة العبودية. فمن سخر منها، لم يسخر من حركاتٍ فحسب؛ بل سخر من بابٍ كان يستطيع أن ينقذه من نفسه.

الآية التاسعة والخمسون

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾؛ أي هل تعيبون علينا وتكرهون منا إلا إيماننا؟ سؤالٌ يكشف أن الجريمة في نظر الخصم قد تكون تمسكك بما يجب أن تتمسك به.

﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

لم يؤذوهم لأنهم سرقوا أو ظلموا، بل لأنهم آمنوا بالله وحده. وهنا تنقلب موازين العالم المريض: يصبح التوحيد تهمة، والعفاف تخلفًا، والثبات تعصبًا، والانضباط قيدًا؛ بينما تُمنح الشهوة أسماء الحرية والتقدم.

وقد يصل ضغط البيئة إلى أن يستحي المؤمن من أجمل ما فيه. يخفض صوته إذا ذكر دينه، ويعتذر عن عبادته، ويقدم إيمانه في صورةٍ باهتة كيلا يثير استغراب أحد. فتأتي الآية لتعيد إليه ثقته: أهذا ما ينقمون منك؟ أنك آمنت بالله؟ فليست كل كراهيةٍ تتعرض لها دليلًا على خطأ فيك؛ قد تكون كراهية الحق نفسه.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

المؤمنون لا يؤمنون بالقرآن وحده وينكرون أصل الوحي السابق؛ بل يؤمنون بجميع ما أنزل الله على رسله في أصله الصحيح. إنهم أوسع الناس وفاءً بموكب النبوة: يحبون موسى وعيسى وإبراهيم ونوحًا وسائر الأنبياء، ولا يفرقون بينهم في أصل الإيمان.

وهنا مفارقةٌ ظاهرة: يُعاب المسلم لأنه آمن بالكتاب الخاتم، مع أن كتابه يأمره بالإيمان بالرسل الذين ينتسب إليهم خصومه. إنه لا يطرد موسى أو عيسى من قلبه ليؤمن بمحمد ﷺ، بل يكتمل إيمانه بهم جميعًا باتباع خاتمهم.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي لعل مما ينقمونه كذلك أن القرآن كشف خروج كثيرٍ منهم عن طاعة الله. وقال: ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾، ولم يقل: جميعكم؛ فيظل ميزان الإنصاف قائمًا حتى في مقام المواجهة.

القرآن لا يسمح للخصومة أن تمحو الاستثناءات. وهذه دقة ينبغي أن يتعلمها الخطاب الإسلامي: أن يصف الانحراف بوضوح دون أن يحوّل الحكم على الأكثر أو الطائفة المعينة إلى اتهامٍ لكل فرد.

الآية الستون

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

بعد أن عابوا المؤمنين على إيمانهم، جاء السؤال يقلب عليهم ميزانهم:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾.

استعملت كلمة ﴿مَثُوبَةً﴾ في الجزاء مطلقًا على سبيل المقابلة والتهكم بحالهم؛ إذ ليست العبرة بما يصفق له الناس، بل بموقع الفعل عند الله. قد يرفع المجتمع إنسانًا، وهو عند الله ساقط؛ وقد يسخر من مؤمن، وهو عند الله كريم.

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

اللعنة إبعادٌ عن الرحمة، والغضب مؤاخذةٌ على جرمٍ عظيم. وقد اجتمعا لأن الانحراف لم يكن مجرد جهل، بل تمردًا بعد البيان.

وليس لأحدٍ أن يوزع لعنات الله وغضبه على الأعيان بهواه؛ إنما نثبت ما أثبته الوحي على الأوصاف والأقوام الذين نص عليهم، ونكل سرائر الأفراد ومآلاتهم إلى الله. الآيات ليست ذخيرةً للكراهية العرقية، بل تحذيرٌ من الأفعال التي تورد أصحابها موارد الغضب.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

أي مسخ طائفةً من عصاة بني إسرائيل قردةً، كما وقع لأصحاب السبت، وذكر بعض المفسرين الخنازير في طائفة أخرى. وهذا مسخٌ حقيقي على ظاهر النص، لا وصفٌ لكل اليهود، ولا نسبٌ يمتد إلى ذريتهم. فقد كان عقوبةً لفئةٍ معينة عصت في زمنها، ولم يبق نسلٌ للممسوخين على ما جاء عن جماعة من السلف.

والعبرة ليست في شكل المسخ وحده، بل في أن المعصية تمسخ حقيقة الإنسان قبل أن تمسخ صورته. قد يبقى الوجه بشريًّا، لكن الروح تهبط حين تُعطّل ما يميزها من طاعةٍ وعقلٍ وحياء.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

الطاغوت كل ما تجاوز به العبد الحد فعبده من دون الله أو أطاعه في معصية الله طاعة عبادة. وقد يكون صنمًا من حجر، أو بشرًا يُرفع إلى مقام التشريع المطلق، أو هوىً يصبح أمره نافذًا في القلب.

وعبادة الطاغوت تبدأ حين يمنحه الإنسان ما لا يليق إلا بالله: الخضوع المطلق، أو التشريع المستقل، أو التعلق العبادي. وليس كل طاعةٍ لمخلوق عبادةً له؛ إنما العبادة لها حقيقتها وضوابطها، لكن الآية تحذر من تسليم الإنسان مصيره لغير ربه.

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

ليس أهل الإيمان الذين عُيّروا بإيمانهم هم شرًّا؛ بل الشر فيمن استحق اللعنة والغضب وعبد الطاغوت. وقد يختل ميزان المجتمع حتى يضحك من الطاهر ويحتفي بالفاسد؛ فيأتي الوحي ليعيد الأشياء إلى أسمائها.

الآية الحادية والستون

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾.

يدخلون مجلس المؤمنين بالكلمة الصحيحة، لكن الكلمة لا تصف حقيقة الداخل. إنها بطاقة عبورٍ اجتماعية، لا ميثاق قلب.

﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾.

الباء للمصاحبة؛ دخل الكفر معهم كأنه رفيقٌ خفي لا تراه العيون. كانوا يحملونه في القلوب، وإن لبست الألسنة ثوب الإيمان.

﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾.

دخلوا بالكفر وخرجوا به؛ مروا بمجلس النور ولم يتغيروا. سمعوا القرآن والرسول ﷺ، لكنهم جاؤوا لا ليتلقوا، بل ليمثلوا.

ما أشد خسارة من يدخل إلى مواطن الهداية ثم يخرج منها كما دخل! يحضر درسًا، أو يقرأ كتابًا، أو تمر به موعظة، لكن قلبه مغلقٌ بقرارٍ سابق. ليس كل اقترابٍ مكاني من النور اقترابًا معنويًّا.

وقد يدخل المؤمن نفسه الصلاة بهمومه وغفلته، ثم يخرج بها كلها، كأن نهر العبادة مر بجواره ولم يغتسل فيه. والآية في المنافقين، لكن ظلها يدعونا إلى السؤال: ماذا تغيّر فينا بعد كل دخول إلى حضرة الوحي؟

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

البشر يرون الدخول والخروج ويسمعون كلمة «آمنا»، أما الله فيرى المحمول الخفي. وعلمه ليس تخمينًا، بل إحاطةٌ كاملةٌ بما استقر في الصدور.

وهذه الآية سكينةٌ للمؤمن الذي يخدعه الظاهر: لا تحمل نفسك كشف كل قلب، فالله أعلم. تعامل بالبينات والأحكام الظاهرة، واترك السرائر لمن لا تخفى عليه.

الآية الثانية والستون

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾.

مرةً أخرى قال: ﴿كَثِيرًا﴾ ولم يعمم. العدل القرآني يحصي الفساد، لكنه لا يظلم من لم يقع فيه.

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾.

تتكرر المسارعة، لكن وجهتها هنا الإثم. كأن للشر مسابقاتٍ أيضًا، يتنافس أصحاب النفوس المريضة في بلوغها. لا يرتكبون الذنب تحت ضعفٍ ثم يندمون، بل يسارعون إليه بشغف المبادرة.

﴿وَالْعُدْوَانِ﴾.

الإثم فسادٌ في علاقة العبد بربه ونفسه، والعدوان تجاوزٌ إلى حقوق الآخرين. وقد يبدأ الإنسان بذنبٍ خاص، فإذا ماتت حساسيته الأخلاقية امتد فساده إلى الناس.

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

يعود المال الحرام؛ لأنه كثيرًا ما يكون الوقود الذي يحرك منظومات الفساد. خلف الحكم المحرّف رشوة، وخلف الشهادة المكذوبة مال، وخلف الصمت عن الظلم منفعة.

وسماه أكلًا، لأن المال الحرام لا يبقى خارج الإنسان؛ يدخل جسده، ويغذي خلاياه، ويجلس إلى مائدة أبنائه. قد يظن صاحبه أنه أخفى مصدره، لكن أثره يسري في حياته: قسوةً في القلب، وضيقًا في الروح، ومحقًا للبركة.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ذم العمل ذاته؛ فهم يتحملون مسؤوليته. لا يلغي فساد البيئة مسؤولية الاختيار، وإن كان يؤثر فيها. قد يولد الإنسان في نظامٍ يأكل السحت، لكنه يظل مدعوًّا إلى أن يقول: لا.

الآية الثالثة والستون

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

إذا كانت الآية السابقة قد أدانت مرتكبي الفساد، فإن هذه الآية تلتفت إلى العلماء الذين رأوه وسكتوا: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

أي هلا نهاهم علماؤهم وعبّادهم؟ فالعالم لا يُسأل فقط عما فعل، بل عما رأى وكان قادرًا على إنكاره بالعلم والحكمة ثم سكت عنه.

إن العلم منصب حراسة. فإذا تسلل اللصوص إلى القيم، كان أول من ينبغي أن يطلق جرس الخطر أهل المعرفة. أما إذا نام الحراس، أو باعوا مفاتيح الأبواب، فلا عجب أن يمتلئ البيت بالنهب.

﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾.

قد يكون قول الإثم كذبًا وتحريفًا وشهادة زورٍ وتبريرًا للباطل. واللغة أول ميادين الفساد؛ قبل أن تتحول الجريمة إلى فعل، تحتاج إلى كلماتٍ تهيئ لها القبول. يسمون الرشوة هدية، والسرقة استحقاقًا، والظلم ضرورة، والخيانة واقعية.

وهنا تكون وظيفة العالم أن يحرس أسماء الأشياء. فإذا شارك في تغيير أسمائها، لم يعد مجرد ساكت، بل صار مهندسًا للانحراف.

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

لماذا سكت بعض العلماء؟ ربما لأن شيئًا من السحت كان يصل إليهم، أو لأن من يأكله يمنحهم قربًا ومكانة. والعالم الذي يأكل من مائدة الظالم يصعب عليه أن ينكر طريقة إعداد الطعام.

إن استقلال العالم عن سلطان المال جزءٌ من أمانة العلم. قد لا يُطلب منه أن يعيش فقيرًا، لكن يُطلب ألا يصبح رزقه ثمنًا لصمته، وألا يربط فتواه بيدٍ إن غضبت قطعت عنه العطاء.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

في الآية السابقة قال عن العامة الفاسدين: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهنا قال عن العلماء الساكتين: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. والصنع أبلغ في الدلالة على الإحكام والتدبير؛ فكأن صمت العالم ليس فراغًا، بل مساهمةٌ في صناعة البيئة التي يعيش فيها الفساد.

قد لا يوقع العالم قرار الظلم، لكنه يصنع له الشرعية. وقد لا يأكل السحت بيده، لكنه يمنح آكله خطابًا يطمئنه. ولذلك كان ذنب الصمت ثقيلًا؛ لأن كلمةً واحدةً من صاحب العلم قد توقف باطلًا، فإذا حبسها تركه يكبر.

ولا يعني ذلك أن الإنكار يكون بلا فقهٍ للمآلات أو مراعاةٍ للقدرة؛ فللأمر بالمعروف شروطه ومراتبه، ولا يجوز أن يؤدي إلى منكرٍ أعظم. لكن الحكمة شيء، وتحويل الخوف والمصلحة إلى «فقه» يبرر الصمت شيء آخر.

والعالم الرباني لا يكتفي بأن ينجو بنفسه من السحت، بل يحاول أن ينقذ المجتمع منه. لا يقول: أنا لا آخذ الرشوة، فما شأني بالآخرين؟ فقد حمّله العلم أمانةً تتجاوز طهارته الفردية إلى مقاومة الفساد العام.

وهكذا ترسم هذه الآيات سلسلة السقوط كاملة: سخريةٌ من الشعائر، ثم قلبٌ لا يعقل معناها، ثم نفاقٌ يدخل بالكفر ويخرج به، ثم مسارعةٌ إلى الإثم والعدوان، ثم سحتٌ يُؤكل، ثم علماء يسكتون.

فالفساد لا يبلغ قوته القصوى حين يكثر المفسدون فقط، بل حين يقل صوت الربانيين. وما دام في الأمة عالمٌ يقول للباطل: هذا باطل، بقي في ضميرها

موضعٌ حي. فإذا صار الجميع يغيّرون أسماء الأشياء خوفًا أو طمعًا، لم تعد المشكلة أن الناس يأكلون السحت؛ بل أن السحت بدأ يأكل الأمة.

الفصل الخامس عشر

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

افتراءُ البخل على الكريم، ونيرانُ الفتنة، والكتابُ الذي لو أُقيم لأمطرت السماء رزقًا

الآية الرابعة والستون

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

بلغ الانحراف في طائفةٍ من اليهود أن نسبوا إلى الله البخل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

والآية تحكي قول من قال ذلك منهم، ولا تحمل كل فردٍ في كل عصر تبعة لفظٍ لم يقله. وقد كان المراد بقولهم وصف الله بالبخل والإمساك، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

إن النفس حين يضيق عنها الرزق قد تسيء الظن بالرزاق بدل أن تراجع فهمها وسعيها. تنظر إلى ما مُنع عنها، وتنسى الوجود كله الذي أُعطي لها. ترى بابًا أُغلق، ولا ترى أبوابًا لا تحصى ظلت مفتوحة.

وما أجرأ الإنسان حين يحاكم كرم الله من زاوية شهوته! إذا لم يعطه ما طلب في الوقت الذي أراد، تخيل أن العطاء قد ضاق، كأن خزائن الله تُقاس بجيب العبد، وكأن الحكمة لا تكون إلا فيما يوافق رغبته.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾.

جاء الجزاء من جنس القول؛ لما وصفوا يد الله ـــ تعالى وتقدس ـــ بالغل، دُعي عليهم بأن تكون أيديهم هي المغلولة عن الخير، وطُردوا من الرحمة بسبب هذا الافتراء.

واللعنة لم تقع لنسبٍ أو عرق، بل ﴿بِمَا قَالُوا﴾. وهذا أصلٌ في العدل القرآني: العقوبة مرتبطة بالجريمة، لا بالهوية المجردة.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

نثبت لله ما أثبته لنفسه من صفة اليدين على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيهٍ بأيدي المخلوقين، ولا تكييفٍ ولا تمثيل؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. والسياق يعلن كمال جوده وسعة عطائه، ردًّا على افتراء البخل.

جاءت التثنية مبالغةً في تقرير السعة والكرم: عطاءٌ لا ينفد، وجودٌ لا يعجزه طلب، ورحمةٌ لا تضيق بكثرة الخلق. ولو أعطى الأولين والآخرين جميعًا مسائلهم، ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح.

﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

كرمه سبحانه لا يعني أن يعطي كل إنسانٍ كل ما يشتهي؛ بل ينفق بمشيئةٍ قائمةٍ على الحكمة والعلم. قد يكون العطاء في المال، وقد يكون في منعه؛ إذ يصرف عن العبد شيئًا لو وصله أفسده.

نحن نعرف النعمة غالبًا من ملمسها اللذيذ، أما الله فيعلمها من عاقبتها. وقد يأتي لطفه في ثوب الحرمان، ويأتي بعض الاستدراج في ثوب الوفرة. لذلك لا يصح أن تجعل كثرة المال علامةً حاسمة على المحبة، ولا قلته دليلًا قاطعًا على الهوان.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

كيف يزيد النور إنسانًا ظلامًا؟ ليس لأن في الوحي شرًّا، بل لأن القلب المريض يقابل النور بمزيدٍ من الإغلاق. وكل آيةٍ جديدة تمنحه فرصةً للرجوع، فإذا اختار العناد أضاف إلى عناده طبقة.

الشمس نفسها تليّن الشمع وتيبّس الطين؛ الاختلاف في القابل لا في النور. والقرآن يهدي من طلب الهدى، ويقيم الحجة على من جاءه بعناد، فيزداد طغيانًا بقدر ما يزداد رفضه للبيان.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

العداوة في الأفعال، والبغضاء في القلوب. وهي عقوبةٌ على نقض الميثاق واتباع الأهواء؛ فما ترك قومٌ مرجعية الحق إلا تنازعتهم المرجعيات الصغيرة.

ولا تعني الآية أن كل من ينتسب إلى اليهودية يعادي كل آخر في كل لحظة، وإنما تخبر عن سنة الفرقة والخصومات في الطوائف التي انحرفت، وما يتجدد بينها من صراعٍ باختلاف المصالح والعقائد.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

يا لها من صورة: الحرب نارٌ تحتاج إلى من يوقدها وينفخ فيها ويجمع لها الحطب. والكلمات التحريضية حطب، والأكاذيب وقود، والمصالح الخفية ريحٌ تزيد الاشتعال.

لكن فوق أيدي الموقدين قدرةً تطفئ. قد يخططون ويعبئون ويظنون أن النار صارت مالكةً للمشهد، ثم يرسل الله عليها من أقداره ما يخمدها.

وفي الآية عزاءٌ للمستضعفين: ليس كل حريقٍ أشعله المفسدون سيبلغ غايته. كم من خطةٍ للحرب ماتت قبل أن تولد، وكم من فتنةٍ كادت تحرق بلادًا ثم صرفها الله بسببٍ لم يكن في الحسبان.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

السعي يدل على الجهد والحركة المقصودة. فالفساد لا ينتشر بنفسه دائمًا؛ له عاملون وممولون ومبررون وصانعو سرديات.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

قد يحب المفسدون أنفسهم، ويمدح بعضهم بعضًا، ويقدمون عدوانهم مشروعًا للخلاص؛ لكن المعيار الأعلى واضح: الله لا يحبهم ما داموا مقيمين على فسادهم. وما أبأس أن يربح الإنسان تصفيق الأرض ويخسر محبة السماء.

الآية الخامسة والستون

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

بعد هذا العتاب الشديد، لا يغلق القرآن الباب: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

ما زال طريق الرجوع مفتوحًا. لم يقل: لقد انتهى أمرهم؛ بل عرض عليهم الإيمان والتقوى. والإيمان بعد بعثة محمد ﷺ يشمل الإيمان به واتباع القرآن؛ فلا يكتمل إيمان من يصدق بعض رسل الله ويرفض خاتمهم.

والتقوى هي أن يترجم الإيمان نفسه في العمل. فقد يعرف الإنسان الحق، لكنه لا يترك ما يناقضه من مصالحه؛ لذلك جُمع الإيمان والتقوى، كي يلتقي تصديق القلب باستقامة السلوك.

﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

ما أعظم الرحمة! بعد الكفر والتحريف والسحت وإيقاد الحروب، تعرض الآية تكفير السيئات إذا صدقت العودة. الله لا يعجزه ثقل الماضي، ولا يضيق عفوه بكثرة الذنوب.

إن الإسلام لا يطالب الداخل إليه أن يحمل عمره السابق على ظهره إلى الأبد؛ يهدم الإسلام ما قبله إذا صحّ، والتوبة تهدم ما قبلها. يولد الإنسان من جديد لا بمعنى أن التاريخ لم يقع، بل بمعنى أن حكمه الأخروي يُمحى بالمغفرة.

﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

لم يقل: وضعناهم عند الباب، بل ﴿أَدْخَلْنَاهُمْ﴾. من كان موضع اللعنة بسبب قوله يستطيع بالإيمان والتوبة أن يصير من أهل النعيم. ليست الأبواب ثابتةً على الأنساب؛ الذي يحدد الطريق هو موقف الإنسان من الله.

وهذا يطهّر المسلم من الشماتة العقدية. لا ينبغي أن يقرأ وعيد المخالف وهو يتمنى بقاءه فيه، بل يدعوه بقلبٍ يرجو له الهداية. فالنبي ﷺ لم يُبعث ليجمع أسماء الهالكين، بل لينقذ من يستجيب.

الآية السادسة والستون

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

لم يقل: قرؤوا، أو حملوا، أو زينوا بها معابدهم؛ بل ﴿أَقَامُوا﴾. إقامة الكتاب أن يقام حكمه في النفس والمجتمع، وأن يتحول من نصٍّ محفوظ إلى ميزانٍ حاكم.

وإقامة التوراة والإنجيل في زمن بعثة النبي ﷺ كانت تقود أهلها إلى الإيمان به؛ لأن الكتب المنزلة في أصلها دعت إلى اتباع رسل الله، وبشّرت بالخاتم. فلا يكون الوفاء الحقيقي بكتابٍ سابق في رفض من جاء مصدقًا له.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

قيل: يشمل ما أنزل الله من الكتب، ويدخل فيه القرآن الذي جاءهم خطابه على لسان الرسول الخاتم. والإضافة إلى ﴿رَبِّهِمْ﴾ تذكيرٌ بأن التشريع صادرٌ عن ربٍ يربيهم ويصلحهم، لا عن قوةٍ تريد استعبادهم.

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

صورةٌ للرزق يحيط بهم من كل جهة: بركات السماء تنزل، وخيرات الأرض تنبت. إن إقامة الوحي ليست خصمًا من عمران الدنيا، بل سببٌ لبركتها حين تتحقق شروط السنن الأخرى.

لكن لا ينبغي أن يُفهم هذا على أنه وعدٌ لكل فردٍ تقي بالثراء، أو أن كل فقير مذنب؛ فقد يُبتلى المؤمن بالفقر، ويُستدرج العاصي بالمال. إنما الآية تكشف سنةً عامة: أن العدل والاستقامة وأداء الحقوق أسبابٌ للبركة الاجتماعية، وأن الفساد يمحق الثروة وإن كثرت أرقامها.

المجتمع الذي يحرم الرشوة، ويحفظ المال، ويقيم العدل، ويرعى الضعيف؛ يطلق طاقات العمل والثقة. أما المجتمع الذي يأكل فيه القوي حق الضعيف، فقد تكون الأرض غنيةً وأهلها جياعًا؛ لأن الفساد يقف بين الخيرات وموائد الناس.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾.

أي طائفة معتدلة مستقيمة أقرب إلى الحق، ليست كسائر المنحرفين. للمرة الأخرى يمنع القرآن التعميم: في أهل الكتاب أناسٌ لهم نصيبٌ من الاعتدال والإنصاف، ومنهم من آمن بالنبي ﷺ حين ظهر له الحق.

والاقتصاد هنا توسطٌ واستقامة، لا مجرد تدبير المال. والمقتصد لا يغلو في نبي حتى يؤلهه، ولا يجفو عنه حتى يكذبه؛ يضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

قال: كثير، لا كل. وذم العمل، لا الدم ولا العرق. وبذلك يبقى باب العدل مفتوحًا، فلا تتحول العقيدة إلى عصبيةٍ مضادة.

الآية السابعة والستون

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

يعود الخطاب إلى النبي ﷺ بلقب الرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾.

الرسول هو الذي يحمل رسالةً ليست ملكه؛ فلا يحق له أن يختار منها ما يسهل تبليغه ويترك ما يثير المعارضة. وقد بلّغ النبي ﷺ البلاغ المبين، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، حتى شهد له أصحابه في حجة الوداع أنه قد بلّغ.

﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

كل ما أُنزل: بشارته ونذارته، عباداته وتشريعاته، ما تحبه النفوس وما يثقل عليها. المبلّغ الأمين لا يصنع نسخةً مخففةً من الدين ليرضي الجمهور؛ لكنه يعرض الحق بحكمة ورحمة، دون كتمانٍ أو تحريف.

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

لو كُتم شيءٌ مما أمر بتبليغه، لاختلت وظيفة الرسالة؛ لأن أجزاء الوحي يشد بعضها بعضًا. لكن النبي ﷺ معصومٌ في تبليغه، وقد أدى كل ما أمره الله به.

وهذه الآية حجةٌ على من يزعم أن النبي ﷺ أخفى شيئًا من الوحي أو خص به طائفةً دون الأمة. فدين الله بُلغ ظاهرًا بيّنًا، ولا توجد طبقةٌ سرية من العقائد تخالف ما تلقاه الصحابة ونقلوه.

ولورثة الأنبياء نصيبٌ من الأمانة بحسب علمهم: لا يجوز للعالم أن يكتم حكمًا ثابتًا خوفًا على مكانته، ولا أن يحدث الناس بما لا يفهمون على وجهٍ يفتنهم؛ فالحكمة في طريقة البيان لا تعني حذف الحقيقة.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي يحفظك حتى تؤدي الرسالة، فلا يستطيعون قتلك قبل تمام البلاغ. وقد أصابه ﷺ من الأذى والجراح ما أصابه، لكن الله حفظ حياته حتى أكمل الدين.

والعصمة هنا لا تعني أن الطريق سيكون بلا ألم؛ فقد يُحفظ الإنسان من سقوط الرسالة، لا من جراح الطريق. الحماية الإلهية لا تلغي الابتلاء، لكنها تمنع الابتلاء من إبطال المقصد الذي أراده الله.

وفي الآية تحريرٌ للمبلّغ من الخوف: لا تجعل الناس أكبر من الرسالة. الذي أمرك بالكلمة يملك أن يحفظك، وإن قدّر عليك أذًى فلحكمة، ولن يضيع عنده صبرك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

لا يهديهم هداية التوفيق ما داموا مصرين على الكفر، ولا يوصل كيدهم إلى إبطال نور الله. قد يحاصرون المبلّغ، لكنهم لا يستطيعون محاصرة الحقيقة التي ضمن الله بقاءها.

الآية الثامنة والستون

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾.

جملةٌ تهدم الاتكاء على الاسم. لستم على شيءٍ معتبرٍ من أمر الدين حتى تقيموا ما أنزل الله، ومن إقامة الوحي السابق اتباع الرسول الخاتم الذي جاء مصدقًا ومهيمنًا.

قد يملك الإنسان تاريخًا دينيًّا طويلًا، ومعابد وطقوسًا ومؤسسات، ثم لا يكون على شيءٍ إذا انقطعت هذه الصور عن طاعة الله. فالدين ليس ما راكمته الذاكرة حول النص، بل ما أقامه الوحي في الحياة.

وهذه الآية تصيب المسلم بالعبرة قبل أن يصوبها إلى غيره: لا يكفي أن تقول «أنا من أمة القرآن» والقرآن معطلٌ في ضميرك. قيمة الانتساب بمقدار ما يقيمه فيك من توحيدٍ وعدلٍ ورحمة.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

يتكرر المعنى لأن القلب قد يتعجب: كيف يُقابل الكتاب الواضح بمزيدٍ من الكفر؟ والجواب أن المشكلة في الإرادة. كلما زاد البيان، شعر المتكبر أن تراجعه صار أصعب على كبريائه، فيزيد عنادًا ليدافع عن صورته السابقة.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

لا يستهلكك الحزن على من اختار الكفر بعد البيان. ليس هذا إلغاءً للرحمة، بل منعٌ للحزن من أن يعطل حامل الرسالة. أمضِ في البلاغ؛ فهناك قلوبٌ أخرى تنتظر النور.

الآية التاسعة والستون

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تأتي هذه الآية بعد المواجهة العقدية لتقرر قاعدة العدل الإلهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾.

ليست الأسماء وحدها مناط النجاة. لا تنفع تسمية «مسلم» بلا حقيقة الإسلام، كما لا يغني الانتساب إلى موسى أو عيسى عن اتباع ما جاء به الرسول في زمنه.

والصابئون طوائف اختلف المفسرون في تحديدهم، وقيل: قومٌ خرجوا من دينٍ إلى دين، أو قومٌ لهم بقايا من التوحيد والعبادة. والمقصد الجامع أن ميزان الله لا يتوقف عند اللافتة التي يحملها الإنسان، بل ينفذ إلى إيمانه وعمله وموقفه من الحجة التي بلغته.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

من كان من أتباع الأنبياء قبل بعثة محمد ﷺ مؤمنًا بنبيه على الحق، موحدًا لله، مؤمنًا بالآخرة، عاملًا صالحًا؛ فهو من أهل النجاة. أما بعد بعثة النبي ﷺ وبلوغ رسالته، فلا يصح الإيمان بالله مع رد رسوله الخاتم؛ لأن الإيمان بالرسل وحدةٌ لا تقبل الانتقاء.

فالآية لا تقرر أن العقائد المتناقضة كلها طرق نجاة بعد قيام حجة الإسلام، وإنما تهدم وهم الامتياز بالأسماء، وتقرر أن النجاة كانت لأتباع كل رسولٍ حقًّا في زمنهم، وأن من بلغته الرسالة الخاتمة لزمه الإيمان بها.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

الخوف يتعلق بما سيأتي؛ فلا يخافون عذاب المصير إذا لقوا الله بالإيمان الصحيح والعمل الصالح.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الحزن يتعلق غالبًا بما فات. فلا يحزنون على دنيا تركوها، ولا على طاعةٍ قدموها، ولا على شهوةٍ منعوا أنفسهم منها لله. هناك يرون أن كل ما بذلوه كان أقل من الجزاء، وأن كل ما فاتهم لم يكن يستحق حسرةً واحدة.

وما أوسع السكينة في اجتماع النفيين: لا خوفٌ من المستقبل، ولا حزنٌ على الماضي. وهذا هو السلام الكامل الذي لا تملكه الدنيا؛ فالإنسان فيها بين ذكرى تؤلمه واحتمالٍ يقلقه. أما أهل النجاة، فقد أُغلقت وراءهم أبواب الحزن، وفُتحت أمامهم أرضٌ لا يدخلها الخوف.

وهكذا تختم هذه الوحدة بابًا بدأ باتهام الله بالبخل، وانتهى بوعدٍ لا حدود لكرمه: أمنٌ من الخوف والحزن. وبين البداية والنهاية دعوةٌ إلى تصحيح الظن بالله، وإقامة الكتاب، واتباع الرسول، والعمل الصالح.

فالله ليس بخيلًا على عباده؛ بابه مفتوح، وكتابه نازل، ورسوله مبلغ، وجنته مهيأة. لكن الإنسان هو الذي قد يغل يديه عن الطاعة، ثم يتهم الطريق بأنه لم يوصله. أما من أقبل بالإيمان والتقوى، وجد أن يدي الفضل مبسوطتان، وأن خزائن الرحمة أوسع من ماضيه كله.

الفصل السادس عشر

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَة

حين يعمى القلبُ عن الفتنة، ويأكل المسيحُ وأمُّه الطعام، ويأتي التوحيد لينقذ المحبة من الغلو

الآية السبعون

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

تعود السورة إلى الميثاق؛ لأنه الخيط الذي يشدّ موضوعاتها كلها. أحكام الطعام، والطهارة، والعدل، والدماء، والولاية، والحكم بالوحي؛ ليست أجزاءً متفرقة، بل بنودٌ في عهد العبودية.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

الميثاق مأخوذٌ من الله، فلا يجوز أن يتحول إلى وثيقةٍ تُفتح حين تخدم المصلحة وتُغلق حين تثقل على الهوى. لكنه لم يُترك بلا تذكير:

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾.

كان إرسال الرسل تجديدًا للرحمة والحجة. كلما نسي الناس بعث الله فيهم من يعيدهم إلى أصل العهد، فكأن أبواب السماء ظلت تطرق قلوبهم مرةً بعد مرة.

لكن المعضلة لم تكن في غياب البيان، بل في موقف النفس منه: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾.

ها هنا مركز الأزمة: جاء الرسول بما لا تهوى النفس. ولو جاءت الرسالات لتبارك كل ما يشتهيه الإنسان، لما عارضها أحد؛ لكن وظيفة الوحي أن يقود الهوى، لا أن ينقاد له.

إن أكثر لحظات الدين كشفًا لحقيقة صاحبه هي حين يقول له الوحي: لا. لا تمد يدك، لا تتبع شهوتك، لا تظلم خصمك، لا تجعل مصلحتك إلهًا. هناك يعرف الإنسان: هل كان يعبد الله، أم كان يستعين باسم الله على عبادة نفسه؟

والنفس لا تكره الحق دائمًا لأنه غامض، بل لأنه يكلّفها أن تتنازل. قد تفهمه جيدًا، لكن فهمه يهدد امتيازًا أو عادةً أو موقعًا. ولهذا لا تكفي براعة الحجة إذا كان الهوى قد أغلق باب الاستجابة.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

قسموا الرسل بين تكذيبٍ وقتل. فإذا استطاعوا إسقاط الرسالة بالكلمة فعلوا، وإذا عجزت الكلمة عن إخمادها امتدت اليد إلى حاملها.

وجاء الفعل ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار بشاعة الفعل وتكرر النمط؛ فكأن مشهد القتل حاضرٌ لا يبرح الذاكرة.

والقتل هنا يكشف النهاية المنطقية لعبادة الهوى: إذا عجز الإنسان عن تغيير الحقيقة، حاول إسكات من ينطق بها. يبدأ بتحريف كلامه، ثم بتشويه سمعته، ثم بإقصائه، وقد ينتهي بإزالة جسده.

لكن قتل الرسول لا يقتل الرسالة. قد يُسكت الصوت، وتتحول الدماء نفسها إلى مدادٍ يكتب صدق الكلمة في التاريخ.

الآية الحادية والسبعون

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

ظنوا ألا يكون اختبارٌ ولا عقوبة ولا نتيجةٌ لنقض الميثاق. وهذه هي الغفلة حين تتحول إلى عقيدة: أن يتوهم الإنسان أن أفعاله بلا عواقب، وأن تاريخه أو انتسابه سيحميه من سنن الله.

حين يأمن الإنسان الحساب قبل أن يحاسب نفسه، يسهل عليه كل شيء. يظلم ثم يقول: نحن الأحباء؛ وينقض ثم يظن أن العهد ما زال يحرسه. كأنه يريد من الله أن يحفظ له امتياز الميثاق بعد أن أضاع هو واجباته.

﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾.

ليس العمى هنا فقد العين، ولا الصمم فقد الأذن، بل تعطيل وظيفة الإدراك. الآيات أمامهم، لكنهم لا يريدون رؤيتها؛ والنداء يبلغهم، لكنهم لا يريدون سماعه.

إن الجوارح قد تكون سليمةً، ويكون الإنسان محرومًا من ثمرتها. يرى الحدث ولا يرى العبرة، ويسمع النص ولا يسمع الخطاب الموجه إلى نفسه. يحول كل موعظةٍ إلى مادةٍ يحاكم بها غيره.

وقدم العمى لأن الفتن كثيرًا ما تدخل من فساد الرؤية: يرى الباطل مصلحةً، والحق خطرًا، والمصلح عدوًّا، والطاغية حاميًا. فإذا انقلبت الصورة في عينه، صمّ بعد ذلك عن كل صوت يصححها.

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

على الرغم من التكذيب والعمى والصمم، فتح الله لهم باب الرجوع وقبل توبة من تاب. ما أوسع حلم الله على عباده! يمنحهم بعد السقوط فرصة، وبعد الفرصة فرصة.

وتوبة الله عليهم نعمةٌ كان ينبغي أن تصنع تواضعًا دائمًا؛ فمن ذاق العفو جديرٌ ألا يعود إلى موضع الجريمة. لكن بعض النفوس تتعامل مع الصفح لا بوصفه فضلًا، بل بوصفه ضمانًا لتكرار الذنب.

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾.

عاد كثيرٌ منهم إلى المرض بعد التوبة. وقال ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ ليخرج من لم يعد، ويبقى العدل دقيقًا.

والانتكاس بعد التوبة أشد ألمًا؛ لأن الإنسان يكون قد رأى الطريق ثم رجع عنه. لكن وقوع الانتكاس لا يعني أن باب التوبة قد أُغلق ما دامت الحياة؛ وإنما يوجب خوفًا أعظم من الثقة بالنفس.

لا تقل: لقد تبت، فلن أعود. قل: يا رب، ثبّتني. فالقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء على ما يليق بجلاله، والعبد لا يستغني عن التثبيت لحظة.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

هم عَمُوا عن الحق، لكن الله بصيرٌ بأعمالهم. قد تفقد النفس قدرتها على رؤية قبحها، ولا يفقد الفعل حقيقته في علم الله.

إن أخطر مراحل المعصية أن يتوقف صاحبها عن رؤيتها معصية؛ ينام ضميره، لكنه لا يمحو الكتاب الذي تُكتب فيه الأعمال.

الآية الثانية والسبعون

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

يكرر القرآن الحكم على القول بألوهية المسيح؛ لأن القضية تمس أصل الدين كله:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

لا يلتبس التوحيد القرآني: الله هو الخالق، والمسيح مخلوقٌ كريم، عبدٌ ورسول. ولا تجعل المعجزات صاحبها إلهًا؛ فهي دلائل على قدرة الله الذي أجراها على يديه.

ثم لا يكتفي القرآن بنفي الدعوى، بل يأتي بشهادة المسيح نفسه: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

هذه الجملة تختصر رسالة المسيح: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. لم يقل: اعبدوني، بل وجّه العبادة إلى الله. ثم قال: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، فجعل نفسه معهم تحت ربوبيةٍ واحدة. ومن كان له ربٌّ يعبده لا يكون هو الرب المعبود.

وما أعظم الوفاء بالمسيح في الإسلام! لا يستخدمه القرآن لمجرد نقض خصومه، بل يحرره من الصورة التي وضعه الغلو فيها، ويعيد إليه أجمل مقام: مقام العبودية لله. فالعبودية ليست نقصًا في حق النبي؛ إنها ذروة كماله البشري.

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾.

الشرك أعظم الظلم؛ لأنه يمنح حق الخالق لمخلوق. وإذا مات الإنسان على الشرك الأكبر دون توبة، حُرمت عليه الجنة. أما من تاب قبل موته وآمن، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا.

ولا يجوز أن يتحول هذا الحكم العام إلى عدوان على الأفراد أو استباحةٍ لحقوقهم؛ الحساب الأخروي لله، والتعامل الدنيوي تحكمه الشريعة من عدلٍ وعهودٍ وحقوق.

﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

المأوى هو المكان الذي يرجع إليه الإنسان ويستقر، لكن يا لبؤس مأوى النار! كان يبحث عن الأمن في غير الله، فانتهى إلى موضعٍ لا أمن فيه.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

الشرك ظلم، وأهله يوم القيامة بلا ناصر يدفع عنهم حكم الله. المخلوقات التي عُلقت بها القلوب لا تستطيع عندئذ أن تحمل عن عابديها شيئًا.

الآية الثالثة والسبعون

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

تنقض الآية عقيدة التثليث وما تتضمنه من جعل الألوهية لثلاثة. والتوحيد لا يقبل أن يُقال: واحد في المعنى وثلاثة في الأقانيم على وجهٍ يجعل لكلٍّ ألوهية؛ فالقرآن يعلن بوضوح: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

جاءت ﴿مِنْ﴾ لتأكيد الاستغراق: ليس في الوجود أي إله بحق إلا الله الواحد. واحدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شريك له، ولا ولد، ولا يتجزأ، ولا يحل في مخلوق.

إن التوحيد ليس مسألة حسابية تقول إن الرقم واحد أقل من ثلاثة؛ بل حقيقة وجودية تحرر الكون من التنازع. مصدر الخلق واحد، ومصدر الأمر واحد، وغاية العبادة واحدة. لذلك يستطيع القلب أن يجمع نفسه؛ فلا يتوزع بين آلهةٍ لكل منها طلب.

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾.

سمّاه قولًا، لكنه قولٌ يحمل مصيرًا؛ فالعقائد ليست أصواتًا محايدة، بل تعريفٌ بالله وبموضع الإنسان منه. إذا فسد تصور العبد عن ربه، فسد مركز الوجود في قلبه.

والانتهاء ممكن؛ لا يزال الباب مفتوحًا. لو كانت الآية تريد إغلاق طريق العودة، لما قالت: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾. إنها تهدد، لكنها تحمل في داخل التهديد دعوة: انتهوا، وعودوا إلى الواحد.

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾، لأن الحكم متصل بمن ثبت على الكفر، لا بمجرد الانتماء القومي. ومس العذاب تعبيرٌ عن إصابته المباشرة، لكنه ليس مسًّا عابرًا؛ بل عذاب أليم.

الآية الرابعة والسبعون

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد أشد أحكام العقيدة يأتي أرق سؤال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ؟﴾

ما أعجب رحمة الله! ذُكر الكفر والشرك وحرمان الجنة وعذاب النار، ثم لم يقل: فليُطردوا؛ بل قال: أفلا يتوبون؟

الاستفهام يحمل تحضيضًا ممزوجًا بالرحمة، كأن الباب مفتوحٌ والعبد واقفٌ خارجه، والله يدعوه إلى الدخول. ما الذي يمنعه؟ كبرياء الاعتراف؟ خوفه من الناس؟ ثقل الماضي؟ وكل ذلك أهون من أن يبقى بعيدًا.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾.

التوبة رجوعٌ عن الطريق، والاستغفار طلبٌ لمحو آثاره. وقد يرجع الإنسان بجسده، لكن قلبه يظل مطاردًا بذكرياته؛ فيأتي الاستغفار ليعلمه أن الله لا يكتفي بأن يدلّك على المستقبل، بل يستطيع أن يطهر وراءك الطريق الذي لوثته.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لم يقل: وكان غفورًا، بل جاء بالاسمين الدالين على الثبوت والاستمرار. مغفرته ليست حادثةً نادرة، ورحمته ليست نافذةً ضيقة.

إن الآية تقطع طريق اليأس على كل مذنب. إذا كان من قال بألوهية المسيح والتثليث يُدعى إلى التوبة، فأي عاصٍ يحق له أن يقول: لا مغفرة لي؟ إن اليأس أحيانًا ليس تواضعًا، بل سوء ظنٍّ بسعة الله.

الآية الخامسة والسبعون

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

تضع الآية المسيح وأمه في مقامهما الرفيع دون غلو: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ ليست انتقاصًا؛ فالرسالة من أعلى مقامات البشر. لكنها تنفي الألوهية، وتثبت النبوة. كان عيسى آيةً في مولده، ورسولًا في حياته، وعبدًا لله في حقيقته.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

هو حلقةٌ عظيمة في سلسلة الرسل، لا خروجٌ عن طبيعتهم البشرية. جاء قبله أنبياء بالآيات، ثم مضوا؛ والمعجزة لا تجعل حاملها إلهًا.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾.

رفع القرآن مريم إلى مقام الصديقية: شديدة التصديق بالله، صادقة في إيمانها، طاهرة عابدة. لم ينتقصها الإسلام كي ينقض الغلو فيها، بل كرّمها التكريم الحق.

وهذه قاعدة التوازن: لا نعالج الإفراط بالتفريط. من غلا في الصالح لا نرده بإهانة الصالح، بل نثبت فضله وننفي عنه ما ليس له.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

جملةٌ بسيطة تهدم بناءً عقديًّا معقدًا. الذي يأكل يحتاج، والذي يحتاج ليس إلهًا. الطعام يدخل الجسد لأنه مفتقرٌ إلى ما يقيمه، ويلزم من الأكل ما يلزم طبيعة البشر.

لم يقل القرآن: كانا يأكلان طعامًا مخصوصًا؛ فالعبرة بفعل الأكل نفسه. إنهما داخلان في قانون الحاجة، والله هو الغني الذي يطعم ولا يُطعم.

ما أبلغ القرآن حين يعيد الفكر من تجريداته المضطربة إلى حقيقةٍ يراها كل إنسان: المسيح وأمه يأكلان. لا يحتاج البرهان دائمًا إلى تعقيد، بل إلى عينٍ لا تهرب من الواضح.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾.

دعوةٌ إلى التأمل في وضوح الحجة وتنوعها: شهادة المسيح، ووحدة الألوهية، وحاجة المخلوق إلى الطعام.

﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

أي كيف يُصرفون عن الحق مع ظهوره؟ العجب ليس في غموض الحقيقة، بل في قدرة الهوى والموروث على صرف الإنسان عنها.

وقد يرث المرء الفكرة قبل أن يملك أدوات السؤال، ثم تصير جزءًا من هويته؛ فيشعر أن مراجعتها خيانةٌ لأهله، لا بحثٌ عن الله. عندئذ يحتاج إلى شجاعةٍ أخلاقية قبل حاجته إلى حجةٍ عقلية.

الآية السادسة والسبعون

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

سؤالٌ يعيد العبادة إلى معيار القدرة. كيف يُعبد من كان عبدًا، ويُدعى من لا يملك استقلالًا ضرًّا ولا نفعًا؟

﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

لا يملك المخلوق الضر والنفع استقلالًا، وإن جعله الله سببًا في شيءٍ منهما. والطبيب يعالج بإذن الله، والدواء ينفع بما أودع الله فيه، والإنسان يساعد أخاه بقدرةٍ وهبها الله؛ لكن لا أحد يملك النتائج من ذاته.

والقلب حين يتعلق بالسبب كأنه مالكٌ مستقل، يصنع صنمًا ولو لم ينحنِ أمام حجر. قد يكون الصنم وظيفةً يظن أنه إن فقدها انتهت حياته، أو شخصًا يتصور أن رضاه مفتاح النجاة، أو مالًا يعتقد أنه يحرسه من القدر.

التوحيد لا يطلب منك ترك الأسباب، بل أن تنزع عنها ثوب الألوهية. استخدمها بيدك، ولا تسجد لها بقلبك.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

يسمع دعاءك، ويعلم حاجتك، بخلاف ما يُدعى من دونه. هو يسمع الصوت الخافت، ويعلم الحاجة التي لم تستطع أن تصوغها في دعاء.

وتقديم الضمير ﴿هُوَ﴾ يفيد التوكيد: هو الكامل في السمع والعلم، فلا تحتاج إلى أن تجعل بينك وبينه معبودًا يسمعك أو يخبره بحالك. باب الدعاء مفتوح، وربك أقرب بعلمه وإجابته.

الآية السابعة والسبعون

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

الغلو مجاوزة الحد. وقد يبدأ بمحبةٍ مشروعة، ثم يضيف إليها الجهل ما يحولها إلى عبادة. أحبوا المسيح، وكان واجبًا أن يحبوه رسولًا، فجاوز قومٌ حد المحبة حتى نسبوا إليه الألوهية.

والقيد ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يدل على أن التعظيم المشروع مضبوط بالحق؛ نحب الأنبياء والصالحين، ونوقرهم، ولا نرفعهم فوق منازلهم. والجفاء خطأ، والغلو خطأ، والطريق بينهما عدل.

وهذا التحذير للأمة المسلمة أيضًا من جهة العبرة؛ فقد حذر النبي ﷺ من الإطراء الذي وقع فيه النصارى، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم». فلا يُدعى وليٌّ من دون الله، ولا يُطلب من ميتٍ ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يُرفع بشرٌ إلى مقام العصمة المطلقة بعد الرسل.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾.

الانحراف لا يبدأ دائمًا من نصٍ محرّف، بل من هوىً يبحث عن نص. أجيالٌ سابقة ضلت، ثم ورّثت ضلالها في صورة تقاليد يصعب السؤال عنها.

وليس قِدم الفكرة دليلًا على صحتها. قد يعيش الخطأ قرونًا، وتحيط به المؤسسات والطقوس، لكنه يبقى خطأ. الزمن يستطيع أن يكسو الباطل مهابة، ولا يستطيع أن يمنحه حقيقة.

﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾.

لم يكتفوا بضلال أنفسهم، بل صاروا قادةً إليه. والخطأ حين يصدر عن صاحب مكانة لا يبقى خاصًّا؛ يتكاثر في المقلدين. قد يقول العالم كلمةً واحدة، فيعيش أثرها بعد موته في آلاف النفوس.

ولذلك كانت القيادة الدينية أمانةً مرعبة: قد يدخل العالم الجنة بأجيالٍ دلها، أو يحمل من أوزار أجيالٍ أضلها دون أن ينقص من أوزارهم شيء.

﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

بدأوا ضالين، ثم أضلوا غيرهم، ثم ازدادوا ضلالًا. فالذي ينشر الخطأ يضطر غالبًا إلى الدفاع عنه، وكل دفاعٍ جديد يبعده أكثر عن نقطة الرجوع. يصبح أسير الجمهور الذي بناه حول فكرته، ويخشى الاعتراف لأن آلافًا سيسألونه: لماذا قدتنا هنا؟

وهكذا يكشف القرآن أن الغلو ليس فائض محبة، بل نقص توحيد؛ وأن أعظم وفاءٍ للمسيح عليه السلام أن نسمع كلمته: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

لقد جاء عيسى ليقود الناس إلى الله، فجعل الغلاة الطريقَ غاية، والرسولَ معبودًا، والآيةَ إلهًا. أما القرآن فيأخذ بأيديهم من جديد، وينزع عن المسيح أثقال الألوهية التي لم يدّعها، ويعيده إلى مقامه البهي: رسولًا صادقًا، وعبدًا خاشعًا، وكلمةً من الله تهدي إلى عبادة الله وحده.

الفصل السابع عشر

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

حين يبدأ السقوط بذنبٍ فردي، ثم يكتمل بصمت الجماعة، وتفيض أعين الصادقين حين يعرفون الحق

الآية الثامنة والسبعون

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

بعد التحذير من الغلو واتباع الأهواء، تعرض السورة شهادة نبيين كريمين على انحراف طوائف من بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولم يجعل اللعنة متعلقةً بالانتساب العرقي. العدل الإلهي لا يلعن الدم والنسب، بل الكفر والمعصية والعدوان. ومن آمن منهم واتبع الحق خرج من هذا الوعيد.

واللعنة هي الإبعاد والطرد من رحمة الله. وما أبأس الإنسان إذا أبعدته معصيته عن الرحمة التي لا يستطيع أن يعيش لحظةً دون آثارها!

﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

داود وعيسى عليهما السلام نبيان من أنبياء بني إسرائيل، ومع ذلك لعن الكافرين منهم. فالأنبياء لا تحكمهم العصبية القومية؛ لا ينصرون قومهم على الحق، بل ينصرون الحق في قومهم وعليهم.

وهذا هو الفرق بين النبي والزعيم العصبي: العصبية تقول «قومي وإن ظلموا»، والنبوة تقول «العدل وإن كان على قومي». الانتماء في ميزان الوحي مسؤولية، لا حصانة.

واجتماع داود وعيسى في الآية يُظهر اتصال الرسالات: صوتان يفصل بينهما زمن طويل، لكنهما نطقا بميزان واحد؛ لأن المصدر واحد.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

الجزاء له سببه: عصيانٌ في العلاقة بالله، واعتداءٌ على حقوق الخلق. وكأن فساد الإنسان يتحرك في اتجاهين: يقطع حبل الطاعة فوقه، ثم يمد يده بالظلم إلى من حوله.

وجاء ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ليدل على الاستمرار؛ لم تكن زلةً انكسرت لها قلوبهم، بل نمطًا ألفوه. المعصية التي يعقبها ندمٌ قد تفتح باب التوبة، أما المعصية التي تتحول إلى عادةٍ مدافَعٍ عنها فتقسو بها الروح.

الآية التاسعة والسبعون

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

هنا يكشف القرآن المرض الاجتماعي الذي جعل المعصية العامة تستوجب اللعنة: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾.

لم يقل فقط: لا ينهون؛ بل ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾، أي لا ينهى بعضهم بعضًا، ولا يتبادل المجتمع حراسة قيمه. سقطت المناعة الجماعية، فصار المنكر يمر بلا مقاومة.

قد يبدأ الفساد بفرد، لكنه لا يصبح ثقافةً إلا حين يكف الآخرون عن الاعتراض. المفسد الأول يفتح الباب، والصامتون يوسّعونه، والمبررون يزينونه، والمنتفعون يقفون عليه حراسًا.

﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

المنكر ما أنكره الشرع والفطرة السوية. وكانوا يفعلونه بالفعل، لا مجرد خاطرٍ مرّ في النفس. ومع ذلك لم ينشأ بينهم تيارٌ جاد يرده.

قد يرى الإنسان المنكر فينكره أول مرة، ثم يتكرر أمامه فيخف استنكاره، ثم يألفه، ثم يغضب ممن ينكره لأنه يزعج هدوء التعايش معه. وهكذا تنتقل النفس من مقاومة الشر إلى حماية راحتها بجواره.

إن الاعتياد مخدّرٌ أخلاقي. حين تتكرر الرشوة، يقال: هكذا تسير الأمور. وحين يعم الظلم، يقال: لا أحد يستطيع التغيير. وحين يُنتهك الضعيف، يقال: لا تتدخل فيما لا يعنيك. وبكلماتٍ صغيرة تُدفن مسؤولية أمة.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

جعل القرآن ترك التناهي فعلًا قبيحًا، لا مجرد غياب فعل. الصمت في موضع وجوب البيان موقف، والحياد بين الظالم والمظلوم انحيازٌ عملي إلى الأقوى.

لكن النهي عن المنكر له علمٌ وحكمة وقدرة، وله مراتب ومآلات. لا يبرر الحماس فوضىً أو منكرًا أعظم، كما لا يجوز أن تتحول المآلات إلى ذريعة أبدية للصمت. المصلح يسأل: كيف أزيل المنكر أو أقلله دون أن أصنع شرًّا

أكبر؟ أما الجبان فيسأل: كيف أعثر على عبارةٍ شرعية تريحني من كلفة الموقف؟

وليس الأمر بالمعروف احتقارًا للعاصي؛ بل رحمة به. من رأى أخاه يتجه إلى حفرة ولم يحذره لا يكون متسامحًا، بل متخليًا عنه. لكن الرحمة تختار الكلمة التي تفتح القلب، لا التي تشبع كِبر الناصح.

الآية الثمانون

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾.

لا يزال القرآن يقول: ﴿كَثِيرًا﴾، فلا يسمح لنا أن نستبدل دقته بتعميمٍ ظالم. يتحدث عن فئاتٍ اختارت الولاية المنحرفة، لا عن كل فرد.

﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي ينصرونهم ويصطفون معهم على حساب الحق وأهله، طلبًا لعزةٍ أو مصلحة. وقد سبقت السورة إلى بيان أن الولاية غير البر والعدل والتعامل المشروع.

إن الإنسان إذا تخلى عن مرجعيته، لا يبقى بلا ولاء؛ ينتقل من ولاءٍ إلى ولاء. القلب لا يعيش في فراغ، فإذا لم يتعلق بالله تعلّق بقوةٍ يظنها تحميه.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.

كل عملٍ في الدنيا تقديمٌ للآخرة. أنت ترسل أمامك كل يومٍ رسائل لن تقرأها كاملةً إلا حين تصل. كلمة قلتها، وحقٌ حفظته، وموقف خنته؛ كلها تنتظرك هناك.

ويا للعجب: النفس التي يبرر الإنسان لأجلها المعصية هي نفسها التي قدمت له هذا المصير. قال: أفعل لمصلحتي، فإذا بمصلحته المزعومة تصير عدوه.

﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

ما أقسى أن يرضى عنك من واليتهم ويسخط عليك الله! لقد ربحوا دائرةً صغيرة من القبول، وخسروا الرضا الذي لا قيمة لكل قبولٍ بدونه.

﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

قدمت الجملة ما يفيد اختصاصهم واستقرارهم في العذاب إن ماتوا على الكفر. لقد طلبوا الحماية في ولاية الباطل، فانتهوا إلى موضعٍ لا يستطيع أولياؤهم أن يخرجوهم منه.

الآية الحادية والثمانون

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

الإيمان ليس معلومةً محايدة؛ له أثرٌ في اختيار الجهات التي ينحاز إليها الإنسان: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾.

لو استقر الإيمان حقًّا في قلوبهم، لأعاد ترتيب علاقاتهم وولاءاتهم. لا يمكن أن يقول المرء: أؤمن بالرسالة، ثم يجعل نصرته العميقة لمن يحاربها.

﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

الإيمان يخلق حساسيةً في القلب تجاه مواضع النصرة. ليس المطلوب أن يعادي الإنسان العالم كله، بل أن يعرف الفرق بين تعاملٍ مشروع وتحالفٍ يبيع به دينه ومظلوميه.

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

الفسق هو الذي أحدث الانفصال بين ما ينبغي أن يقتضيه الإيمان وما فعلوه. وقال: ﴿كَثِيرًا﴾ مرةً أخرى، ليظل الحكم محكومًا بالواقع لا بالتحامل.

الآية الثانية والثمانون

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

تصف الآية واقع الجماعات التي واجهت الدعوة في زمن التنزيل، وتكشف صفاتٍ تفسر قرب بعضهم وبعد بعضهم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

المقصود مَن ظهرت منهم هذه العداوة للدعوة والمؤمنين، ولا تُتخذ الآية مسوغًا لظلم كل يهودي أو الحكم على قلبه قبل فعله. فالأحكام الدنيوية تتعلق

بالمواقف الظاهرة، والقرآن نفسه أثبت وجود المستقيمين والمؤمنين من أهل الكتاب.

وقد اشتدت عداوة طوائف يهود المدينة لما اجتمع فيها من حسدٍ على انتقال النبوة، ومصالح مهددة، ونقضٍ للعهود؛ كما اشتدت عداوة المشركين لأن التوحيد هدد مركز أصنامهم وبنية سلطانهم.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾.

أي طوائف من النصارى اتصفوا بما سيأتي، ومن أبرز من ظهر فيه ذلك نصارى الحبشة ومن قدموا فسمعوا القرآن فآمنوا. وليست الآية تصحيحًا لعقيدة التثليث التي نقضتها الآيات السابقة، بل وصفٌ لقربٍ وجداني لدى فئاتٍ كان فيها علمٌ وعبادة وتواضع.

وهذا من إنصاف القرآن العجيب: ناقش عقيدتهم بأشد الوضوح، ثم لم يمنعه الخلاف العقدي من الاعتراف بما في بعضهم من مودةٍ ورقة. الحق لا يحتاج إلى ظلم المخالف كي يثبت.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾.

القسيسون أهل علمهم، والرهبان أهل العبادة والزهد. فوجود علمٍ يذكّر بالوحي، وعبادةٍ تخفف سلطان الدنيا، صنع في بعضهم استعدادًا لسماع الحقيقة.

العلم الصادق يفتح صاحبه على الدليل الجديد، أما العلم الذي تحول إلى منصب فيغلقه. والزهد الصادق يحرر الإنسان من المصالح التي تمنعه من الاعتراف، أما الرهبانية الشكلية فقد تتحول هي نفسها إلى مصلحة.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

هذه هي الصفة الفاصلة. كم من إنسانٍ حال بينه وبين الحق أنه لم يحتمل أن يأتيه على يد غيره! وكم من عالمٍ عرف الحجة، لكن الاعتراف بها كان يعني أن يجلس تلميذًا بعد أن اعتاد مقام الأستاذ!

التواضع لا يعني ضعف الشخصية، بل أن تكون الحقيقة عندك أغلى من صورتك. المتواضع يستطيع أن يقول: كنت مخطئًا؛ والمتكبر يفضل أن يبقى على الباطل على أن يراه الناس يتراجع.

وهكذا ربط القرآن قرب المودة بعدم الاستكبار؛ لأن القلب المتواضع أرضٌ رخوة ينزل فيها المطر، أما المتكبر فصخرةٌ ينحدر عنها الماء وإن أصاب سطحها.

الآية الثالثة والثمانون

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ها هي ثمرة التواضع تظهر في لحظة السماع: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾.

لم يسمعوا شعرًا يطرب الخيال وحده، بل وحيًا خاطب فيهم بقية الفطرة والوحي القديم. كانت الكلمات جديدةً على آذانهم، لكنها مألوفةٌ لأعماقهم؛ كأن القلب كان ينتظر الصوت الذي يفسر حنينه.

﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾.

لم يقل: تدمع فقط، بل ﴿تَفِيضُ﴾؛ كأن الدمع أكثر من أن تحمله العين. امتلأ الداخل بالحقيقة حتى فاضت على الجسد.

ليست كل دمعةٍ برهان هداية، فالعاطفة وحدها لا تكفي؛ لكن دموع هؤلاء خرجت من معرفة: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾. اجتمع العقل والقلب، فكانت المعرفة نارًا أذابت جليد الروح.

وقد يقرأ المرء القرآن سنواتٍ ولا تفيض عينه، لا لأن القرآن فقد أثره، بل لأن الاعتياد بنى بينه وبين الكلمات غلافًا. يسمع الآية بوصفها محفوظًا قديمًا، ولا يسمعها خطابًا يصل إليه الآن من رب العالمين.

إن العين التي لا تبكي ليست محكومًا عليها بالقسوة دائمًا؛ فالناس يختلفون في طبائعهم. لكن القلب الذي لا يتحرك بمعنى الوحي يحتاج أن يسأل نفسه: ما الذي غطّى موضع التأثر فيّ؟

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾.

لم يكتفوا بالإعجاب بجمال القرآن، بل انتقلوا إلى الإيمان. كم من إنسانٍ يصف البيان القرآني بالعظمة، لكنه يقف عند عتبته ولا يدخل في طاعته! هؤلاء عرفوا أن الحق لا يطلب تصفيقًا، بل تسليمًا.

وقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾؛ فانتقلوا من الحديث عن الله إلى مناجاته. المعرفة الحية تقصر المسافة بين المعلومة والدعاء.

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

سألوا أن يثبتهم الله مع أمة محمد ﷺ الشاهدة بالحق، أو مع الشاهدين بوحدانية الله وصدق رسله. لم يريدوا إيمانًا سريًّا بلا انتماء، بل أن تُكتب أسماؤهم في سجل من حملوا الشهادة.

وما أرق فعل ﴿اكْتُبْنَا﴾! كأن للحق ديوانًا، وهم يرجون ألا تبقى أسماؤهم خارجه. قد تُمحى أسماء الإنسان من سجلات الأرض، لكن ما يهم أن يُكتب عند الله مع الشاهدين.

الآية الرابعة والثمانون

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾.

بعد أن تبين الحق، صار عدم الإيمان عندهم هو الشيء الذي يحتاج إلى تفسير. كأنهم يقولون: أي مانع بقي؟ لقد عرف القلب صوته، فما معنى أن نتأخر؟

وهذه حال الصادق: قبل ظهور الدليل يبحث، وبعد ظهوره لا يصطنع عوائق. أما من يحب مكانته أكثر من الحق، فإنه كلما سقط عذرٌ صنع عذرًا آخر.

﴿بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾.

الإيمان بالله يقود إلى الإيمان بما جاء منه؛ فلا يصح أن يقول الإنسان: أحب الله، ثم يرفض خبره حين يخالف هواه. الله ليس فكرةً عاطفية يصوغها كل أحد كما يريد؛ له وحيٌ يعرّفنا به ويخبرنا بما يحب.

﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

الطمع هنا رجاءٌ ممتد إلى فضل الله. لم يغتروا بدموعهم ولا بسرعة استجابتهم، بل تمنوا أن يدخلهم ربهم مع الصالحين.

وقالوا: ﴿مَعَ﴾؛ فالروح الصادقة تشتاق إلى الصحبة الطيبة حتى في الجنة. ليست غايتها القصور وحدها، بل أن تكون في موكب الأنبياء والصديقين والصالحين.

والصالح لا يقول: أدخلني لأنني استحققت، بل يطمع أن يدخله ربه. العمل سبب، والفضل هو الذي يحمل العبد إلى الجنة.

الآية الخامسة والثمانون

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾.

ليس المراد مجرد ألفاظٍ تحرك بها اللسان، بل قولٌ صدّقه الإيمان والإخلاص. الكلمة عند الله قد تفتح الجنة إذا خرجت من قلبٍ عرف الحق وانقاد له.

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

كانت أعينهم تفيض من الدمع، فأعطاهم الله أنهارًا تجري. دموعٌ قليلة في لحظة صدق، قابلها فيضٌ لا ينقطع. وما يبذله العبد لله صغيرٌ في حجمه، لكن الكريم يضاعفه بما يليق بكرمه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

دمعة الدنيا تنتهي، أما الفرح الذي وُلد منها فلا ينتهي. في الأرض تتقطع اللحظات الجميلة بالموت والفراق، وفي الجنة يُنزع عن النعمة خوف الزوال.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أدخلهم في مقام الإحسان؛ لأنهم أحسنوا الاستماع، وأحسنوا الاستجابة، وتواضعوا للحق حين عرفوه. والإحسان ليس مظهرًا زائدًا على الإيمان، بل أن تتلقى الحق بأجمل ما فيك: عقلٍ منصف وقلبٍ خاشع وإرادةٍ مستجيبة.

الآية السادسة والثمانون

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

على الجهة الأخرى يقف من سمعوا الآيات ثم كفروا وكذبوا:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

لم تنقصهم الآيات، لكنهم اتخذوا منها موقف التكذيب. وبين الفريقين كتابٌ واحد: سمعه قومٌ ففاضت أعينهم، وسمعه آخرون فزادهم عنادًا. الفارق لم يكن في النور، بل في النافذة.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

كما كانت الجنة جزاء المحسنين، كان الجحيم مصير المكذبين. لا ظلم في الحكم؛ كل فريقٍ مضى في الطريق الذي اختاره حتى بلغ نهايته.

وفي مقابلة المشهدين درسٌ عظيم: قد يكون أقرب الناس إلى الحق من لم تتوقعه، وأبعدهم عنه من عاش إلى جوار ألف دليل. لا تحكم على القلوب من أسمائها ولا من تاريخها؛ قد يخرج الإيمان من صدر رجلٍ كان بالأمس من أهل كتابٍ مخالف، وتذبل الهداية في قلب من ورث القرآن ولم يتدبره.

إن القيمة ليست في طول الوقوف عند الباب، بل في الدخول حين يُفتح. أولئك القسيسون والرهبان سمعوا، فعرفوا، فبكوا، فآمنوا، فسألوا أن يُكتبوا، فكتبهم الله مع المحسنين.

خمس حركاتٍ قصيرة نقلتهم من ضفةٍ إلى ضفة: **سماعٌ منصف، ومعرفةٌ بالحق، ورقةٌ في القلب، وإعلانٌ للإيمان، وطمعٌ في صحبة الصالحين.**

وهكذا يعلمنا القرآن أن الطريق إلى الله قد يبدأ من قطرة دمع، إذا كانت تلك القطرة قد خرجت من عينٍ أبصرت الحقيقة، لا من عاطفةٍ عابرة. وقد يبقى الإنسان سنين بين الكتب، لكن أول حياته الحقيقية تبدأ في اللحظة التي يقول فيها للحق بعد أن عرفه: **ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين.**

الفصل الثامن عشر

لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ

حين يحرس الوحيُ الإنسانَ من رهبانية الغلو، ويحرره من خمر الشهوة وميسر الوهم

الآية السابعة والثمانون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

بعد الحديث عن قسيسين ورهبانٍ رقّت قلوبهم للحق، يأتي الخطاب إلى المؤمنين محذرًا من أن تنقلب الرغبة في العبادة إلى تحريمٍ لما أحله الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الإيمان لا يعني الخصومة مع الحياة، ولا أن يثبت الإنسان حبه لله بتعذيب فطرته. الذي خلق الروح هو الذي خلق الجسد، والذي أمر بالصلاة هو الذي أباح الطعام والزواج والراحة والجمال.

﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

التحليل والتحريم حقٌّ لله؛ فلا يملك الإنسان أن يضيف إلى الدين قيدًا من عنده، ولو ظن أنه يتقرب بذلك. قد يترك المرء مباحًا تربيةً لنفسه أو زهدًا فيه دون اعتقاد تحريمه، لكن لا يجوز أن يجعل تركه شريعةً أو يرى من فعله أقل إيمانًا.

إن الغلو يبدأ أحيانًا من نيةٍ صالحة لم يهذبها العلم. يريد الإنسان أن يسمو، فيظن أن السمو لا يكون إلا بكراهية الجسد؛ ويطلب الآخرة، فيحسب أن الطريق إليها يمر بتحريم الدنيا كلها. لكن الإسلام لا يقيم الروح على أنقاض الفطرة، بل يهذب الفطرة حتى تصير مطيّةً إلى الله.

الطعام الطيب إذا أُكل بشكر عبادة، والزواج إذا أُقيم بالعفة عبادة، والنوم إذا استُعين به على الطاعة عبادة. ليست العبادة أن تهرب من إنسانيتك، بل أن تعيد كل جزءٍ منها إلى مراد خالقه.

وقد يختبئ الكبر في ثوب الزهد. يحرم الإنسان على نفسه ما أباح الله، ثم ينظر إلى الناس الذين يتمتعون بالمباح كأنهم أقل منه منزلة. وهنا يتحول ترك الطعام إلى غذاءٍ للأنا، ويصبح الزهد نفسه شهوةً خفية.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾.

الاعتداء تجاوز الحد، ويشمل تحريم الحلال كما يشمل تناول الحرام. ليس الإفراط وحده اعتداء؛ التفريط في حقوق النفس والأهل اعتداء كذلك. من سهر الليل كله في نافلةٍ حتى ضيع فريضة النهار لم يفقه التوازن، ومن أهمل أهله باسم العبادة نسي أن لهم عليه حقًّا.

وقد لخّص النبي ﷺ المنهج حين أنكر على من أراد أن يصوم فلا يفطر، أو يقوم فلا ينام، أو يترك الزواج، وبيّن أن سنته تجمع العبادة وحقوق الفطرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

حتى الاعتداء الذي يرتدي ثوب التدين لا يحبه الله. وليس المهم أن يبدو الفعل شاقًّا، بل أن يكون موافقًا لما شرعه الله. الشيطان قد يعجز عن دفع الإنسان إلى المعصية، فيدفعه إلى غلوٍّ يخرجه من الاعتدال.

الآية الثامنة والثمانون

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

لم يكتف القرآن بالنهي عن التحريم، بل جاء بالأمر: ﴿وَكُلُوا﴾.

كأن الوحي يريد أن يزيل من النفس شعور الذنب تجاه النعمة الحلال. كُلْ؛ فالذي أباح لك هو ربك، والاستمتاع بعطائه مع الشكر ليس بعدًا عنه.

لكن الأمر مقيد بمعيارين: حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

الحلال وصفٌ لطريق وصول الشيء إليك، والطيب وصفٌ لذاته وأثره. قد يكون الطعام طيب المذاق، لكنه جاء من مالٍ مسروق فلا يكون حلالًا. وقد يكون المال حلالًا، لكن الطعام ضارّ أو خبيث فلا يكون طيبًا.

الإسلام لا يسأل الإنسان فقط: ماذا تأكل؟ بل: من أين جئت به؟ وكم من مائدةٍ فاخرة قام وراءها عاملٌ حُرم أجره، أو يتيمٌ أُكل ميراثه، أو مالٌ عام نُهب! قد يكون الطبق جميلًا في الصورة، لكن يد المظلوم تظهر في ميزان الله.

﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

نسب الرزق إليه ليوقظ الشكر. أنت تعمل وتبيع وتشتري، لكن الأسباب كلها تتحرك داخل رزقه. هو الذي منحك العقل والقدرة والفرصة، وأخرج من الأرض ما تأكل، وساق إليك من الناس من صنع ونقل.

وحين يرى الإنسان الرزق من الله، يتحرر من عبودية صاحب العمل والسوق. يشكر من أحسن إليه من الخلق، لكنه لا ينسى أن القلوب والأبواب والأموال كلها بيد الرزاق.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

ربط الطعام بالتقوى؛ لأن المباح نفسه قد يُفسده الإسراف، أو يوقع صاحبه في الغفلة، أو يُطلب بطريقٍ حرام. والتقوى لا تطرد الإنسان من المائدة، بل تجلس معه إليها، فتضبط اليد، وتذكر القلب، وتحفظ حق الجائع.

ومن التقوى ألا تتحول نعمتك إلى منظرٍ يجرح المحرومين، وألا تلقي بالطعام بينما يموت غيرك جوعًا. الشكر ليس أن تقول «الحمد لله» وفمك ممتلئ فقط، بل أن يفتح الحمد عينك على من ليس في يده ما في يدك.

الآية التاسعة والثمانون

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بعد النهي عن تحريم الطيبات، تأتي أحكام الأيمان؛ لأن بعض الناس قد يحلف أن يمتنع عن مباح، ثم يظن أن يمينه تحوّل المباح إلى حرامٍ أبدي.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

لغو اليمين ما يجري على اللسان بلا قصدٍ لعقد اليمين، كقول المرء في عادته: لا والله، وبلى والله، على أحد أقوال المفسرين والفقهاء. وهذا من رحمة الله؛ لا يحاسب الإنسان على كل صوتٍ سبق إليه لسانه دون قصد.

إن الشريعة تفرّق بين الحركة العارضة والإرادة المعقودة. والله لا يترصد لعباده زلات الألفاظ ليعاقبهم عليها، بل يعلم قصد القلب ودرجة اختياره.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾.

التعقيد شدُّ العقدة؛ أي ما قصدتموه وجزمتم به. والكلمة حين تُعقد باسم الله تكتسب وزنًا؛ فقد جعل الحالف الله شاهدًا على عزمه، فلا يليق أن تكون الأيمان لعبةً في فمه.

ومن استخف بالحلف أضعف هيبة اسم الله في قلبه، ثم أضعف الثقة بكلامه بين الناس. كثرة الأيمان لا تقوي صدق الإنسان؛ قد تكشف أن كلمته وحدها لم تعد كافية.

فإذا حنث في يمينه، أو رأى أن الخير في خلاف ما حلف عليه، شرعت الكفارة. وقد قال النبي ﷺ بمعنى الحديث الصحيح: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه. فالإسلام لا يجعل اليمين قيدًا يمنع الخير؛ يحفظ حرمتها بالكفارة، ويفتح الطريق إلى الصواب.

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾.

خطأ اللسان يعالج بإطعام البطون. كأن الشريعة تحوّل تعثر الفرد إلى منفعةٍ اجتماعية. لم تُترك الكفارة شعورًا داخليًّا بالندم، بل صارت خبزًا يصل إلى عشرة محتاجين.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

لا يطعمهم أردأ ما لا يرضاه لأهل بيته، ولا يُكلف بأفخر ما يعجز عنه؛ بل من الوسط المعتاد. هكذا تجمع الشريعة الكرامة واليسر: تحفظ للمسكين إنسانيته، ولا تحول الكفارة إلى عسرٍ مبالغ فيه.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾.

قد يدخل الدفء إلى جسد المسكين من خطأٍ وقع فيه الحالف. الثوب الذي يستر فقيرًا يصير جسرًا يمحو أثر يمينٍ لم تُحفظ.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

وتحرير الإنسان من الرق أحد خيارات الكفارة في زمن وجوده الشرعي؛ ليظهر كيف فتحت الشريعة منافذ متعددةً لإنهاء الرق وتحرير البشر. خطيئةٌ فردية تتحول إلى ميلاد حريةٍ لإنسان.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾.

من عجز عن الإطعام أو الكسوة أو العتق انتقل إلى الصيام. لم يُسقط عنه معنى التكفير، ولم يكلفه مالًا لا يملك؛ نقل العبادة من المال إلى الجسد.

وهنا يظهر عدل الشريعة: الغني يفتح يده للمحتاج، والفقير يجاهد شهوته بالصوم؛ كلٌّ يتقرب بما يستطيع.

﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

الكفارة سترٌ ومحوٌ وجبر. لا تجعل الخطأ نهاية العلاقة بالله؛ أصلحه بما شرع، ثم امضِ. الدين لا يريد أن يبقى الإنسان أسير هفوته، بل أن يتعلم كيف يحولها إلى إصلاح.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

احفظوها من كثرة الحلف، ومن الكذب، ومن الحنث بلا حاجة، وأدوا كفارتها إذا حنثتم. حفظ اليمين حفظٌ لحرمة اسم الله، وحفظٌ للكلمة من الابتذال.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

حتى تفصيل الكفارة نعمة تستوجب الشكر؛ لأنه علّمنا كيف نخرج من آثار أخطائنا. لولا البيان لبقي الإنسان بين التهاون واليأس: إما أن يستخف بيمينه، وإما أن يظن أنه لا سبيل إلى جبرها.

الآية التسعون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

يأتي النداء بالإيمان قبل تحرير الإنسان من أربعة أبواب للرجس:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾.

الخمر ما خامر العقل وستره، وكل مسكرٍ خمرٌ ومحرم. والعقل من أعظم الأمانات؛ به يعرف الإنسان ربه، ويميز الحق، ويحفظ كرامته. فإذا ستره المسكر، انخفض الإنسان عن مقام اختياره، وأطلق غرائزه بلا حارس.

قد يشرب الإنسان طلبًا لنسيان ألمٍ، لكنه لا يمحو الألم؛ يؤجله ويضيف إليه ألم الإدمان. يريد الهرب من نفسه، فإذا أفاق وجدها تنتظره أكثر انكسارًا.

والخمر تعد الشارب بلحظة تحرر، لكنها تسلبه أعظم حرياته: حرية الوعي. يوهمه الكأس أنه كسر القيود، وهو في الحقيقة سلّم إرادته لمادة تدخل دمه وتقرر عنه.

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾.

الميسر هو القمار؛ مالٌ ينتقل بلا مقابلٍ مشروع، يقوم على مخاطرةٍ يكون ربح أحد أطرافها من خسارة آخر. سُمي ميسرًا لتوهم صاحبه أنه طريقٌ يسير إلى المال.

إنه حلم الثروة بلا عمل، ولذلك يفتن النفس التي تملّ طريق الكسب الطويل. يعطيها احتمالًا صغيرًا، فتبني عليه قصرًا من الوهم، ثم تدفع وراءه المال والسكينة والأسرة.

وفي عصرنا تتبدل صور الميسر: رهانات وألعاب ومنصات تُصمم لإبقاء الإنسان أسير الأمل الكاذب. قد يخسر مئة مرة، وتظل المرة المحتملة القادمة تشده؛ لأن القمار لا يبيع ربحًا، بل يبيع وهم الاقتراب منه.

﴿وَالْأَنْصَابُ﴾.

هي الحجارة التي كان يُذبح عندها أو تعبد من دون الله، فتربط الطعام والنسك بالشرك.

﴿وَالْأَزْلَامُ﴾.

سهام الاستقسام التي يطلب بها أهل الجاهلية معرفة الحظ والقرار. وقد مضى معنا أنها هروبٌ من مسؤولية الاختيار إلى الخرافة.

﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

الرجس خبثٌ ودنس. وجمع هذه الأشياء تحت وصفٍ واحد لأنها تفسد العقل والمال والعقيدة والإرادة. والشيطان لا يصنع الخمر بيده، لكنه يزينها، ويغري بها، ويستثمر آثارها في هدم الإنسان.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾.

لم يقل فقط: لا تشربوا الخمر ولا تمارسوا الميسر، بل أمر بالاجتناب؛ أي الابتعاد عن الشيء وأسبابه ومجالسه المفضية إليه. فالإنسان لا يضمن نفسه إذا ظل يدور حول النار.

والعاقل لا يثبت قوته بالاقتراب من الفتنة، بل يثبت بصيرته بمعرفة مواطن ضعفه. من قال: أستطيع الجلوس ولن أتأثر، قد فتح للشيطان أول الباب. النجاة ليست دائمًا في قوة المقاومة، بل في حكمة الابتعاد.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح لا يكون بإضافة المسكر إلى الحياة، بل بإخراجه منها. قد يظن المجتمع أن التحريم حرمان، لكن كم من بيتٍ يعود إليه السلام إذا غادرته الخمر! وكم من طفلٍ يسترد أباه إذا نجا من القمار!

الآية الحادية والتسعون

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

تكشف الآية ما وراء اللذة الظاهرة من خطةٍ شيطانية: ﴿أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

الخمر تضعف العقل، فيخرج ما كان مكبوتًا من الغضب، وتتحول الكلمة إلى شجار واليد إلى سلاح. والميسر يجعل ربح أحدهم مبنيًّا على خسارة الآخر، فتجلس البغضاء إلى المائدة منذ البداية.

العداوة في السلوك، والبغضاء في القلب؛ والشيطان يريد فساد العلاقات ظاهرًا وباطنًا. يبدأ الأمر بكأسٍ يتشاركها الرفاق، وقد ينتهي ببيتٍ مفكك ودمٍ مسفوك. ويبدأ القمار بلعبة، ثم ينتهي بخصومةٍ وديون وكراهية.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

المسكر يغيب الوعي الذي يذكر، والقمار يستولي على التفكير حتى يعيش اللاعب بين خسارةٍ يريد تعويضها وربحٍ يريد مضاعفته. كلاهما يحتل مساحة القلب التي خُلقت للذكر.

والذكر ليس حركة لسانٍ فقط؛ إنه بقاء الله حاضرًا في ميزان القرار. فإذا صد الشيطان الإنسان عنه، صار يتصرف كأن لا حساب ولا نظر.

﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

خص الصلاة بالذكر لأنها عمود الصلة. الإدمان يعيد ترتيب الزمن حول حاجته، فتصير الصلاة عائقًا، ثم تُؤخر، ثم تُترك. وكل شهوةٍ تضيق بالصلاة تخشى أن تأتي الصلاة فتفك سلطانها.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

سؤالٌ لا يحتاج إلا جواب الاستسلام. ليس: هل فهمتم الضرر؟ بل هل ستتوقفون؟ قد يعرف الإنسان كل أضرار الإدمان، لكنه يبقى عالقًا؛ فالمعرفة لم تتحول إلى قرار.

وقد أجاب الصحابة بقلوبهم وألسنتهم: انتهينا ربنا. فأُريقت الخمور في طرق المدينة، لأن الإيمان كان أقوى من العادة. لم يفاوضوا النص على كميةٍ آمنة، بل لما جاء أمر الله انكسرت الكؤوس قبل أن تنكسر الإرادة.

الآية الثانية والتسعون

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

بعد قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ يأتي الأمر بالطاعة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

كرر فعل الطاعة مع الرسول ﷺ لتقرير وجوب طاعته؛ فهو المبلغ والمبين، وسنته وحيٌ من الله بالمعنى الذي قرره أهل العلم، وبيانه جزءٌ من الدين.

ولا يعني استقلال فعل الطاعة أن للرسول تشريعًا مضادًّا لله؛ بل طاعته من طاعة الله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

﴿وَاحْذَرُوا﴾.

جاء التحذير مطلقًا ليشمل الحذر من المعصية، ومن حيل النفس، ومن خطوات العودة إلى المحرم. فالإدمان لا يهجم دائمًا بصورةٍ كاملة؛ قد يبدأ بذكرى، أو صحبة، أو «تجربة أخيرة».

والحذر ليس خوفًا مرضيًّا، بل وعيٌ بأن القلب يتغير، وأن التائب يحتاج إلى حماية بيئته، لا الاعتماد على قوة عزيمته وحدها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾.

إذا أعرضتم، فلن يضر الإعراض الرسالة، بل يعود عليكم. الوحي لا يفقد حقيقته لأن أحدًا تركه، كما لا تنطفئ الشمس لأن رجلًا أغلق نافذته.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

أدى الرسول ما عليه؛ بلاغًا واضحًا لا لبس فيه. لم يُكلّف بإكراه القلوب، ولا بحمل الناس قسرًا على الانتهاء. وحين تقوم الحجة، ينتقل حمل القرار إلى المخاطَب.

الآية الثالثة والتسعون

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لما نزل تحريم الخمر، خاف الصحابة على إخوانٍ ماتوا قبل التحريم وقد شربوها حين لم تكن محرمةً بعد؛ فجاءت الآية ترفع الحرج: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾.

لا مؤاخذة على ما تناولوه قبل نزول التحريم، ما داموا في زمنه على الإيمان والتقوى. فالله لا يعاقب عباده على حكمٍ لم يُبلّغهم به، ولا يجعل التشريع اللاحق إدانةً للماضي الذي كان مباحًا.

وهذا من عدل الله: التكليف مرتبط بالبيان والاستطاعة. لا يُحاسب الإنسان على أنه لم يعرف ما لم يصله، وإنما يُسأل عما بلغه وكيف استجاب له.

لكن الآية لا تعني أن المؤمن بعد التحريم يستطيع تناول الخمر ما دام يقول إنه تقي؛ فالتقوى نفسها تقتضي ترك ما حرم الله. لا يُستخدم أول الآية لهدم شروط آخرها.

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

اجتمع باطن الإيمان وظاهر العمل وحارس التقوى. ثم تكرر: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾.

تكرار التقوى ليس حشوًا، بل تصويرٌ لرحلة المؤمن في درجاتها وأزمانها. يتقي ما علم تحريمه، ثم كلما جاءه بيانٌ جديد صدّقه واستجاب له، ثم يترقى من مجرد الترك إلى مقام الإحسان.

وقيل في التكرار وجوه متعددة: اتقوا الشرك وآمنوا، ثم اتقوا المحرمات وثبتوا على الإيمان، ثم اتقوا الشبهات وأحسنوا. والمعنى الجامع أن التقوى ليست لحظةً تنتهي، بل حراسةٌ متجددة لكل مرحلة.

الإنسان لا يعيش على تقوى الأمس. لكل يومٍ فتنته، ولكل قوةٍ جديدة امتحانها. قد يتقي الفقر، فإذا جاءه الغنى احتاج إلى تقوى أخرى؛ ويتقي الضعف، فإذا صار صاحب سلطة احتاج إلى تقوى أدق.

﴿وَأَحْسَنُوا﴾.

الإحسان أوسع من اجتناب الخمر؛ أن يعبد الإنسان الله كأنه يراه، وأن يجعل أثر التقوى جمالًا في معاملته. ليس المقصود فقط أن تُبعد الكأس عن فمك، بل أن تملأ يدك بالخير، وقلبك بالرحمة، ووقتك بالطاعة.

فالفراغ الذي تتركه المعصية يجب أن يُملأ بالإحسان، وإلا ظل القلب يحن إلى عادته القديمة. التوبة ليست أن تغلق بابًا فقط، بل أن تفتح أبوابًا أنقى.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

بدأت الآيات بالنهي عن تحريم الطيبات، ثم حرمت الخبائث، وانتهت بمحبة الله. وكأن الغاية ليست مجرد مجتمعٍ لا يشرب الخمر، بل إنسانٌ يحبه الله.

ليس الترك نهاية الطريق. قد يترك المرء الحرام خوف العقوبة، وهذه نجاة؛ لكنه إذا تجاوزه إلى الإحسان، صار يتركه حبًّا في الله، ويعوض لذته بلذة القرب.

وهكذا تربي السورة الشهوة في ميزانٍ بالغ الدقة: لا تحرم الطيبات فتعتدي على الفطرة، ولا تستبح الخبائث فتعتدي الفطرة عليك. كُل من رزق الله، واحفظ يمينك، واجتنب الرجس، وأطع الرسول، ثم ارتقِ من حدود الحلال والحرام إلى أفقٍ أعلى: **أن يحبك الله لأنك من المحسنين.**

الفصل التاسع عشر

لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْد

حين تمرُّ الفريسةُ قريبًا من اليد، ويغدو الامتناعُ شهادةً على خشية الغيب

الآية الرابعة والتسعون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بعد أن اختبرت الآيات المؤمن في شهوة الشراب والقمار، تنتقل إلى اختبارٍ من نوع آخر: صيدٌ مباحٌ في أصله، لكنه يُمنع في حال الإحرام. والفتنة هنا ليست في شيءٍ بعيدٍ يعجز الإنسان عن بلوغه، بل في فريسةٍ تقترب حتى تكاد تضع نفسها بين يديه.

﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾.

جاء الفعل مؤكدًا؛ فالابتلاء ليس احتمالًا طارئًا في طريق الإيمان، بل سنة. ما دام الإنسان يقول: آمنت، فلا بد أن يجيء موضعٌ يُكشف فيه وزن الكلمة.

والله يعلم ما كان وما يكون قبل وقوعه، وإنما يبتلي ليظهر معلومه في عالم الفعل، ويتميز الصادق من غيره، وتقوم الحجة، ويرى الإنسان حقيقة نفسه التي ربما كانت خفيةً عنه.

قد يظن المرء أنه صابرٌ لأنه لم ير ما يشتهي، وعفيفٌ لأنه لم تُفتح له الأبواب، وأمينٌ لأنه لم توضع الأمانة وحدها بين يديه. ثم يأتي الابتلاء، لا ليخبر الله بما يجهل — تعالى الله — بل ليخبر الإنسانَ بنفسه.

﴿بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾.

قال: ﴿بِشَيْءٍ﴾؛ فالابتلاء مهما عظم في شعور العبد، ليس إلا شيئًا محدودًا من عالمٍ واسع. لم يحرم عليهم الطعام كله، بل نوعًا في زمن مخصوص. وهكذا يفعل الهوى: يضخم الممنوع حتى يحجب عن العين بحار المباح.

حين نُهي آدم عن شجرة، كانت حوله جنة؛ لكن الشجرة المنهية تستطيع في لحظة الغفلة أن تملأ مجال الرؤية كله. والتقوى أن تتذكر ما أباح الله حتى لا تصنع من الحد الصغير جدارًا يخفي النعمة الواسعة.

﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾.

من الصيد ما يكون قريبًا تناله اليد، ومنه ما يحتاج إلى الرمح. أي إن الفرصة ستكون متاحة، والقدرة حاضرة، ولا يحول بين الإنسان والفعل إلا أمر الله.

وهنا يظهر معدن الخشية. ليس الامتناع عند العجز فضيلةً كاملة؛ إنما الاختبار حين تستطيع ولا تفعل. حين يكون الهاتف في يدك، والباب مغلقًا، والسر لا يطلع عليه بشر، والحرام قريبًا لا يحتاج إلا لمسة؛ ثم تقول لنفسك: إن الله يراني.

إن التقنية الحديثة قربت كثيرًا من الصيد إلى الأيدي. ما كان يحتاج رحلةً ووقتًا صار يصل إلى الإنسان في خلوته بلحظة. ولهذا صار معنى ﴿تَنَالُهُ

﴿أَيْدِيكُمْ﴾ أوسع وقعًا في ضمير العصر: القدرة تتضخم، لكن السؤال القديم يبقى — مَن يحكم اليد حين تستطيع؟

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

أي ليظهر علمه بمن يخافه وهو غائبٌ عن أعين الناس، ومؤمنٌ بالله الذي لم يره، أو يخشاه في خلوته. وهذه هي ذروة المراقبة: أن تكون الخشية حاضرةً حين تغيب الرقابة.

الحضارة تستطيع أن تضع كاميراتٍ في الطرق، لكنها لا تستطيع أن تضعها في النيات. تستطيع مراقبة اليد، ولا تستطيع أن تمنع القلب من تمني الخيانة. أما الإيمان فيبني داخل الإنسان عينًا من المراقبة: ليست عينًا ترى الله — فالله غيب في الدنيا — بل قلبًا يعلم أن الله يراه.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾.

بعد البيان والابتلاء المقصود، يصبح التجاوز اعتداءً. لم يعد خطأً وقع في عتمة الجهل، بل تخطيًا لحدٍّ يراه صاحبه.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لأن الجريمة لم تكن قتل حيوانٍ فحسب، بل سقوط هيبة الأمر من القلب. وكل حدٍّ صغير يتجرأ الإنسان على تجاوزه يدرّبه على حدٍّ أكبر، ما لم تدركه التوبة.

الآية الخامسة والتسعون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

حال الإحرام ليست ثوبين فحسب، بل دخولٌ في حرم السلام. يكف المحرم يده عن الصيد، مع أنه كان حلالًا له قبل إحرامه، ليعيش تمرينًا عمليًّا على أن الوجود ليس غنيمةً دائمة.

في الإحرام تتبدل علاقة الإنسان بالطبيعة. الحيوان الذي يراه في غيره فرصة صيد يصبح الآن كائنًا آمنًا. وهذه تربيةٌ للقوة: تستطيع، لكنك لا تفعل؛ ترى، لكنك لا تنقضّ؛ لأن بينك وبينه عهدًا أقامه الله.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾.

القصد له أثره؛ فالآية نصت على المتعمد في الوعيد والجزاء، وقد فصّل الفقهاء أحكام العمد والخطأ وما يلزم في كل صورة. والشريعة لا تسوي بين من تعمد الانتهاك ومن زلت يده بلا قصد، وإن ترتب في بعض صور الخطأ ضمانٌ أو جزاء بحسب الأحكام الفقهية.

﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾.

يُقابل الصيد بما يماثله من بهيمة الأنعام في الخِلقة والتقدير، في المشهور من تفسير الآية. فالعقوبة تعيد إلى النفس الإحساس بقيمة ما أتلفت؛ لا تمر الجريمة كأن شيئًا لم يقع.

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾.

لم تترك المماثلة لتقدير الجاني وحده؛ فقد يميل إلى ما يخفف عنه. ولم تترك للغاضبين؛ فقد يجاوزون. بل يحكم عدلان من أهل المعرفة.

إن العدالة تحتاج إلى مؤسساتٍ وشهادةٍ وتقدير، لا إلى انفعال. حتى في صيد حيوان، يستدعي القرآن رجلين عدلين؛ فكيف بدماء البشر وأموالهم وأعراضهم؟ كيف يجرؤ الناس على إصدار الأحكام الكبرى بخبرٍ عابر أو صورةٍ مبتورة؟

﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾.

يُساق الجزاء هديًا إلى الحرم ويذبح فيه ويوزع على مساكينه وفق أحكامه. فيتحول الاعتداء على الصيد إلى عبادةٍ وجبرٍ وإطعام. الخطأ لا يُمحى بإهماله، بل بإصلاح أثره.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾.

خياراتٌ ينتقل فيها التكفير من الحيوان إلى الطعام، أو إلى الصيام بما يعادل ذلك وفق تفصيل أهل العلم. ومرةً أخرى يدخل المسكين في كفارة خطأ غيره؛ كأن الشريعة تصب قنوات التكفير في مواضع الحاجة الاجتماعية.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾.

الوبال عاقبة الفعل وثقله. لا يكفي أن يعرف الإنسان نظريًّا أن الاعتداء خطأ؛ يحتاج أحيانًا إلى أن يذوق أثره، ليترسخ في نفسه احترام الحد.

العقوبة التربوية ليست إذلالًا، بل إعادة وصلٍ بين الفعل ونتيجته. كثير من الانحراف ينشأ حين يتوهم الإنسان أن الأفعال بلا ثمن.

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

ما وقع قبل البيان أو في الزمن السابق عفا الله عنه. تأتي الرحمة في وسط الحكم، فتمنع الماضي من أن يبتلع صاحبه.

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

من عاد إلى الانتهاك بعد العلم، مصرًّا مستخفًّا، فقد عرّض نفسه لانتقام الله. فالعودة تكشف أن الجزاء الأول لم يوقظ القلب، وأن المسألة لم تعد زلة شهوة، بل استهانةً متكررة.

وانتقام الله عدلٌ محض، لا يشبه ثأر البشر الذي يخالطه الغضب والعجز وتجاوز الحد. نثبت ما أثبته الله لنفسه على الوجه اللائق بجلاله؛ وهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

عزيزٌ لا يعجزه المعتدي، ذو انتقام ممن استحق عقوبته. قد يهرب الجاني من حكم الناس، لكنه لا يخرج من سلطان العزيز.

الآية السادسة والتسعون

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

بعد تفصيل المنع، تفتح الآية باب الإباحة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾.

صيد البحر هو ما أُخذ منه حيًّا، وطعامه ما لفظه ميتًا أو ما يُطعم منه، على ما جاء في أقوال السلف والفقهاء، وقد ثبت في السنة أن ماء البحر طهورٌ وميتته حلال.

وفي إباحة البحر للمحرم تيسيرٌ ظاهر، خصوصًا للمسافرين. فالشريعة لا تقصد تجويع المحرم، وإنما تربيه بمنعٍ مخصوص وتترك له أبوابًا من الرزق.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

أي منفعةً للمقيمين والمسافرين. والبحر مخزن رزقٍ يمتد مع الإنسان في رحلته، فلا يحتاج إلى حمل طعامٍ كثير. وكلمة ﴿السَّيَّارَةِ﴾ هنا تعني جماعة المسافرين، لا المركبات المعروفة في الاستعمال الحديث.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

حدد التحريم بمدة الإحرام؛ فإذا انتهت الحال عاد الأصل. وهذه الدقة تمنع التدين من أن يحول الحكم المؤقت إلى تحريم دائم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ما الصلة بين سمكةٍ وصيدٍ وحشر الآخرة؟ القرآن يربط أصغر حركةٍ بالمصير الأكبر. اليد التي تمتنع اليوم عن صيدٍ محرم ستقف غدًا في الحشر، والعمل الذي يبدو هينًا محفوظٌ في الطريق إلى الله.

الحشر جمعٌ بعد تفرق. تخرج البشرية من قبورها، لا يحمل المحرم ثوب إحرامه، ولا الصياد رمحه، ولا الغني ماله؛ يحمل كلٌّ أثر الطاعة أو الاعتداء.

الفصل العشرون

الْكَعْبَةُ قِيَامًا لِلنَّاس

مركزٌ ثابتٌ في عالمٍ متحرك، وحرمةٌ تحفظ الزمن والرزق والإنسان

الآية السابعة والتسعون

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بعد أحكام الإحرام والصيد، ترتفع الآية إلى سر المركز الذي تنتظم حوله هذه الحرمات: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾.

القيام ما تقوم به الحياة وتستقيم. جعل الله الكعبة قوامًا لأمور الدين والدنيا: قبلةً توحد الصلاة، ومهوىً للقلوب، وموطنًا للحج، ومكان أمنٍ واجتماع ومنافع.

في عالمٍ تتعدد فيه الجهات، أعطى الله المؤمنين جهةً واحدة. قد يختلف لون المصلين ولسانهم ووطنهم، لكنهم إذا قاموا لله استداروا جميعًا نحو بيتٍ واحد. القبلة لا تلغي اختلافهم، بل تمنحه مركزًا لا يمزق وحدتهم.

والكعبة نفسها بناءٌ من حجارة، لكنها اكتسبت الحرمة بجعل الله. المؤمن لا يعبدها، وإنما يعبد ربها متجهًا إليها بأمره. ولو عبد الحجر لكان خارج التوحيد، لكنه حين يستقبل البيت يعلن طاعته لمن اختاره قبلة.

إن الإنسان يحتاج إلى مركز. إذا لم يمنحه الوحي مركزًا، صنعته له الشهوة أو القومية أو السوق. وحين تتعدد مراكز القلب، يتمزق الإنسان بينها. أما الكعبة فتجمع الجسد في جهة، ليجمع التوحيد القلب في وجهة.

﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾.

الحرمة سياج الأمان. يدخل الإنسان الحرم فيتعلم أن ثمة مكانًا لا يُستباح فيه الصيد ولا يُروّع فيه الآمن، ليعود من حجه وقد حمل حرمة الدم والحياة إلى الأرض كلها.

وما أقبح أن يطوف الإنسان بالبيت الحرام ثم لا يقيم في قلبه حرمةً لعباد الله! الحج لا يريد أجسادًا تدور حول الحجارة فقط، بل نفوسًا يعاد ترتيبها حول أمر الله.

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

كما جعل في المكان حرمة، جعل في الزمان حرمة، وفي الحيوان المهدى حرمة، وفي العلامة التي تدل عليه حرمة. كأن شبكةً من الأمان تمتد حول رحلة الحج: الزمان والمكان والناسك والهدي.

والقلائد ما يُقلد به الهدي ليُعرف فلا يُتعرض له. مجرد العلامة تصنع حماية؛ لأن المجتمع المؤمن يحترم المعنى الذي تشير إليه. وحين تسقط هيبة الرموز المشروعة، تحتاج كل قيمةٍ إلى سلاحٍ يحرسها.

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

كيف تدل هذه التشريعات على علم الله؟ لأنها تكشف إحاطةً بحاجات الإنسان: حاجته إلى قبلةٍ توحده، وحرمٍ يأمن فيه، وزمانٍ تهدأ فيه الحرب، وشعائر تضبط علاقته بالكون. لم يشرع الله أحكامًا منعزلة، بل نظامًا تتساند أجزاؤه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يعلم الصيد في شعاب البر، والسمكة في عمق البحر، والنية في صدر المحرم، والخطوة التي تتجه إلى الكعبة. لا يضيع شيءٌ في اتساع الكون عن علمه.

الآية الثامنة والتسعون

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿اعْلَمُوا﴾.

لا يكفي أن تمر هذه الحقيقة بالأذن؛ ينبغي أن تصبح علمًا يحكم السلوك: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

لا يغتر المعتدي بحلم الله، ولا يظن تأخير العقوبة إلغاءً لها. من عاد إلى انتهاك الحدود فقد عرّض نفسه لعقاب من لا يعجزه شيء.

ثم في الجملة نفسها: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الشدة والرحمة لا تتناقضان في كمال الله. عقابه عدل، ومغفرته فضل، وكل منهما في موضعه. من أصر لا يأمن، ومن تاب لا يقنط.

التربية التي تتحدث عن الرحمة وحدها قد تصنع جرأة، والتي تتحدث عن العقاب وحده قد تصنع يأسًا. أما القرآن فيضع القلب بين الخوف والرجاء؛ إذا مال إلى الأمن أيقظه الوعيد، وإذا مال إلى القنوط حملته المغفرة.

واللافت أنه ذكر شدة العقاب، ثم وصف ذاته بالمغفرة والرحمة بصيغتين ثابتتين. كأن أبواب الرجاء أوسع، لكن اتساعها لا يمنح الإنسان رخصةً للإقامة في المعصية.

الآية التاسعة والتسعون

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

أي مهمته التي كُلّف بها تجاه الناس إبلاغ الرسالة وبيانها، وقد فعل ﷺ. أما خلق الإيمان في القلوب ومحاسبة السرائر فإلى الله.

هذه الجملة تحرر الداعية من وهم السيطرة. لا يملك أن يفتح القلب بيديه، ولا أن يجعل كل سامع مستجيبًا. عليه أن يبلغ بصدقٍ وعلم ورحمة، ثم لا يحمل نفسه ما لم يكلّفه الله.

لكنها لا تبرر التقصير؛ فقوله: ﴿الْبَلَاغُ﴾ يعني إيصال الحقيقة بوضوح، لا رمي كلماتٍ جافة ثم لوم الناس. والبلاغ المبين يحتاج إلى فهم المخاطب، وحسن الأسلوب، والصبر على السؤال، والقدوة التي تصدق الكلام.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

الرسول يحكم بالظاهر، أما الله فيعلم المعروض والمخفي. قد يبدي الإنسان الطاعة ويكتم الضيق بالحكم، أو يعلن الاحترام ويخفي الاستهزاء. كل ذلك مكشوفٌ في علم الله.

وفي الآية مواساة للمبلّغ: قد يقول لك شخصٌ إنه اقتنع، وأنت لا تعرف صدقه؛ وقد يعارضك بلسانه وقلبه أقرب إلى الحق مما تظن. لا تتولَّ وظيفة الله في الحكم على السرائر.

الآية المئة

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

تأتي هذه الآية قاعدةً كبرى في تقويم الأشياء: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾.

لا يستوي الحلال والحرام، والمؤمن والكافر، والعمل الصالح والفاسد، والمال النظيف والسحت، والكلمة الصادقة والكذبة النافعة في ظاهرها. قد تتشابه الصور، لكن الحقائق مختلفة.

العصر الذي يقيس الأشياء بالنتائج العاجلة قد يسوي بين طريقين لأن كليهما أوصل إلى المال، وينسى أن أحدهما مرّ فوق حقوق الناس والآخر مرّ من باب الحلال. القرآن يقول: لا يستويان، ولو ظهر الرقم في الحساب واحدًا.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

هنا يكمن خداع الكثرة. للعدد سطوةٌ على النفس؛ إذا رأى الإنسان الباطل منتشرًا، بدأ يشك في حكمه، كأن الحقيقة تُصنع بالإحصاء.

قد يقال: الجميع يفعلون ذلك، وكأن كثرة الفاعلين تحوّل الحرام إلى حلال. وقد يُقاس نجاح الفكرة بعدد متابعيها، وقيمة الكتاب بعدد مبيعاته، وصدق الخبر بعدد مشاركاته. لكن الضجيج لا يغير طبيعة الشيء.

الخبيث قد يكون كثير المال، كثير الأنصار، كثير الظهور؛ والطيب قليلًا هادئًا. غير أن الكثرة لا تزيل الخبث، كما أن كثرة القاذورات لا تحولها طيبًا.

وقوله: ﴿أَعْجَبَكَ﴾ يكشف أن الخطر يبدأ من الإعجاب. قد لا تتبع الخبيث بعد، لكنك تنبهر بقوته وانتشاره، ثم يضعف نفورك منه، ثم تبدأ في تبريره. لهذا يحرس القرآن القلب من المرحلة الأولى: لا تجعل كثرة الخبيث تمنحه مهابةً أخلاقية.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أولو الألباب أصحاب العقول الخالصة من قشرة الهوى. العقل ليس أن تعرف ما هو الأكثر، بل أن تميز ما هو الأطهر. وقد يكون الإنسان ذكيًّا في الحساب، لكنه أحمق في الميزان؛ يحسن جمع الأرباح ولا يحسن رؤية ما خسره من نفسه.

وخاطبهم بالتقوى، لأن العقل وحده قد يتحول إلى أداةٍ تبرر الخبيث إذا خدم المصلحة. التقوى تنظف العقل من الرشوة الداخلية، ليحكم دون أن يشتريه الهوى.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح ليس أن تملك الكثير، بل أن تختار الطيب. قد تخسر صفقةً محرمة فتربح نفسك، وقد تترك طريقًا مختصرًا إلى الشهرة فتصل إلى الله بقلبٍ سليم.

وهكذا تعود السورة إلى مائدتها الأولى: طيبٌ وخبيث، حلالٌ وحرام، حدٌّ واختبار. لكنها ترفع المعنى من صيد الحيوان إلى صيد الحياة كلها.

فالدنيا تعرض أمام الإنسان أشياء كثيرةً تنالها يداه ورماحه: مالًا، وسلطةً، ولذةً، وظهورًا. والسؤال ليس: هل تستطيع أن تأخذ؟ بل: هل أذن الله لك أن تأخذ؟

قد تكون يدك قادرة، والطريق خاليًا، والناس غائبين؛ لكن المؤمن يقف عند حدٍّ لا تراه العيون، لأنه يخاف الله بالغيب. وهناك — في اللحظة التي يمر فيها الخبيث قريبًا من يده فيتركه — يولد الفلاح.

الفصل الحادي والعشرون

لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ

فضولٌ يضيّق السعة، وخرافةٌ تحرّم رزق الله، وآباءٌ يُتَّبعون ولو كانوا لا يعقلون

الآية الحادية بعد المئة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

بعد أن أمرت الآية السابقة أولي الألباب بالتقوى وعدم الاغترار بكثرة الخبيث، تأتي هذه الآية لتربّي العقل نفسه على أدب السؤال. فليس كل سؤالٍ دليل عقل، كما أن الصمت ليس دائمًا دليل جهل؛ قيمة السؤال في مقصده وتوقيته وما يترتب عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾.

لم ينه القرآن عن السؤال مطلقًا؛ فقد أمر بسؤال أهل الذكر، وأقام كثيرًا من تعليمه على أجوبة أسئلة الناس. السؤال الصادق مفتاح العلم، ولا يستغني طالب الحق عنه. لكن المنهي عنه أسئلة التعنت والتكلف والفضول الذي لا ثمرة له، أو السؤال عن تفاصيل سكت الشرع عنها توسعةً، فإذا سُئل عنها زمن الوحي ربما نزل فيها حكمٌ يشق.

قد يسأل الإنسان ليهتدي، وقد يسأل ليمتحن العالم، أو يظهر ذكاءه، أو يفتح أبوابًا لم يُكلّف بدخولها. تتشابه علامة الاستفهام على الشفاه، وتختلف النيات خلفها.

﴿إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

قد تكون الحقيقة نافعة، وقد يكون كشف بعض المستور مؤلمًا بلا ضرورة. ليس النضج أن تعرف كل شيء، بل أن تعرف ما ينفعك أن تعرفه.

كم من إنسانٍ فتش في تفاصيل ماضٍ ستره الله، حتى وجد ما أفسد قلبه ولم يصلح واقعه! وكم من زوجٍ أو صديقٍ حاصر الآخر بأسئلةٍ لا تبني ثقة، بل تبحث عن مادةٍ للشك! الفضول قد يرتدي ثوب الصراحة، وهو في حقيقته رغبةٌ في اقتحام ما لم يؤذن لك فيه.

والآية لا تبرر إخفاء الحقوق والحقائق التي يجب بيانها، ولا تمنع السؤال عن الحلال والحرام والواجبات؛ إنما تعلمنا ألا نحول المعرفة إلى شهوةٍ بلا ضابط.

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

في زمن التنزيل كان السؤال قد يستدعي بيانًا وحيًا. فإذا ظهر الحكم وجب الامتثال، وربما شق على من فتح باب السؤال المتكلف. ولهذا جاء في السنة النهي عن كثرة المسائل والتشدد فيها على نحو ما وقع في الأمم السابقة.

إن بعض الناس لا يطيق رحابة المسكوت عنه؛ يريد في كل تفصيل نصًّا خاصًّا، ثم يصنع من الورع شبكةً من القيود. لكن من رحمة الشريعة أن تركت مساحةً للعفو والاجتهاد والعرف الصحيح.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾.

أي سكت عنها ولم يؤاخذكم بها، أو عفا عما سلف من أسئلتكم. والسكوت الشرعي ليس نسيانًا؛ تعالى الله، بل رحمة. ما لم يحرمه الله ليس لأحدٍ أن يبحث عن طريقٍ لتحريمه.

إن العفو مساحة نور، لا فراغٌ ينبغي أن نملأه بالتشدد. والمؤمن لا يطلب من الدين أن يثقل عليه، بل يتلقى ما شرع الله بلا زيادة ولا نقص.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يغفر تجاوز السؤال إذا تاب العبد، ويحلم فلا يعاجله بالعقوبة. واقتران المغفرة بالحلم يناسب مقام من دفعه فضوله أو تعنته؛ فالله يعلمه ولا يغلق الباب في وجهه.

الآية الثانية بعد المئة

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

السؤال ليس بريئًا دائمًا في نهاياته: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

سألوا رسلهم الآيات والتفاصيل على وجه التعنت، فلما جاءهم الجواب لم يطيعوا. تحولت المعرفة التي طلبوها إلى حجةٍ عليهم.

إن العلم يضاعف المسؤولية. قبل أن تعرف قد يكون لك عذرٌ بالجهل في مواضعه، فإذا عرفت انتقل الامتحان من الفهم إلى الطاعة. ولهذا كان السلف يخافون من علمٍ لا يعملون به؛ فكل آيةٍ تتعلمها تضيء لك الطريق، لكنها تشهد عليك إن اخترت العتمة.

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

إنهم لم يكفروا لغياب الإجابة، بل بعد حضورها. سألوا كأنهم يطلبون اليقين، فلما جاءهم ما طلبوا كشفوا أن المشكلة لم تكن نقص الدليل، بل غياب نية الانقياد.

وقد يسأل المرء: أرني الدليل، فإذا رآه قال: لا يقنعني. ثم يطلب دليلًا آخر، لا لأن الأول ضعيف، بل لأن الاعتراف سيلزمه بتغيير حياته. وحين يصبح السؤال وسيلةً لتأجيل الطاعة، لا يعود بحثًا عن الحقيقة، بل هربًا منها.

الآية الثالثة بعد المئة

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

تقدم الآية نماذج من تحريمات الجاهلية التي اخترعها المشركون ونسبوها إلى الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾.

البحيرة ناقةٌ كانوا يشقون أذنها بعد أوصافٍ أو نتاجٍ معين، ثم يحرمون الانتفاع بها وفق عاداتهم.

﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾.

حيوانٌ يسيبونه لأصنامهم أو لنذرٍ جاهلي، فلا يُركب ولا يُمنع من مرعى.

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾.

ومن معانيها عند العرب شاةٌ وصلت أنثى بأنثى في ولادتها، فيجعلون لها حكمًا خرافيًّا مخصوصًا، وقد جاءت في تفسيرها تفاصيل متعددة.

﴿وَلَا حَامٍ﴾.

فحلٌ من الإبل إذا نتج من صلبه عددٌ معين قالوا: حمى ظهره، فلا يُركب ولا يُحمل عليه.

تختلف الصور، لكن المرض واحد: بشرٌ يختلقون حدودًا، ثم يضعون فوقها اسم الله. ولم تكن المشكلة في ترك الانتفاع بالحيوان وحده؛ فقد يترك الإنسان ماله تطوعًا، بل في تحويل عادةٍ بشرية إلى تشريعٍ مقدس.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾.

الجعل التشريعي لله وحده. قد تصنع المجتمعات أعرافًا تنظيميةً مباحة، لكن لا يجوز أن تصفها بالحلال والحرام الديني بغير دليل. حين يقول الإنسان: هذا حكم الله، فقد انتقل من ساحة الرأي إلى مقام التوقيع عن رب العالمين.

وكم من «بحيرة» حديثة تعيش بين الناس! عاداتٌ اجتماعية تحرم ما أحل الله، أو توجب ما لم يوجبه، ثم يُعاقب من يخالفها كأنه عصى نصًّا. قد يُمنع

زواجٌ حلال لأن القبيلة لا ترضى، أو يُحرم إنسانٌ حقًّا لأن العرف قال، ثم تُلبس التقاليد ثوب الدين.

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

الافتراء اختلاق الكذب العظيم. وأشد الكذب أن تنسبه إلى الله؛ لأن الكاذب هنا لا يضل شخصًا فحسب، بل يشوه الطريق إلى الله.

وقد يقع الافتراء بصيغة التدين الشديد: يحرم المرء شيئًا احتياطًا لنفسه، ثم لا يلبث أن يحرمه على الناس، ثم يوحي أن من فعله ضعيف الورع. يبدأ الخيار الشخصي، وينتهي شريعةً موازية.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ليس المقصود فقد القدرة الذهنية، بل عدم استخدام العقل في التمييز بين الوحي والموروث. يكررون ما وجدوا دون أن يسألوا: من شرع هذا؟ وما دليله؟

والعقل الذي لا يراجع المقدس الزائف قد يصبح خادمًا للخرافة؛ يخترع لها التفسيرات بدل أن يكشف بطلانها.

الآية الرابعة بعد المئة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

لفظ ﴿تَعَالَوْا﴾ يحمل معنى الارتفاع؛ كأن الوحي يدعوهم أن يصعدوا من أرض العادة إلى أفق الدليل. فالإنسان حين يتبع الموروث بلا بصيرة يعيش في مستوىً صنعه له السابقون، وقد يكون الحق فوقه يدعوه.

﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾.

إلى سنته وبيانه وحكمه. فالقرآن والرسول ليسا طريقين متنافسين؛ الرسول هو المبلغ والمبين للكتاب.

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

﴿حَسْبُنَا﴾؛ أي يكفينا. أغلقوا باب المعرفة قبل أن ينظروا فيما جاءهم. لم يقولوا: وجدنا الحق عند آبائنا بالدليل، بل اكتفوا بفعل الوجدان والوراثة.

الآباء يمنحون الإنسان اللغة والذاكرة والهوية، وبرهم واجب، والانتفاع بحكمتهم محمود؛ لكن محبتهم لا تجعل الخطأ صوابًا. أعظم الوفاء للأب ألا تورث أبناءك خطأه لمجرد أنك ورثته.

إن التقليد يريح النفس من مسؤولية القرار. إذا أخطأت وحدك، حملت وزرك؛ أما إذا أخطأت مع تاريخٍ طويل، شعرت بأمان الكثرة. لكن يوم القيامة لا يقف التاريخ بين يدي الله نيابةً عنك؛ تقف أنت بما اخترت.

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

أيتبعونهم حتى لو جمعوا بين فقد العلم وفقد الهداية؟ العلم إدراك الحق، والهداية السير عليه؛ وقد يملك الإنسان معلومةً ولا يهتدي، أما هؤلاء ففقدوا الأمرين.

والآية لا تلغي التخصص واتباع العلماء؛ فالعامي مأمور بسؤال أهل الذكر. إنما تذم التقليد الذي يجعل شخصًا أو جيلًا معصومًا أمام الدليل، واتباع الجاهل لمجرد القرابة والقدم.

كل تراثٍ ينبغي أن يُعرض على الوحي: ما وافقه حُفظ وشُكر أهله، وما خالفه تُرك بأدبٍ دون إهانة للآباء. فنحن لا نختار بين الوفاء للآباء والوفاء لله؛ الوفاء الأعلى لله، وبه نصحح إرث الآباء ونترحم عليهم.

الآية الخامسة بعد المئة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بعد الحديث عن قومٍ يتبعون آباءهم، يوجّه القرآن المؤمن إلى موضع مسؤوليته الأولى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

أي الزموها بالحفظ والإصلاح والهداية. أقرب أمانةٍ إليك نفسك، وأخطر ميدانٍ تهمله هو قلبك. قد ينشغل الإنسان بإحصاء أخطاء الناس حتى ينسى الخطأ الذي يسكنه.

وفي زمن الانكشاف المستمر على حياة الآخرين، صار المرء يعرف تفاصيل العالم ويجهل حال قلبه. يراقب انحرافات المشاهير والسياسيين والجماعات، ويحللها، لكن لا يملك وقتًا ليسأل: أين أنا من الله؟

﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

لا يحمل المؤمن وزر من اختار الضلال بعد أن قام بما عليه من البيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الاستطاعة والحكمة. وليست الآية إذن دعوةً إلى الانعزال أو ترك الإصلاح؛ فقد بيّنت السنة وفهم الصحابة أن الاهتداء يشمل أداء واجب الدعوة والإنكار.

وقد حذر أبو بكر الصديق رضي الله عنه من إساءة فهم هذه الآية، وذكر أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب. فلا يجوز أن يقول الإنسان: عليّ نفسي، ثم يترك الحريق ينتشر في البيت الذي يسكنه.

المعنى: أصلح، وانصح، وبلّغ، وقاوم المنكر بما شرع الله؛ ثم إذا لم يستجب الناس، فلا تُهلك نفسك ولا تتبعهم. ضلالهم لا يضرك في آخرتك إذا أديت أمانتك وثبت على هدايتك.

وهذا توازنٌ ينقذ المصلح من طرفين: اللامبالاة التي تقول «لا شأن لي بأحد»، والاحتراق الذي يظن صاحبه أنه مسؤول عن نتائج اختيارات الجميع. أنت مسؤول عن بذل النور، لا عن إجبار العيون على الانفتاح.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

يعود المهتدي والضال، والناصح والمعاند، والأبناء والآباء، إلى مرجعٍ واحد. هنالك لا ينفع أن تقول: وجدت قومي يفعلون؛ لأن الله أعطاك عقلًا، وأرسل إليك بيانًا، ومنحك مساحةً للاختيار.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ينبئكم بالحقيقة الكاملة وراء الأعمال: من سأل ليهتدي ومن سأل ليتعنت، من اتبع أباه حبًّا للحق ومن اتبعه هربًا من الدليل، من سكت عن المنكر عجزًا ومن سكت طمعًا أو خوفًا.

والله لا يقول فقط: بما كنتم تعتقدون، بل ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن الحقيقة في الآخرة تظهر متجسدةً في الاختيارات، لا في الشعارات.

وهكذا تعلمنا هذه الآيات أن العقل المؤمن ليس فضوليًّا يقتحم كل مستور، ولا خرافيًّا يقدس كل موروث، ولا أنانيًّا يعتزل مسؤولية الإصلاح. إنه عقلٌ يسأل عما ينفع، ويرد التشريع إلى الله، ويعرض تراث الآباء على الوحي، ثم يبدأ بمحاسبة نفسه ويؤدي حق مجتمعه.

فليس المطلوب أن تعرف كل شيء، بل أن تهتدي بما عرفت. وليس المطلوب أن تهدم كل ما ورثت، بل أن تميّز فيه الحق من الوهم. وليس المطلوب أن تحمل ضلال الناس على ظهرك، بل أن تحمل إليهم النور، ثم تظل أنت واقفًا عليه وإن اختاروا السير في غيره.

الفصل الثاني والعشرون

شَهَادَةٌ عَلَى حَافَّةِ الْمَوْت

حين تغيب الرقابة، ويصبح قسمُ الشاهد آخرَ جسرٍ يصل الحقَّ إلى أهله

الآية السادسة بعد المئة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

تأخذنا السورة من ضجيج المجتمع إلى لحظةٍ شديدة الخصوصية: مسافرٌ بعيدٌ عن أهله، تفاجئه أمارات الموت، وبين يديه أماناتٌ وأموال وحقوق، ولا يجد حوله إلا شهودًا قد لا يكونون من قومه.

إنها لحظة تسقط فيها الزوائد. لا يعود الإنسان مشغولًا بما سيجمعه غدًا؛ فقد جاءه الموت ليحوّل المال كله إلى أمانةٍ يجب أن تصل إلى غيره. الأشياء التي قال عنها طويلًا: «ملكي»، بدأت في لحظة الاحتضار تسترد حقيقتها: كانت عاريةً مؤقتة، وسيخرج صاحبها منها كما دخل الدنيا أول مرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾.

حتى حين يحضر الموت لا يترك القرآن الحقوق لعاطفة اللحظة، بل يقيم حولها نظام الشهادة. فالإيمان لا يكتفي بأن يذكّر المحتضر بالآخرة، وإنما يحفظ وراءه أموال الورثة والديون والأمانات.

إن من كمال الدين أنه يجمع بين دمعة الوداع ودقة الوثيقة. لا يقول: نحن في مقام الموت، فلا تحدثونا عن الأموال؛ لأن تجاهل المال قد يصنع بعد الجنازة خصومةً بين الأحياء. الرحمة بالمحتضر لا تعني إهمال حقوق من سيبقون.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

الموت لا يُرى شخصًا يدخل، لكن أماراته تحضر، ويشعر الإنسان أن المسافة بينه وبين الغيب تضيق. واختيار لفظ ﴿حَضَرَ﴾ يجعل الموت كأنه ضيفٌ وصل، لا فكرةٌ بعيدة.

نحن نعامل الموت غالبًا كأنه خبرٌ يخص الآخرين. نقرأ أسماء الراحلين، ونشيعهم، ثم نعود إلى خططنا كأن الطريق لا ينتهي بنا إلى حيث انتهى بهم. لكن القرآن يقول: سيحضر أحدكم؛ لا أحد خارج دائرة الزيارة.

﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾.

الوصية وصلٌ لما قبل الموت بما بعده؛ كلمةٌ تعبر الحد الفاصل، وتحمل رغبة الإنسان وحقوقه إلى عالمٍ لن يكون حاضرًا فيه. وقد شرعت الوصية في حدودها المعروفة، ولا وصية لوارث إلا إذا أجازها بقية الورثة بعد الموت وفق أحكام الفقه، والوصية لغير الوارث تكون في حدود الثلث، وما زاد يتوقف على إجازة الورثة.

لكن الوصية لا ينبغي أن تتحول إلى أداة انتقامٍ أخيرة. بعض الناس يحمل خصوماته إلى فراش الموت، فيحاول أن يحرم مستحقًّا أو يفضل وارثًا بغير حق. كأن الموت لم يحرره من الهوى، بل منحه ورقةً أخيرة ليؤذي بها.

الوصية الصادقة ليست امتداد سلطان الإنسان بعد موته، بل أداءٌ للأمانة قبل أن يفقد القدرة على أدائها.

﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾.

الشهادة تحتاج إلى اثنين من أهل العدالة؛ لأن الحقوق لا تُبنى على الظنون، والذاكرة الفردية قد تخطئ أو تميل. والعدل ليس زينةً إضافية للشاهد، بل أصلٌ في قبول شهادته؛ إذ قد يرى غير العدل الحقيقة ثم يبيعها.

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

ذهب جمهورٌ من المفسرين إلى أن المراد من غير المسلمين من أهل الكتاب عند الحاجة في السفر، وذهب آخرون إلى أن المعنى من غير قبيلتكم أو عشيرتكم. والآية في كلتا القراءتين تكشف سعة التشريع في حال الضرورة: لا تضيع الحقوق لأن المسافر لم يجد شاهدين من بيئته المعتادة.

فالشريعة تنظر إلى الواقع كما هو: الإنسان يسافر، والموت قد يفجؤه، والبديل الكامل قد لا يكون حاضرًا. ولذلك تبني جسرًا يحفظ الحق بقدر الممكن، بدل أن تتركه يسقط لأن الصورة المثلى تعذرت.

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

الضرب في الأرض هو السفر؛ تعبيرٌ يصور القدم وهي تضرب وجه الطريق في طلب الرزق أو التجارة أو غيرهما. والسفر خروجٌ من شبكة الأمان المألوفة: بعيدٌ عن البيت والأقارب ومن يعرفون أموالك.

﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾.

سمّى الموت مصيبةً؛ لأنه يقطع تعلق الأحياء، ويغلق باب العمل، ويفرق المرء عمن يحب. وهو في حق المؤمن انتقالٌ إلى ما عند الله، لكن ألم الفقد وحقيقة انقطاع التكليف يجعلان له وقع المصيبة.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾.

أي تستوقفونهما بعد الصلاة، وقيل بعد صلاة العصر، لما في ذلك الوقت والمقام من هيبةٍ واجتماع. الصلاة تهيئ الضمير للقسم؛ فمن وقف منذ لحظات بين يدي الله، ينبغي أن يثقل عليه أن يجعل اسمه ستارًا للكذب.

وليس الحبس هنا عقوبة، بل استيقافٌ للتحقق واستحلاف عند الريبة.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾.

إذا وقع الشك في صدق الشاهدين، استُحلفا. والقسم بالله ليس حيلةً إجرائية فقط؛ إنه استدعاءٌ للرقابة العليا حين تعجز الأدلة البشرية عن الوصول إلى اليقين الكامل.

قد يستطيع الشاهد أن يخدع القاضي، لكن حين يقول: والله، فهو يستدعي على نفسه علم من لا يُخدع. ومن حلف كاذبًا لم يجعل الله شاهدًا له، بل جعل اسمه العظيم غطاءً لجريمته، فجمع بين الكذب والاستخفاف باليمين.

﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾.

أي لا نأخذ بعهد الله وقسمنا عوضًا دنيويًّا، ولا نبيع الشهادة لمن يدفع. فكل من يغيّر الحقيقة لمنفعةٍ قد دخل سوقًا خاسرًا: باع ذمته، وأخذ شيئًا زائلًا.

وقد يكون الثمن مالًا، أو منصبًا، أو حمايةً، أو قبولًا اجتماعيًّا. وليست كل رشوةٍ تُسلّم في ظرف؛ بعض الرشاوى تأتي في صورة وعدٍ بالترقية، أو سكوتٍ عن خطأ الشاهد، أو حمايةٍ من سلطة.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

القرابة من أشد القوى ضغطًا على العدل. قد لا يقبل الشاهد مالًا، لكنه يميل لأخيه أو أبيه أو جماعته. فتأتي الآية لتقول: القربى لا تغيّر الحقيقة.

ليس البر أن تنصر قريبك في الباطل، بل أن تمنعه منه. حين تشهد له كذبًا، قد تحمي مصلحته ساعةً وتدفعه إلى خصومة الله طويلًا.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾.

أضاف الشهادة إلى الله تعظيمًا؛ لأنها أمانةٌ أمر بها واطلع عليها. ليست الشهادة ملكًا لصاحبها يقولها أو يخفيها بحسب راحته؛ الحق الذي علمه صار دينًا في عنقه.

والكتمان قد يكون بحذف جزءٍ من القصة دون اختلاق شيء. ورب نصف حقيقةٍ أشد تضليلًا من كذبةٍ كاملة؛ لأن الناس يطمئنون إلى الجزء الصحيح، فلا يرون ما أخفاه الشاهد.

﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

إن اشترينا بالقسم ثمنًا أو كتمنا الشهادة، دخلنا في زمرة الآثمين. لا يطهر الجريمة أن تقع في خدمة قريب، ولا أن تظل مستورةً عن الناس.

الآية السابعة بعد المئة

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

النظام لا يفترض عصمة الشهود. قد يقسمان، ثم تظهر قرينةٌ على الخيانة:

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾.

التعبير بـ﴿عُثِرَ﴾ يصور الحقيقة كأنها كانت مخبأةً، ثم اصطدمت بها الأقدام فانكشفت. والكذب مهما أحكم صاحبه دفنه قد يترك طرفًا ظاهرًا يقود إليه.

﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾؛ أي ارتكبا ما يوجب الإثم من خيانةٍ أو كتمانٍ أو يمين كاذبة. فمكانة الشهادة لا تمنح الشاهد حصانةً إذا خانها؛ بل خيانته أشد لأنه استغل مقام الثقة.

﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾.

لا يترك الحق يسقط لمجرد فساد الشاهدين الأولين. يأتي شاهدان آخران من أولياء الميت الأقربين المستحقين، وفق ما شرحه المفسرون والفقهاء، ليقسما على أحقية شهادتهما.

إن العدالة لا تيأس عند أول شهادةٍ كاذبة؛ تفتح طريق المراجعة والاستدراك. والنظام العادل ليس الذي يدعي أنه لا يخطئ، بل الذي يملك آليةً لاكتشاف الخطأ وتصحيحه.

﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾.

في تركيب الآية قراءاتٌ وتوجيهات متعددة، والمقصود في الجملة انتقال اليمين إلى أقرب أولياء الميت الذين وقع عليهم الضرر، فيقوم الأَوْليان منهم مقام الشاهدين الخائنين.

والتفاصيل الفقهية دقيقة، لكن المعنى الأخلاقي ظاهر: إذا خان المؤتمن، أعطت الشريعة للمتضرر طريقًا يطالب به بحقه، فلا يصبح ضعف الدليل الأول قبرًا للحقيقة.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾.

لا يقولان: نحن أقرب فقط، بل: شهادتنا أحق؛ لأن معيار الترجيح هو الحق، لا القرابة المجردة. وقد أُمر الأولان بالقسم، ثم أُمر الآخران؛ فاليمين تحيط بالخصومة من الجانبين وترد كل قلبٍ إلى الله.

﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾.

أي لم نتجاوز الحق في اتهامهما، ولم نطلب أكثر مما لنا. فحتى المظلوم قد يعتدي إذا استسلم لغضبه، والشريعة تحميه من أن يتحول طلبه للإنصاف إلى ظلمٍ مضاد.

﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

إن تجاوزنا أو كذبنا، دخلنا في الظلم الذي نشتكي منه. وهذه تربيةٌ رفيعة: ليس كونك ضحيةً ضمانًا أخلاقيًّا لكل ما تفعل بعد ذلك. مظلمتك تمنحك حقًّا محددًا، لا رخصةً مفتوحةً للانتقام.

الآية الثامنة بعد المئة

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

بعد عرض الإجراءات، تبين الآية حكمتها: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾.

أي أقرب إلى أن يؤدوا الشهادة صحيحةً كاملة، في وجهها الذي وضعها الله فيه. فالرقابة والإمكان الواقعي لمراجعة الشهادة يمنعان الخيانة.

الشريعة تعرف النفس البشرية: الوعظ مهم، لكن بعض النفوس تحتاج كذلك إلى نظامٍ يشعرها أن كذبها يمكن أن يُكشف. الأخلاق والقانون يتعاونان؛ التقوى تحرس الداخل، والإجراءات تحرس المجال العام.

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

أي يخشون أن تظهر خيانتهم فتنتقل الأيمان إلى غيرهم، وتُرد شهادتهم، وينكشف عارهم. فالخوف من سقوط الثقة قد يحملهم على الصدق.

والسمعة هنا ليست مجرد صورة اجتماعية؛ الشاهد يعيش برأس مالٍ اسمه المصداقية. فإذا باعها في قضية، قد لا يجد من يشتري كلمته بعد ذلك ولو صدق.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

بعد كل الضمانات يعود القرآن إلى التقوى؛ لأن النظام مهما دقّ لا يستطيع أن يغلق جميع ثغرات الاحتيال. قد يتعلم الإنسان كيف يمر من بين مواد القانون، لكن لا ممر له من علم الله.

والتقوى هي أن تؤدي الحق حتى حين يكون الكذب أكثر ربحًا وأصعب اكتشافًا. أن تعلم أنك ربما تكسب القضية أمام القاضي، وتخسرها أمام أحكم الحاكمين.

﴿وَاسْمَعُوا﴾.

ليس السماع وصول الصوت، بل سماع القبول والطاعة. كأن الآيات تقول: لا تجعلوا هذه الأحكام نصوصًا معقدةً تمر على آذانكم؛ اسمعوا المقصد الذي وراءها: احفظوا الأمانة، ولا تبيعوا الشهادة، ولا تتركوا موت الغائب فرصةً لنهب حقه.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

من يخرج عن الطاعة ويصر على الخيانة يُحرم هداية التوفيق جزاء فسقه. وقد يعرف الطريق القانوني، لكنه لا يهتدي إلى الطريق الأخلاقي؛ يزداد دهاءً ولا يزداد نورًا.

وهكذا ترسم الآيات مشهدًا إنسانيًّا بالغ التأثير: رجلٌ بعيد عن أهله تحاصره أمارات الموت، يضع أماناته بين يدي شاهدين، ثم يرحل. لم يعد يستطيع الدفاع عن حق، ولا تفسير وصية، ولا مواجهة خائن.

هنا يتجلى معنى الشهادة: أن تكون صوت الغائب بعد غيابه، ويده التي تعيد الأمانة إلى أهلها، وجسره الأخير بين ما تركه ومن يستحقه.

إن خيانة مال الميت ليست سرقةً من عاجزٍ فحسب؛ إنها استغلالٌ لصمته النهائي. ولهذا أقامت السورة حول الوصية أيمانًا وشهودًا ومراجعةً وتقوى؛ حتى لا يتحول الموت — الذي ينبغي أن يوقظ الضمير — إلى فرصةٍ يقتنصها الطمع.

وفي النهاية يبقى سؤال الآية يتردد في كل شاهدٍ ومؤتمن: حين لا يستطيع صاحب الحق أن يراك، هل ترى أنت الله؟

الفصل الثالث والعشرون

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ

حين يعود التاريخُ إلى محكمته، ويقف الأنبياء شهداءَ على ما فعل الناس برسالاتهم

الآية التاسعة بعد المئة

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

بعد مشهد الشهادة على الوصايا والحقوق في الدنيا، تنقلنا السورة إلى أعظم مشهد للشهادة في الآخرة: يوم يجمع الله الرسل ويسألهم عن استجابة أممهم.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾.

يا له من اجتماع! آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وسائر أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام؛ أصوات الهداية التي تفرقت في أزمنة الأرض تجتمع في موقفٍ واحد. الرسالات التي رآها البشر أحداثًا متباعدة يظهر يومئذ أنها موكبٌ واحد خرج من مشكاةٍ واحدة.

في الدنيا عاش كل رسولٍ وسط قومه، وكابد وحده عناد عصره. أما هناك فيجتمع المرسلون، ويرى كل نبيٍ إخوانه الذين حملوا الأمانة نفسها، وساروا في الطريق نفسه، وواجهوا التكذيب نفسه.

والجمع نفسه إعلانٌ بأن التاريخ لم يضع. كلمةٌ قالها رسولٌ في قريةٍ نائية محفوظة، ودمعةٌ سالت من نبيٍ حزنًا على قومه معلومة، وأذىً صبر عليه في ليلةٍ لا يعرفها الناس حاضرٌ في ميزان الله.

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.

الله يعلم كيف أُجيبوا، لكنه سؤال إظهارٍ وإقامة حجة، ليشهد الرسل على أممهم، وتتكشف الاستجابات أمام الخلائق.

لم يقل: ماذا قلتم؟ فقد أدوا البلاغ؛ إنما سأل: ماذا أُجبتم؟ فالتاريخ لا يتكون من الرسالة وحدها، بل من موقف الناس منها. جاء الأنبياء بالنور، لكن أممًا فتحت نوافذها وأممًا أغلقتها.

والسؤال مخيفٌ لكل من بلغته رسالة: إن النبي سيُسأل عن البلاغ، والأمة ستُسأل عن الجواب. ماذا فعلنا بما وصل إلينا؟ هل حولناه إلى حياة، أم إلى صوتٍ جميل يُتلى ولا يحكم؟ هل أجبنا: سمعنا وأطعنا، أم قلنا بأفعالنا: سمعنا وانتقينا؟

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

كيف يقول الرسل: لا علم لنا، وقد علموا ما ظهر لهم من إجابات أقوامهم؟ ذكر المفسرون وجوهًا: منها أنهم من هول الموقف يفوضون العلم كله إلى الله، أو يقولون لا علم لنا بما أحدثت الأمم بعدنا وببواطن أحوالهم، أو إن علمنا بجانب علمك الكامل كالعدم.

إنهم يعلمون الظاهر في حدود ما شهدوا، لكن الله وحده يعلم سرائر الاستجابة، وما وقع بعد موتهم، وما حمله الناس من الإيمان أو النفاق. لذلك لا يتقدمون بين يدي علمه.

وهذا أدب الأنبياء في المعرفة: مع أنهم أعلم الخلق بالله وشرعه، لا تغريهم المعرفة أن ينسوا حدودها. أما الإنسان فقد يقرأ صفحةً ثم يتحدث كأنه أحاط بالقلوب والتاريخ والغيب.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿عَلَّامُ﴾ صيغة مبالغة تدل على كمال العلم وسعته. يعلم الله غيب القلوب، وغيب الماضي الذي نُسي، وغيب المستقبل الذي لم يقع، وغيب النيات المختبئة وراء الأعمال.

الرسل لا يعلمون الغيب استقلالًا، وإنما يعلمون منه ما أعلمهم الله. وهذا يهدم كل غلوٍ يجعل لنبي أو ولي إحاطةً ذاتيةً بالمغيبات؛ فها هم الرسل في أشرف مقام يردون العلم الكامل إلى الله.

الآية العاشرة بعد المئة

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

يتجه الخطاب إلى عيسى عليه السلام أمام مجمع الرسل:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

يكرر القرآن نسبته إلى أمه، فلا يدع الغلو يخرجه من دائرة البشرية. عيسى هو المسيح، وكلمة الله ألقاها إلى مريم، ورسولٌ من أولي العزم؛ لكنه ابن مريم وعبد الله.

﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾.

كانت النعم على المسيح متصلةً بالنعم على أمه؛ اصطفاها الله وطهرها، وبرأها من البهتان، وجعل ابنها آيةً للعالمين.

والله يذكّر نبيًّا بنعمته، ليعلمنا أن مقام النبوة نفسه قائمٌ على فضل الله، لا على استقلال النبي بقوته. فإذا كان عيسى يُذكّر بالنعمة، فكيف يليق بمن بعده أن ينسب ما أوتي إلى ذاته؟

﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

روح القدس هو جبريل عليه السلام في قول جمهور المفسرين، أيد الله به عيسى وثبته. والتأييد قوةٌ تأتي من الله تعين العبد على حمل ما كُلّف به.

قد يكون صاحب الحق ضعيفًا في موازين الأرض، لكن خلفه تأييدٌ لا تراه العيون. ليست القوة في كثرة من حولك فقط، بل في الجهة التي تؤيدك.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

تكلم عيسى رضيعًا دفاعًا عن أمه وإعلانًا لعبوديته ونبوته، وسيكلم الناس كهلًا؛ وقد تكلم في نضجه، وفي الآية عند بعض أهل العلم إشارةٌ إلى كلامه بعد نزوله آخر الزمان.

والعجيب أن أول ما نطق به في المهد، كما قص القرآن في سورة مريم، كان: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾. لقد سبقت عبوديته كل دعوى غلوٍّ جاءت بعده؛ فكأن صوته في المهد ما يزال يرد عبر القرون على من اتخذه إلهًا.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

الكتاب قيل: الكتابة أو جنس الكتاب، والحكمة الفهم السديد ووضع الأشياء في مواضعها. وعلمه التوراة المنزلة على موسى، وآتاه الإنجيل.

العلم كله من الله: النص، وفهم النص، والحكمة في تنزيله. قد يحفظ الإنسان الكتاب ويؤتى قليلًا من الحكمة، فيضع الحق في غير موضعه؛ ولهذا كانت الحكمة نعمةً مستقلة.

ثم يذكر المعجزات، ويحيط كل واحدة منها بسياج التوحيد: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾.

الخلق هنا بمعنى التصوير والتقدير؛ يشكل من الطين هيئة طير. لكنه لا يمنحها الحياة استقلالًا.

﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾.

تكررت ﴿بِإِذْنِي﴾ حتى لا تتحول المعجزة إلى دليلٍ على ألوهية الرسول. عيسى يفعل، لكن الفعل لا يثمر إلا بإذن الله. والسبب ظاهرٌ في يده، والقدرة الخالقة لله وحده.

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾.

الأكمه من وُلد أعمى على أشهر الأقوال، والبرص داءٌ ظاهر كان علاجه شديدًا. أبرأهما عيسى بمعجزةٍ من الله، لا بطبٍ بشري معتاد.

لقد جاء إلى عالمٍ مليء بالأجساد المريضة، فجعل الله الشفاء على يديه آيةً. لكن الأعجب من فتح العين العمياء أن تظل قلوبٌ ترى المعجزة ثم تعمى عن المرسل الذي أجراها.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾.

إحياء الموتى من خصائص الله، وقد أجرى هذه الآية على يد عيسى، فدعا فأحياهم الله. لذلك تكرر ﴿بِإِذْنِي﴾؛ حتى لا تُسرق المعجزة من دلالتها. لم تأتِ لتقول: هذا هو الله، بل لتقول: انظروا إلى قدرة الله التي أيد بها رسوله.

إن المعجزة إصبعٌ يشير إلى السماء، لكن الغلو ينشغل بالإصبع عن الجهة التي يشير إليها.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾.

كانت الحماية نعمةً لا تقل عن المعجزات. أراد به أعداؤه السوء، فصرف الله أيديهم عنه، فلم يقتلوه ولم يصلبوه، بل رفعه إليه على ما قرره القرآن.

نحن نعد النعمة فيما أعطانا الله، والقرآن يذكّر عيسى بما كف عنه. النجاة عطاءٌ خفي، والأيدي التي لم تصل إلينا من نعم الله التي لا نحصيها.

﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

البينات واضحة، لكن الوضوح لا يجبر القلب المتكبر.

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾، ولم يعمم. رأوا ما يخرج عن قدرة البشر، فبدل أن يؤمنوا قالوا: سحر. حين يقرر الإنسان الرفض أولًا، يحول كل دليلٍ إلى تهمة.

الآية الحادية عشرة بعد المئة

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾.

الوحي هنا وحي إلهامٍ وإلقاء في القلب، لا وحي نبوة. والحواريون خواص أصحاب عيسى وأنصاره، قيل إن اسمهم من الحَوَر وهو شدة البياض والنقاء.

حتى استجابة الحواريين كانت من نعم الله على عيسى؛ فما أعظم نعمة أن يهب الله للداعية قلوبًا تصدقه وتحمل معه الطريق! قد يملك الإنسان البيان، لكنه يحتاج إلى أن يفتح الله له في الناس آذانًا تسمع وأرواحًا تستجيب.

﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾.

الإيمان بالله يتصل بالإيمان برسوله. لا يصح أن يقولوا: نؤمن بالله ونرفض عيسى الذي أرسله؛ كما لا يصح بعد بعثة محمد ﷺ أن يُدّعى الإيمان بالله مع رد رسوله الخاتم.

﴿قَالُوا آمَنَّا﴾.

كان جوابًا بلا تردد. لم يقولوا: ننتظر حتى يتغير موقف الأكثرية، ولا حتى نضمن السلامة. حين وضح الحق، خرجت الكلمة.

﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

طلبوا أن يشهد عيسى بإسلامهم؛ والإسلام هنا الاستسلام لله والتوحيد والانقياد لرسوله في زمانهم. فالحواريون مسلمون بهذا المعنى العام، كما كان الأنبياء جميعًا مسلمين لله.

لم يقولوا: اشهد بأننا معجبون، بل ﴿مُسْلِمُونَ﴾. الإيمان ليس انفعالًا أمام المعجزة، بل تسليم القيادة لله.

الفصل الرابع والعشرون

مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاء

حين يطلب القلبُ آيةً ليطمئن، ثم يصبح نزولُها ميثاقًا لا يحتمل الكفر

الآية الثانية عشرة بعد المئة

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

تأتي اللحظة التي أخذت السورة منها اسمها:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

نادوه بنسبه البشري، ثم طلبوا منه أن يدعو ربه. وفي قراءةٍ متواترة: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾، أي هل تستطيع أن تسأل ربك. أما على القراءة المشهورة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فقد حملها العلماء على معنى: هل يفعل ربك ذلك إن سألته، أو هل يجيبك إليه؛ لا شكًّا في قدرة الله، ولا سيما أنهم أعلنوا الإيمان.

فالاستطاعة في الاستعمال قد تأتي بمعنى تعلق الإرادة بالفعل، كما يقول الإنسان لمن يعلم قدرته: هل تستطيع أن تفعل لي كذا؟ أي هل تجيبني إليه؟

﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.

المائدة هي الخوان إذا كان عليه طعام. أرادوا رزقًا ينزل أمام أعينهم من السماء، تتحول فيه المعاني الغيبية إلى شيءٍ تلمسه الأيدي وتأكله الأفواه.

إن الإنسان يظل يحن إلى تحويل الغيب إلى مشهد. يريد أن يرى أثر القدرة بعينيه، وأن يحمل اليقين في يده. وليس طلب الآية مذمومًا في كل حال، لكن خطره أن يجعل الإنسان إيمانه معلقًا باستجابةٍ معينة، أو يطلب من الله امتحانًا لم يُكلّف به.

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

لم يبادر عيسى إلى الدعاء، بل أيقظ فيهم التقوى. كأن السؤال نفسه يقف عند حدٍّ خطر: لا تجعلوا الإيمان ساحةً للمقترحات، ولا تطلبوا آيةً قد تصبح بعد نزولها حجةً أثقل عليكم.

كلما زاد الدليل، زادت المسؤولية. وقد تكون رحمة الله أن يهديك بالآيات التي أقامها دون أن يعطيك كل خارقةٍ طلبتها؛ لأنك لا تدري هل تستطيع حمل حقها إذا جاءت.

الآية الثالثة عشرة بعد المئة

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

شرح الحواريون دوافعهم: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾.

بدأوا بالحاجة البشرية المباشرة؛ الطعام. لم يتظاهروا بأنهم أرواحٌ بلا أجساد. والمائدة تحمل رزقًا حسيًّا، وربما كانوا في حاجة إليه.

لكن ترتيبهم يكشف أن طلب الآية كان يحمل أكثر من مقصد: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

كان في قلوبهم إيمان، لكنهم أرادوا زيادة الطمأنينة؛ كما سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. والطمأنينة درجةٌ فوق أصل التصديق، يسكن فيها القلب إلى ما علم.

لا تعارض بين الإيمان وزيادته. قد يؤمن العقل، ويبقى القلب محتاجًا إلى مزيد سكون. ولذلك جعل الله للعباد آياتٍ في الكون، وآثارًا في الدعاء، وتجارب لطفٍ تزيد اليقين.

لكن المؤمن لا يجعل طمأنينته رهينةً للخوارق. الأصل أن يطمئن إلى خبر الله لأنه خبر الله، ثم تكون الآيات زيادة نور.

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾.

أي نعلم علم مشاهدةٍ وازدياد يقين أن ما أخبرتهم به من قدرة الله وصدق الوعد حق. ليس المعنى بالضرورة أنهم كانوا يتهمونه بالكذب، بل أرادوا انتقال العلم من الخبر إلى العيان.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

يشهدون بنزولها لمن لم يحضر، ويحملون خبر الآية. لكن الشهادة امتيازٌ وتكليف؛ من رأى ما لم يره الناس صار مسؤولًا أن يكون أصدق منهم وفاءً.

الآية الرابعة عشرة بعد المئة

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

بعد أن بيّنوا قصدهم، رفع عيسى الدعاء: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾.

بدأ باسم الله وربوبيته؛ فالمائدة ليست حقًّا مستحقًّا، بل عطيةٌ تُطلب من الرب. وفي الجمع ﴿رَبَّنَا﴾ أدخل نفسه معهم في مقام العبودية والحاجة، فلم يقل: ربهم، بل ربنا.

﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.

عيسى يسأل، والله ينزل؛ الرسول داعٍ، والرب هو المعطي. وفي هذا وحده هدمٌ لكل دعوى ألوهية المسيح؛ فالإله لا يرفع يديه إلى إلهٍ آخر طالبًا الرزق.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾.

العيد ما يعود في الزمن بفرحٍ وذكرى. أراد أن يكون نزول المائدة يومًا يُذكر، يجتمع فيه شكر الأولين والآخرين ممن شهدوا أثرها.

لكن الأعياد في الدين توقيفيةٌ مرتبطةٌ بالشرع، فلا يُشرع للمسلمين اتخاذ أعيادٍ دينية من عند أنفسهم. والمقصود هنا عيدٌ مخصوصٌ لتلك الأمة لو ثبتت عليه بما أمرها الله.

والعيد ليس فرحًا مجردًا؛ إنه ذاكرةٌ جماعية تحفظ النعمة من النسيان. فالأمم تحتاج إلى أيامٍ تعود فيها إلى لحظات تأسيسها، بشرط أن تكون الذاكرة مربوطةً بالشكر لا بالخرافة.

﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾.

ليست المائدة طعامًا فقط، بل علامةً تشير إلى المنعم. الطعام ينتهي في الأجساد، أما الآية فتبقى في الذاكرة. وقد يأكل إنسانٌ النعمة ولا يقرأ العلامة؛ يمتلئ بطنه، ويبقى قلبه جائعًا إلى معرفة المنعم.

﴿وَارْزُقْنَا﴾.

بعد أن طلب المائدة، عاد إلى المعنى الأوسع: الرزق. فالطعام صورةٌ من رزق الله، وليس الرزق محصورًا فيه؛ الهداية رزق، واليقين رزق، والصحبة الصالحة رزق، والقدرة على الشكر رزق.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

يُسمى بعض الخلق رازقًا بمعنى أنه سببٌ في إيصال الرزق أو يعطي مما ملكه الله، لكن الله خير الرازقين؛ لأنه يخلق الرزق والمرزوق والسبب والقدرة على الانتفاع. رزق الخلق محدودٌ بما في أيديهم، ورزق الله لا تحده خزائن.

الآية الخامسة عشرة بعد المئة

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

جاءت الإجابة: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

استجاب الله دعاء عيسى، ونزلت المائدة على ظاهر الآية، وهو قول جمهور المفسرين. انتقل الوعد من الطلب إلى التحقق، وصار الغيب مائدةً يأكلون منها.

لكن العطية حملت معها عهدًا شديدًا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾.

﴿بَعْدُ﴾: بعد نزول الآية، وبعد أن أكلت اليد ما طلب القلب أن يراه. ليس الكفر بعد العيان كالكفر قبله؛ كلما ازداد البيان، عظمت جريمة الإعراض.

إن بعض الناس يظن أن الخوارق ستنهي إمكان الشك إلى الأبد، لكن التاريخ يكشف أن القلب الذي يريد الكفر يستطيع أن يكفر بعد أن يرى. رأى فرعون الآيات، ورأى أصحاب العجل انفلاق البحر، ثم عبدوا العجل. المشكلة ليست دائمًا في العين، بل في الإرادة التي تفسر ما تراه.

﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وعيدٌ شديد يناسب خصوص الآية ووضوحها. من طلب البرهان بعينه، ثم كفر بعد أن نزل، جمع بين نقض الميثاق والاستهانة بالنعمة.

النعم الكبرى تحتاج إلى شكرٍ أكبر، والعلم الواسع يحمل مسؤوليةً أوسع. ليس من رأى كمن لم ير، ولا من عاش في بيت النبوة كمن كان بعيدًا، ولا من حفظ القرآن كمن لم يبلغه.

ومعنى الآية يتجاوز مائدة الحواريين إلى كل نعمةٍ نطلبها من الله: قد يقول الإنسان في كربه: يا رب، إن أنجيتني لأتغيرن. فإذا جاء الفرج، عاد إلى ما كان، كأن الدعاء لم يصعد والنجاة لم تنزل. تتحول النعمة عندئذ من جسرٍ إلى الله إلى حجةٍ على الناسي.

كم من «مائدة» نزلت علينا في صورٍ أخرى: مرضٌ شُفي، وضيقٌ فُرج، وخوفٌ زال، وبابٌ فُتح بعد استحالة! ثم أكلنا من الرزق، ونسينا الآية.

إن أخطر ما في النعمة ليس أن تزول، بل أن تبقى ويزول الشكر. عندئذ يستمر الطعام على المائدة، لكن القلب ينفصل عن المنعم، فيأكل بطنه وتجوَع روحه.

وهكذا تصل سورة المائدة إلى المائدة السماوية، لكنها لا تقدمها مشهدًا للفرجة؛ بل تجعلها امتحانًا للوفاء. فقد بدأت السورة بقول الله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وها هي المائدة تنزل بعقدٍ جديد: رزقٌ من السماء، وشكرٌ من الأرض؛ آيةٌ من الله، وثباتٌ من العباد.

فالمائدة ليست نهاية الطلب، بل بداية المسؤولية. وكلما قال العبد: يا رب أعطني، سمع في أعماق الدعاء سؤالًا آخر: **فماذا ستفعل إذا أعطاك؟**

الفصل الخامس والعشرون

أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ؟

براءةُ المسيح من الغلو، وشهادةُ العبودية في محكمة الآخرة

الآية السادسة عشرة بعد المئة

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

بعد مشهد المائدة التي نزلت من السماء، تنتقل السورة إلى مائدة الحساب؛ حيث لا طعام يُطلب، ولا آية تُقترح، وإنما توضع الأقوال والعقائد والأعمال أمام علم الله.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

مرةً أخيرةً في السورة يُنادى المسيح بنسبه البشري: عيسى ابن مريم. وقد تكرر هذا الاسم حتى يصير برهانًا قائمًا داخل العبارة نفسها. إنه ابن امرأةٍ صديقة، وُلد في الزمان، وحملته أمّ، فلا يكون هو الإله الأزلي الذي خلق الزمان والأمهات والأبناء.

﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾.

الله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، لكن السؤال سؤال إظهارٍ للحقيقة وتبكيتٍ لمن نسبوا إليه ما لم يقله. وفيه إقامةٌ للحجة أمام الخلائق، ليسمع الغلاة براءة من غلوا فيه.

ما أرهبه من مشهد! يقف أناسٌ جعلوا محبتهم للمسيح مبررًا لمخالفة دعوته، ثم يسمعون المسيح نفسه يتبرأ مما قالوا. لقد ظنوا أنهم يعظمونه، فإذا بالغلو يضعهم في الجهة التي يخالفها هو يوم القيامة.

وفي السؤال درسٌ يتجاوز هذا السياق: قد ينسب الأتباع إلى عظمائهم ما لم يقولوه، ويصنعون حول الشخص تاريخًا من الأفكار والممارسات لو عاد لأنكرها. يحملون اسمه رايةً، ثم يسيرون في الاتجاه المعاكس لطريقه.

﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

التأليه لا يقتصر على تسمية الشيء إلهًا؛ يدخل فيه صرف العبادة إليه من دعاءٍ واستغاثةٍ غيبية ونذرٍ وخضوعٍ لا يكون إلا لله. والمسيح ومريم عليهما السلام بريئان من أن يدعوا الناس إلى عبادة أنفسهم.

وقد ضل من عبد المسيح، وضل من صرف لمريم شيئًا من خصائص العبادة. لكن القرآن لا يعالج هذا الضلال بإهانتهما؛ بل يكرمهما بتنزيههما عن أعظم الخيانة: دعوة الناس إلى الشرك.

فأول كلمةٍ يجيب بها عيسى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

قبل أن يبرئ نفسه، نزّه ربه. لم يقل: ما قلت، فقط؛ بل بدأ بإعلان تنزيه الله عن الشريك. لأن الجريمة ليست اتهام عيسى وحده، بل الطعن في وحدانية الله.

والتسبيح في القرآن ليس كلمةً عابرة؛ إنه تطهيرٌ للتصور. كلما نسبت النفس إلى الله ما لا يليق، جاء «سبحان الله» ليغسل المعنى من الوهم، ويرد الله في القلب إلى مقام التنزيه المطلق.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

لم يقل: لم أرد أن أقول؛ بل ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾، أي لا يصح ولا يستقيم ولا يليق بمقامي عبدًا ورسولًا. دعوى الألوهية ليست مجرد عبارةٍ لم ينطق بها، بل شيءٌ ممتنعٌ في حقه من جهة العبودية والرسالة.

إن أعرف الناس بالله أبعدهم عن منازعته حقه. ولذلك كان الأنبياء أشد الناس توحيدًا وخشيةً وتواضعًا. وكلما اقترب العبد من الله معرفةً، رأى فقره أوضح، لا أنه صار شريكًا في الألوهية.

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾.

لا يحاول عيسى تقديم دليلٍ خارجي؛ يرد الأمر إلى علم الله. إن كنت قلت، فأنت تعلم، ولا يمكن لكلمةٍ خرجت من فمي أن تختفي عنك.

هذا هو أدب الصادق أمام الله: لا يتكلف تزيين موقفه؛ يعلم أن ربه يعرفه. أما الكاذب فيحتاج إلى إطالة الرواية لأنه يتعامل كأنه يستطيع أن يصنع صورةً غير الحقيقة.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾.

أي تعلم ما في ذاتي وضميري من قصدٍ وعلم. لا تخفى على الله خفقةٌ في قلب نبيه ولا كلمةٌ لم ينطق بها.

﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

أي لا أعلم ما استأثرت به من علمك إلا ما علّمتني. ونثبت اللفظ كما ورد على الوجه اللائق بالله، منزهين الله عن مماثلة المخلوقين. فليس كمثله شيء، ولا يجوز أن تُفهم صفاته على خصائص الأجسام البشرية.

وفي الجملة أعظم إعلانٍ لحدود علم المسيح. لو كان إلهًا لعلم ما يعلمه الله علمًا ذاتيًّا، لكنه يقرر: أنت تعلم ما في نفسي، وأنا لا أعلم ما استأثرت به من غيبك.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

حصر علم الغيب الكامل في الله. والغيب جمعٌ؛ غيب القلوب، وغيب الأزمنة، وغيب العواقب، وغيب ما وقع بعد رفع عيسى. كل ذلك لله وحده، ومن أطلع الله من رسله على شيء منه فإنما يعلمه بإعلامه لا استقلالًا.

الآية السابعة عشرة بعد المئة

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يعلن المسيح مضمون رسالته: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾.

هذه هي حقيقة الرسول: لا يخترع الرسالة، ولا يضيف إليها ما يمجده، بل يقول ما أُمر. وعظمة النبي في كمال أمانته، لا في خروجه عن مقام العبودية.

إن كلمة ﴿أَمَرْتَنِي﴾ وحدها تقطع أصل الغلو: عيسى مأمور، والله آمر؛ عيسى مبلغ، والله مرسل. والمأمور لا يكون هو الآمر المطلق، والرسول لا يكون هو من أرسله.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

هذه خلاصة الإنجيل الحق، وخلاصة التوراة، وخلاصة القرآن، وخلاصة دعوة الأنبياء جميعًا: اعبدوا الله.

ثم قال: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. لم يستثن نفسه من ربوبية الله؛ وضع نفسه مع قومه في مقام العبودية. والفرق بينه وبينهم ليس أنه إلهٌ وهم بشر، بل أنه عبدٌ مصطفى بالرسالة وهم مأمورون باتباعه.

لقد قال المسيح كلمته واضحة، لكن القرون أضافت إليها أصواتًا حتى كاد الصوت الأول يضيع. فجاء القرآن بعد ستة قرون يعيد إلينا نداء عيسى نقيًّا: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

كان عيسى شاهدًا على أقوال قومه وأعمالهم حين كان بينهم؛ يعلم ما ظهر له من أحوالهم، ويبلغهم ويقيم الحجة عليهم.

لكن شهادته محدودة بزمن وجوده بينهم: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

التوفي في اللغة أخذ الشيء كاملًا، وقد توفّى الله عيسى فرفعه إليه من غير أن يقتله أو يصلبه، وسينزل آخر الزمان ثم يموت الموتة التي كتبها الله على البشر، كما دلت النصوص.

ولا تدل الآية على أن عيسى يعلم أعمال أتباعه بعد رفعه؛ بل تصرح بأن الرقابة بعد مفارقته لهم كانت لله. وهذا يهدم اعتقاد من يتصور أن الأنبياء والأولياء يحيطون بأحوال الناس في كل مكان بعد رحيلهم.

﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

الرقيب الحافظ المطلع الذي لا يغيب عنه شيء. نامت عيون الحراس، ومات العلماء، وابتعدت الأجيال عن زمن النبي، لكن الرقابة الإلهية لم تنقطع.

والإنسان قد يغير دين النبي بعد غياب النبي عن عالمه، ويظن أن المسافة الزمنية ستغطي التغيير. لكن الذي أرسل النبي حاضرٌ بعلمه، يرى كل كلمةٍ أضيفت، وكل معنى حُرّف، وكل عقيدةٍ نُسبت إلى رسوله.

﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

شهادته سبحانه كاملة، لا تعتمد على ذاكرةٍ قد تنسى ولا عينٍ قد تخطئ. يعلم من اتبع المسيح حقًّا، ومن اتخذ اسمه بابًا إلى ما خالف دعوته.

الآية الثامنة عشرة بعد المئة

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

يقف المسيح عليه السلام في مقام التفويض الكامل: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾.

أي هم تحت ملكك وسلطانك، لا يستطيعون الاعتراض على حكمك، وأنت لا تعذبهم ظلمًا. إن عذبت من استحق العذاب فبعدلك.

لم يقل: فإنهم أعداؤك؛ بل ﴿عِبَادُكَ﴾. حتى العاصي لا يخرج من ملك الله، وإن خرج عن طاعته. هو عبدٌ من جهة القهر والربوبية، وإن لم يحقق عبودية الاختيار والمحبة.

وفي العبارة أدبٌ عظيم: عيسى لا يتقدم بين يدي حكم الله، ولا يطالب بما لا يعلم. لقد بلّغ، والله أعلم بمن قامت عليه الحجة وبمن مات على الكفر وبمن تاب.

﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

أي إن تغفر لمن تقتضي حكمتك مغفرته ممن تاب وآمن، أو لمن كان دون الشرك ممن شئت. أما من مات على الشرك فقد أخبر الله أنه لا يغفر له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

فالآية تفويضٌ لحكم الله، لا إثباتٌ لمغفرة من مات على الكفر بعد قيام الحجة.

﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لم يقل: الغفور الرحيم، مع أنهما الأنسب في ظاهر النظر بالمغفرة؛ لأن المقام مقام تسليم للحكم. أنت عزيزٌ لا يغلبك أحد ولا يغفر منك عجز، وحكيمٌ لا تضع مغفرتك إلا في موضعها.

مغفرة الله ليست ضعفًا أمام المذنب، وعقوبته ليست اندفاعًا غاضبًا؛ كلاهما صادرٌ عن عزةٍ وحكمة. يغفر وهو قادرٌ على العقوبة، ويعاقب بعد عدلٍ وإقامة حجة.

وقد وقف بعض السلف طويلًا عند هذه الآية لما فيها من التفويض والرحمة والخشية. إنها تضع العبد أمام حقيقةٍ كبرى: الناس عباد الله، لا نملك مصائرهم، ولا نفصل في سرائرهم بأهوائنا. نبيّن حكم الوحي، ونرجو للتائب، ونحذر المصر، ثم نرد الحكم النهائي إلى العزيز الحكيم.

الفصل السادس والعشرون

هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ

النهاية التي يعود فيها الميثاق كلُّه إلى كلمةٍ واحدة: الصدق

الآية التاسعة عشرة بعد المئة

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

بعد سؤال الرسل، وبراءة المسيح، وتفويض الحكم إلى الله، يأتي الإعلان الفاصل: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

بدأت السورة بالعقود، وتوشك أن تنتهي بالصدق؛ لأن الوفاء بالعقد ليس إلا الصدق ممتدًّا عبر الزمن. يقول الإنسان كلمةً، ثم يبقى وفيًّا لها حين تتغير الظروف.

في الدنيا قد يبدو الكذب نافعًا: ينجّي من موقف، ويحفظ منصبًا، ويجلب مالًا، ويصنع صورة. أما يوم القيامة فتسقط منافع الكذب كلها، ولا يبقى نافعًا إلا الصدق.

ما أوجز ميزان النجاة! لم يقل: ينفعهم ما ادعوا، ولا ما ظنه الناس فيهم، ولا الأسماء التي حملوها؛ بل ﴿صِدْقُهُمْ﴾. صدقهم مع الله في الإيمان، ومع الرسول في الاتباع، ومع الناس في الحقوق، ومع أنفسهم في التوبة.

والصدق ليس أن تقول الخبر المطابق للواقع فقط، مع عظم ذلك؛ بل أن تتطابق طبقات الإنسان: لسانه وقلبه وعمله. ألا يقول «آمنت» وقلبه في جهة أخرى، وألا يقول «أطعت» وهو يبحث عن كل طريقٍ للفرار، وألا يعِد ثم يجعل أول مصلحةٍ عذرًا للنقض.

﴿هَذَا يَوْمُ﴾.

اليوم الذي كان غيبًا صار حاضرًا. كم سمع الناس عنه وقالوا: سيأتي، ثم أصبح هو «هذا». الإشارة تقرب المشهد حتى يكاد القارئ يقف فيه.

كل مستقبلٍ سيصبح حاضرًا، وكل غيبٍ وعد الله به سيصير واقعًا. الموت الذي نقول «سيحدث» سيأتي يومٌ نقول فيه: حدث. والقيامة التي تبدو بعيدة ستصبح هي اليوم الوحيد الذي لا يوم بعده للحساب.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

الصدق قد يكون جافّ الثمر في الدنيا: يخسر به صاحبه صفقة، أو صديقًا، أو موقعًا. لكنه في الآخرة يتحول إلى جناتٍ وأنهار. لم يضع شيءٌ تركه الصادق لله؛ كان يُنقل من عالم الزوال إلى عالم البقاء.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

جمع بين الخلود والأبدية توكيدًا لانقطاع الزوال. نعيم الدنيا يحزن صاحبه لأنه يعرف أنه سينتهي، أما الجنة فقد نُزع منها شبح النهاية. لا وداع، ولا مرض، ولا موت، ولا باب يفتح على الفقد.

ثم يأتي ما هو أعظم من الجنة نفسها: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

هذه هي الجائزة التي تذوب أمامها كل الجوائز. أن ينظر الله إلى عبده فيرضى عنه؛ لا سخط بعده، ولا خوف من انكشاف خطيئة، ولا اضطراب في المصير.

كان الصادق في الدنيا يترك رضا الناس إذا تعارض مع رضا الله، وربما عاش غريبًا يُلام؛ فجاء اليوم الذي رضي عنه فيه من كان يطلب رضاه. فما ضره بعد ذلك أن تكون الأرض كلها قد غضبت؟

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

رضوا عن ربهم لما رأوا كمال وعده وفضله، وقد كانوا راضين به ربًّا في الدنيا، راضين بحكمه ودينه وقدره. وهناك يكتمل الرضا؛ يرون أن كل منعٍ كان يحمل حكمة، وكل ألمٍ عبر بهم إلى كرامة، وكل طاعةٍ أثقلت أجسادهم صارت نورًا.

ليس معنى رضاهم أنهم كانوا يعترضون عليه ثم صالحوه؛ تعالى الله، بل ظهر لهم من كمال فضله ما امتلأت به قلوبهم رضًا وسرورًا، ولم يبق لهم مطلبٌ وراء ما أعطاهم.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ليس الفوز أن يسبق الإنسان منافسه إلى مالٍ أو منصب، ولا أن يخرج من خصومةٍ منتصر الصورة. الفوز العظيم أن يخرج من الدنيا والله راضٍ عنه، وأن يدخل الجنة فلا يخرج منها.

وكل فوزٍ لا يقود إلى هذا الفوز صغيرٌ ولو ملأ التاريخ، وكل خسارةٍ لا تحرم الإنسان هذا الفوز هينةٌ ولو أبكته عمرًا.

الآية العشرون بعد المئة

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه خاتمة السورة، وآخر كلمةٍ في رحلة المائدة:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

بدأت السورة بـ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وخُتمت بأن الملك لله. وبين البداية والنهاية تتضح علة الوفاء: أوفوا، لأنكم تعيشون في ملك الله، وتحملون رزق الله، وتستخدمون أجسادًا خلقها الله، وسترجعون إلى حكم الله.

ليس الإنسان مالكًا مطلقًا لشيء. المال الذي يظنه ملكه جزءٌ من ملك الله، والجسد الذي يتصرف فيه أمانة، والأرض التي يقيم عليها لله، والقدرة التي يعصي بها منحةٌ من خالقه.

ولو استقر معنى الملك في القلب، لتغيرت علاقة الإنسان بالأشياء. لا يبخل بالمال؛ لأنه مستخلفٌ فيه. ولا يتكبر بالسلطة؛ لأنها عارية. ولا يظلم الضعيف؛ لأن الضعيف يعيش في ملك ربٍ قادر على نصره. ولا ييأس إذا فاته شيء؛ لأن خزائن المالك لم تنفد.

﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾.

كل ما في السماوات والأرض له: الملائكة والإنس والجن، والنجوم والجبال والبحار، والمسيح وأمه والرسل وأممهم. فلا يبقى موضعٌ لمعبودٍ آخر، ولا مساحةٌ يخرج فيها شيءٌ عن السلطان الإلهي.

وهذه الجملة هي الجواب الأخير عن الغلو في المسيح: عيسى داخلٌ في ﴿مَا فِيهِنَّ﴾، مملوكٌ لله، مكرمٌ بالنبوة؛ والمالك لا يكون هو المملوك.

وهي الجواب عن غرور الإنسان: أنت داخلٌ في الملك، لا تقف خارجه مراقبًا. كل ما تفعله يقع على أرض المالك، وتحت علمه، وبقوةٍ أودعها فيك.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قادرٌ على إنزال المائدة، وعلى إمساك أيدي المعتدين، وعلى إحياء الموتى بإذنه، وعلى جمع الرسل، وعلى رد الحقوق، وعلى إدخال الصادقين جنات النعيم.

القدرة في آخر السورة تضع ختمًا على كل وعودها ووعيدها. الذي أمرك قادرٌ على محاسبتك، والذي وعدك قادرٌ على إنجاز وعده، والذي دعاك إلى التوبة قادرٌ على محو ذنبك، والذي رأى ضعفك قادرٌ على تثبيتك.

خاتمة الكتاب

مائدةُ الميثاق: من أول العقد إلى يوم الصادقين

لقد بدأنا الرحلة عند النداء الأول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾،

وانتهينا عند الملك الأخير: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

وبين الآيتين قامت سورة المائدة كأنها محكمةٌ كبرى للضمير الإنساني. أدخلت المؤمن إليها من باب الإيمان، ثم عرضت عليه عقوده واحدًا واحدًا: عقده مع الله، وعقده مع جسده، وعقده مع طعامه، وعقده مع أسرته، وعقده مع خصمه، وعقده مع المجتمع، وعقد العلماء مع الوحي، وعقد الحكام مع العدل، وعقد الأمة مع هويتها ورسالتها.

لم تترك السورة شيئًا خارج الميثاق. فاللقمة عقد؛ لا تأكل إلا ما أحل الله. واليد عقد؛ لا تمتد إلى الصيد المحرم ولا المال المسروق ولا الدم المعصوم. والكلمة عقد؛ لا تكتم شهادة ولا تعقد يمينًا ثم تعبث بها. والحب عقد؛ لا يتحول إلى غلوٍ يرفع العبد إلى مقام الرب. والقوة عقد؛ لا تتعاون بها على الإثم والعدوان. والعلم عقد؛ لا يُشترى بآيات الله ثمنٌ قليل.

لهذا كانت سورة المائدة من أكثر السور جمعًا بين جلال التشريع وحرارة الروح. لم تقدم الأحكام موادّ باردة، بل جعلت كل حكمٍ نافذةً على القلب:

فالوضوء ليس ماءً على الجوارح فقط، بل تطهيرٌ للإنسان قبل اللقاء.

والعدل ليس تسويةً قانونية فحسب، بل انتصارٌ على بغض الخصم في داخل النفس.

والقصاص ليس توقًا إلى الدم، بل سياجٌ يحمي الحياة من فوضى الثأر.

والحدود ليست بطشًا، بل حمايةٌ للحقوق تحت سلطان قضاءٍ عادل.

والتوبة ليست إعفاءً من المسؤولية، بل عودةٌ تصلح ما أفسدته الجريمة.

والولاية ليست كراهيةً للمخالف، بل صيانةٌ لمركز الانتماء مع بقاء البر والقسط.

والطعام ليس إشباعًا للجسد وحده، بل إعلانٌ عن مصدر الرزق وحدود الانتفاع.

والكعبة ليست حجرًا يُعبد، بل مركزٌ تجتمع عنده الأجساد لأن القلوب اجتمعت على الله.

ثم كشفت السورة مأساة الأمم حين تفقد الوفاء. لم يبدأ سقوطهم بقلة النصوص، بل بنقض الميثاق؛ ثم قست القلوب، ثم حُرف الكلم، ثم نُسي حظٌّ من الوحي، ثم سكت العلماء، ثم أُكل السحت، ثم نشبت العداوة والبغضاء.

وهذه ليست قصة قومٍ مضوا فقط؛ إنها مرآةٌ موضوعة أمام كل أمةٍ تحمل كتابًا. فالقرآن لا يذكر انحرافات السابقين ليمنح المسلمين صك براءة، بل ليقول لهم: الطريق الذي أوصلهم إلى السقوط ما يزال مفتوحًا، فإياكم أن تسلكوه وأنتم تتلون قصتهم.

قد يحمل المسلم المصحف، ثم يفعل به ما فعله السابقون بكتبهم: يقرأ ما يخدمه ويترك ما يحاسبه، يرفع آيات القوة ويهجر آيات العدل، يتحدث عن الولاء

ويأكل السحت، يغضب للمقدسات ولا يغضب لحقوق الضعفاء التي قدسها الله.

إن حمل الكتاب ليس امتيازًا آمنًا؛ إنه ميثاق. وكلما كان الكتاب أعظم، كان السؤال عن الوفاء به أعظم.

وفي قلب السورة يشرق الإعلان الذي ختم زمن النبوات والشرائع:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

اكتمل الدين، لكن مهمة الإنسان لم تكتمل. اكتمل النور، وبقي أن تفتح له القلوب. اكتمل الميزان، وبقي أن تقيمه الأيدي. اكتملت النعمة في مصدرها، وبقي أن يتم شكرها في حياة الأمة.

ثم وصلت السورة إلى المائدة التي حملت اسمها. طلب الحواريون رزقًا من السماء، فنزلت المائدة آيةً وعيدًا. وكأن السورة تقول: كل نعمةٍ مائدة، وكل مائدةٍ ميثاق. تأكل من رزق الله، ثم تُسأل: هل عرفت المنعم؟ تشرب من عافيته، وتسكن في أمنه، وتتحرك بعقله الذي وهبك؛ فهل أدى العطاء إلى الشكر، أم زادك نسيانًا؟

وفي ختام المشاهد يقف المسيح عليه السلام بريئًا من ألوهيةٍ نُسبت إليه، ويعيد رسالته إلى جملتها الأولى والأخيرة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

هناك تسقط إضافات القرون، ولا يبقى إلا صوت النبي نفسه. ويتبين أن تعظيم الرسول لا يكون بمخالفة توحيده، وأن المحبة التي تتجاوز الحق قد تصبح خيانةً للمحبوب.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة في محكمة القيامة: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

كأن السورة كلها كانت تبحث عن هذا الإنسان: الإنسان الصادق.

الصادق في عقده، فلا ينقض.

الصادق في شهادته، فلا يكتم.

الصادق في حكمه، فلا يحابي.

الصادق في عبادته، فلا يرائي.

الصادق في حبه، فلا يغلو.

الصادق في توبته، فيصلح.

الصادق في ولائه، فلا يبيع.

الصادق في علمه، فلا يحرّف.

الصادق في قوته، فلا يعتدي.

والجزاء ليس نجاةً من النار وحدها، ولا دخولًا إلى الجنة وحدها، بل ما هو أعلى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

ذلك هو السر الذي سارت إليه السورة من أولها. قال الله في بدايتها: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وقال في ختامها عن الصادقين: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

رضي الله لنا الدين، فمن رضي به حقيقةً وعاش ميثاقه، رضي الله عنه يوم اللقاء.

وبذلك تُغلق الدائرة في جمالٍ مهيب: **رضًا من الله لنا في الدنيا، ورضًا من الله عنا في الآخرة.**

ومن بين الرضوانين تمتد حياة المؤمن كلها؛ يأكل ويتطهر، يحب ويعادي، يحكم ويشهد، يعاهد ويفي، يخطئ ويتوب، ويظل يمشي فوق أرضٍ يملكها الله، تحت سماءٍ يملكها الله، بقلبٍ لا يطلب في النهاية إلا أن يسمع:

رضي الله عنك.

فهرس الكتاب

١. المقدمة المنهجية: في طبيعة هذا الكتاب ومسالكه في تدبر سورة المائدة ـــ ص ٣

٢. تمهيد: السورة التي تُقيم الإنسان على مائدة التكليف ـــ ص ١١

٣. الفصل الأول: **أوفوا بالعقود: حين يبدأ الإيمان من صدق الكلمة** ـــ ص ١٣

٤. الفصل الثاني: **حدود المائدة: حين يربّي الله الشهوة لتصير عبادة** ـــ ص ٢١

٥. الفصل الثالث: **طهارة الجوارح وعدالة القلب: حين يغسل الوضوء وجه الإنسان، وتغسل التقوى ضميره** ـــ ص ٣٥

٦. الفصل الرابع: **وعد الله وذاكرة النجاة: حين يُوزن العمل، ويكف الله أيدي المعتدين** ـــ ص ٤٨

٧. الفصل الخامس: **نقض الميثاق وذاكرة الوحي: حين تتحول القلوب القاسية إلى خرائط للنسيان والفرقة** ـــ ص ٥٧

٨. الفصل السادس: **من الظلمات إلى النور: حين يكشف الكتاب ما أخفاه الناس، ويقود الرضوان إلى سبل السلام** ـــ ص ٧٠

٩. الفصل السابع: **على أعتاب الأرض المقدسة: حين تقف الأمة بين نداء اليقين وذاكرة الاستعباد** ـــ ص ٨٤

١٠. الفصل الثامن: **القربان الأول والدم الأول: حين يفسد الحسد معنى القرب، ويعلّم الغراب الإنسان كيف يواري عاره** ـــ ص ٩٩

١١. الفصل التاسع: **حرمة الدم وحراسة الحياة: حين يصبح قتل الواحد عدوانًا على الإنسانية، وتغدو نجاة النفس إحياءً للعالم** ـــ ص ١١٢

١٢. الفصل العاشر: **ابتغوا إليه الوسيلة: بين جهاد النفس، وعدالة الحدود، وملك لا تنفع أمامه خزائن الأرض** ـــ ص ١٢٢

١٣. الفصل الحادي عشر: **لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر: حين يمرض القلب، ويُشترى الحكم، ويصبح الكتاب أمانة في أعناق العلماء** ـــ ص ١٣٥

١٤. الفصل الثاني عشر: **وأن احكم بينهم بما أنزل الله: من عدالة القصاص إلى اكتمال المرجعية، ومن اختلاف الشرائع إلى السباق في الخيرات** ـــ ص ١٤٩

١٥. الفصل الثالث عشر: **ولاية القلب وهوية الأمة: حين يصنع الخوف ولاءات مريضة، ويأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ـــ ص ١٦٤

١٦. الفصل الرابع عشر: **حين تُتخذ الصلاة هزوًا: سخرية القلب الميت، ونفاق اللسان، وصمت العلماء عن أكل السحت** ـــ ص ١٧٨

١٧. الفصل الخامس عشر: **بل يداه مبسوطتان: افتراء البخل على الكريم، ونيران الفتنة، والكتاب الذي لو أُقيم لأمطرت السماء رزقًا** ـــ ص ١٩٢

١٨. الفصل السادس عشر: **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: حين يعمى القلب عن الفتنة، ويأكل المسيح وأمه الطعام، ويأتي التوحيد لينقذ المحبة من الغلو** ـــ ص ٢٠٥

١٩. الفصل السابع عشر: **لبئس ما كانوا يفعلون: حين يبدأ السقوط بذنب فردي، ثم يكتمل بصمت الجماعة، وتفيض أعين الصادقين حين يعرفون الحق** ـــ ص ٢١٩

٢٠. الفصل الثامن عشر: **لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم: حين يحرس الوحي الإنسان من رهبانية الغلو، ويحرره من خمر الشهوة وميسر الوهم** ـــ ص ٢٣٢

٢١. الفصل التاسع عشر: **ليبلونكم الله بشيء من الصيد: حين تمر الفريسة قريبًا من اليد، ويغدو الامتناع شهادة على خشية الغيب** ـــ ص ٢٤٧

٢٢. الفصل العشرون: **الكعبة قيامًا للناس: مركز ثابت في عالم متحرك، وحرمة تحفظ الزمن والرزق والإنسان** ـــ ص ٢٥٥

٢٣. الفصل الحادي والعشرون: **لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم: فضول يضيّق السعة، وخرافة تحرم رزق الله، وآباء يُتبعون ولو كانوا لا يعقلون** ـــ ص ٢٦٢

٢٤. الفصل الثاني والعشرون: **شهادة على حافة الموت: حين تغيب الرقابة، ويصبح قسم الشاهد آخر جسر يصل الحق إلى أهله** ـــ ص ٢٧٢

٢٥. الفصل الثالث والعشرون: **يوم يجمع الله الرسل: حين يعود التاريخ إلى محكمته، ويقف الأنبياء شهداء على ما فعل الناس برسالاتهم** ـــ ص ٢٨٢

٢٦. الفصل الرابع والعشرون: **مائدة من السماء: حين يطلب القلب آية ليطمئن، ثم يصبح نزولها ميثاقًا لا يحتمل الكفر** ـــ ص ٢٩٠

٢٧. الفصل الخامس والعشرون: **أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين؟ براءة المسيح من الغلو، وشهادة العبودية في محكمة الآخرة** ـــ ص ٢٩٧

٢٨. الفصل السادس والعشرون: **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم: النهاية التي يعود فيها الميثاق كله إلى كلمة واحدة؛ الصدق** ـــ ص ٣٠٥

٢٩. خاتمة الكتاب: **مائدة الميثاق: من أول العقد إلى يوم الصادقين** ـــ ص ٣١٠